
چون روز
أساطير الصهيونية
ترجمة :
د . قاسم عبده قاسم
مكتبة الشروق الدولية

أساطير الصهيونية

أساطير الصهيونية

چون روز

ترجمة:
د. قاسم عبده قاسم



رسم الغلاف:

إحدى رسومات الفنان الفرنسي جوستاف دوريه الذى مات سنة ١٨٨٣م .

يصور شمشون ـ الذى كان قاضيًا فى إسرائيل ـ وهو يهدم المعبد عليه وعلى أعدائه الفلسطينيين .

وقد جاء فى الكتاب المقدس : « . . . . فكان الذين قتلهم شمشون عند موته أكثر من الذين قتلهم طوال حياته . . . . وكان شمشون قد قضى لبنى إسرائيل عشرين سنة » القضاة ١٦ : ٣٠ ، ٣١ .

وكان شمشون قد قال قبل ذلك : « . . . . . بفك حمار قضيت على ألف رجل » القضاة ـ ١٥ : ١٦ .

وقصة القاضى شمشون فى سفر القضاة (١٣ـ١٦) جديرة بالقراءة (الكتاب المقدس ـ طبعة كتاب الحياة ـ ص ٣٣١ ـ ٣٣٦) .

فى ذكرى تونى كليف
الاشتراكى الثورى
اليهودى الفلسطينى

الفهــرس

الموضوع **الصفحة**

شكر وعرفان

ساعدنى أناس كثر فى هذا الكتاب . أولهم وفى مقدمتهم شريكتى إلاهيه روستامى پوڤى ، التى لم تقرأ كل فصل بمجرد كتابته فحسب ، وتقوم بتعليقات نقدية ، لكنها مشجعة دائمًا ، وإنما كان عليها أيضًا أن تعايش تغير أحوالى المزاجية ما بين انطلاق حماسة الفنان أو شكوكه .

أما صديقى الطبيب مايكل روسن فقد قرأ أيضًا الكتاب فصلاً فصلاً . وهو نوع من المحرر غير الرسمى ، كان بريده الإلكترونى ورسائله التليفونية ، تتسم دائمًا بالعمق ، وأحيانًا غاضبة حانقة ولكنها عادة مرحة ، مما ساعد على ثبات أعصابى .

وأخى بيتر وصديقى الفلسطينى أيهام ذكرى ، وكذلك أصدقائى الآخرون سابى ساجال ، وفيل مارفليت ، وآن الكسندر ، قرأوا فصولاً بعينها . وأشعر بامتنان شديد لتعليقاتهم .

كذلك ساعدنى قسم الدراسات اليهودية فى جامعة ساوثهامپتون ، حيث أنهيت دراسة الماچستير سنة ٢٠٠٠م . إذ إن بعض الأفكار التى تظهر فى هذا الكتاب تم اختبارها للمرة الأولى فى الندوات والمقالات التى قدمتها هناك (على الرغم من أن فكرة الكتاب جاءت فى وقت لاحق) .

لم يتوقف القسم أبدًا عن تشجيعى بروح مرحة ، ولكنه ربما كان أيضًا حائرًا بعض الشيء فى أمر ذلك الرجل المتقدم فى العمر . . الداعم لأفكار تروتسكى ، المعادى للصهيونية منذ أن كان مناضلا فى ثورة الطلبة عام ١٩٦٨ .

وقد انضم مارك ليڤين إلى القسم بعد مغادرتى . ومارك خبير فى إعلان بلفور ، وقد كان شديد الكرم بقراءة الفصل الذى كتبته عن رعاية بريطانيا للمستعمرة الصهيونية فى

فلسطين. وأعتقد أنه من العدل القول بأننا اتفقنا على ألا نتفق، ولكن المؤكد أن الفصل يدين بقوته إلى رسائلنا الإلكترونية الحادة وعلى طرفى نقيض والتى كنا نتبادلها سويًا.

وقرأ البروفيسور أنتونى پولونسكى، رئيسم قسم التاريخ الشرقى واليهودى بجامعة براندیز، فی الویالات المتحدة الأمريكية، الفصل الثالث، عن الدور الاقتصادى اليهودى فى أوروپا العصور الوسطى، وقد انشرح صدرى لتعليقاته.

أما سامى زبيده، البروفيسور الفخرى للعلوم السياسية والاجتماع بكلية بيربك فى جامعة لندن، والباحث الشهير المعترف به فى العالم العربى والإسلامى، فقد قرأ الفصل الأخير الذى كتبته عن الصلح العربى - اليهودى. وكتب إلىَّ يقول كيف أنه استمتع به كثيراً؛ إذ وجده «أنه بحث جيد وواضح ومستوعب». كذلك قرأه البروفيسور طارق إسماعيل بقسم العلوم السياسية بجامعة كالجارى، ألبرتا، ومولف كثير من الكتب عن تاريخ العرب الحديث. وكانت ملاحظاته المشجعة محل تقدير عظيم.

وثمة مناقشة جرت مع جوناثان توب، فى قسم الشرق الأدنى القديم بالمتحف البريطانى عن الأزمة التى تواجه الدراسات الأثرية الإسرائيلية وفشلها فى العثور على «إسرائيل الكتاب المقدس»، وهى مناقشة لا تقدر بثمن، وكان تقديرى عظيمًا لأن جوناثان قرأ الفصل الذى كتبته عن هذه المسألة الأخاذة.

وكان البروفيسور موشى ماشوڤر، الاشتراكى، والمعارض والمقاتل القديم ضد الصهيونية، على استعداد دائم لأن يجيب على استفساراتى التى أرسلها بالبريد الإلكترونى، مهما كانت صعبة أو تافهة، وبالإضافة إلى ذلك، فإن تحليله الثاقب العادل للمخطوط النهائى لا يقدر بثمن. وشكر خاص أدين به لموشى ماشوڤر على هذا.

أما چورچ بايزيس، ومرتضى صاحب زاده، ورولاند رانس، فقد ساعدوا أيضًا بالأفكار والاقتراحات. وقد برهنت مواهب رولاند الكثيرة، بما فى ذلك معرفته الموسوعية عن المواقع ذات الصلة بالموضوع على الإنترنت، على أنها أرصدة لا غنى عنها.

وأخيراً، أود بشكل خاص أن أشكر سابى ساجال، وعفيف صافيه المندوب الفلسطينى العام فى المملكة المتحدة، والپروفيسور كالينيكوس، وموشى ماشوڤر، وإيلان بابى ؛ لأنهم قرأوا المخطوط النهائى وعلقوا عليه.

مات پول فوت قبل شهرين من نشر كتابى، وقد كان يتطلع إليه بشدة. . كل ما أتمناه هو أن يكون الكتاب عند حسن ظنه.

چـــون روز

سپتمبر ٢٠٠٣م

***

تقديم

نشأت فكرة هذا الكتاب للمرة الأولى فى صيف سنة ٢٠٠٢م فى أعقاب ملاحظات عنصرية صفيقة أطلقها رئيس الوزراء السابق إيهود باراك من حزب العمل الإسرائيلى، عندما زعم أن «الكذب» جزء جوهرى فى الثقافة العربية (آرورى ٢٠٠٣ ـ ١٧٣). انعكس هذا الانفجار العاطفى غير العادى بشكل غاية فى السوء على باراك ـ وربما يشى بشىء مماثل عن العملية النفسية التى تسمى «الإسقاط»، ألم يكن يسقط على عدوه كشفًا عن أفكاره السياسية الخاصة ومعتقداته المدفونة فى أعماق نظامه العقلى؟ المؤكد أن الفلسطينيين يرون من خلال تجربتهم أن الصهيونية عبارة عن صرح من الأكاذيب.

خُذ مثالاً بسيطًا. عندما كان باراك رئيسًا للوزراء، كان عدد المستوطنات اليهودية غير القانونية فى الضفة الغربية قد تزايد، على الرغم من التزامه المفترض بـ «عملية السلام». والسياسيون الصهاينة أمثال باراك يدثرون ادعاءاتهم حول الضفة الغربية بعباءة الأسطورة الدينية، ويستشهدون بحكايات الكتاب المقدس عن «أرض إسرائيل القديمة». وعلى أية حال، فإنه بالنسبة للفلسطينيين الذين عاشت عائلاتهم على هذه الأرض الفلسطينية وزرعوها على مدى الأجيال، تبدو هذه الأسطورة كذبة ضخمة، لتبرير سرقة أرضهم.

ما الذى يميز كذبة عن أسطورة وفقًا لـ «Concise Oxford Dictionary»؟ الكذبة: هى «بيان زائف عمدًا»، «خداع متعمد»، على حين أن الأسطورة مفهوم ذائع «الانتشار ولكنه مزيف»، دون أن يكون فيه خداع متعمد بالضرورة. ولكن إذا جربت مجموعة من الناس الظلم والاضطهاد نتيجة لأسطورة، للزيف، فإن المؤكد أنه لا يهم بالنسبة لهم ما إذا كان الزيف خداعًا عمدًا فى أصله أم لا.

وحجة هذا الكتاب أن الصهيونية مبنية على سلسلة من الأساطير . مجموعة من المفاهيم الزائفة التى تقوض مزاعمها عن الديانة اليهودية والتاريخ اليهودى، كما أن أساسها الجوهرى - كاستجابة لنزعة معاداة السامية الأوروپية - فضلاً عن تبريرها لوضعها السياسى العدوانى، أمر بالغ الخطورة فى أرض فلسطين .

والفصول التالية تتعامل بشكل مباشر مع الأساطير ، بالرد على مزاعم محددة اصطنعتها الأيديولوچيات الصهيونية ، أو على المعتقدات واسعة الانتشار التى صارت جزءًا من الفولكلور الصهيونى .

أعظم صناع الأساطير الصهيونية ، داڤيد بن جوريون، ساعد دون قصد على تشكيل أول وآخر فصول الكتاب . هذا المُعد للحقائق كان هو أول رئيس وزراء إسرائيلى وأكثر زعماء الصهيونية نجاحًا فى القرن العشرين . بن جوريون تباهى مرة بأن الأسطورة يمكن أن تصبح حقيقة إذا آمن الناس بها بما يكفى من القوة .

وقد استخدم بحذق ومهارة، خفة اليد الثقافية، لكى يتلاعب - باحتراف - بقصص الكتاب المقدس ، بحيث تناسب المزاعم السياسية للصهيونية على الأرض الفلسطينية .

ويفند الفصل الأول استخدام بن جوريون الفاحش جدًا للأساطير الدينية ، وبالتحديد أسطورة أن الكتاب المقدس « فوضه أمر » إعلان دولة يهودية فى فلسطين . ويوضح الفصل ، مع تطور الطرح المقدم فيه، كيف أن علم الآثار الإسرائيلية الآن من مصداقية المزاعم ا لصهيونية حول (إسرائيل القديمة)، والفصل العاشر يوضح كيف أن بن جوريون دمر أية احتمالات لمصالحة عربية - إسرائيلية . إذ إنه خرب المحادثات السرية مع ناصر رئيس مصر ، الذى كان أهم زعيم قومى عربى فى القرن العشرين ، والذى كان يسعى إلى سلام مشرف مع إسرائيل . ذلك أن «تنظيم الضباط الأحرار» ، بما فيه ناصر ، الذى قاد ثورة مصر الوطنية فى سنة ١٩٥٢م، كان قد قطع شوطًا كبيرًا لبناء جسور مع الجماعة اليهودية فى البلاد .

ويشير سلوك بن جوريون هنا إلى أهم استنتاج فى الكتاب، بأن الصهيونية هى مصدر العداوة العربية - اليهودية ، وتعتمد أى احتمالات للمصالحة العربية - اليهودية على إزاحتها .

وتتطلب فكرة المصالحة «العربية ـ اليهودية» سؤالاً حيويًا حول تجاهل تاريخ آخر أسبق زمنًا. إذ إن الثورة الإسلامية، قبل ما يزيد على ألف وثلاثمائة سنة، بشرت بما أسماه العديد من الباحثين «التعايش» بين العرب واليهود مما أنتج ثقافة عربية ـ يهودية أو حتى ثقافة يهودية ـ إسلامية، وليس مجرد ثقافة يهودية باللغة العربية (الفصل الرابع، والفصل العاشر).

بل إنه من المحتمل أن طبقة التجار اليهودية فائقة الحركة ـ التى قيض لها أن تقود الجامعات اليهودية فى أوروپا العصور الوسطى وساعدت على وجود فترات آمنة من الازدهار والاستقرار لليهود فى تاريخ أوروپا القديم (الفصل الثالث) ـ كانت جذورها، جزئية على الأقل، تضرب فى هذه الفترة الإسلامية اليهودية الباكرة. ومن المؤكد أن هذه كانت وجهة نظر أبرز باحثى القرن العشرين فى التاريخ العربى اليهودى، الپروفيسور د. جويتين (الفصل الرابع والفصل العاشر).

ولكن ما علاقة هذا بتفنيد أساطير الصهيونية؟ هناك إجابتان مختلفتان تمامًا. أولاهما: أن الصهيونية تتجاهل المكون العربى الإسلامى فى التاريخ اليهودى. وثانيتهما: أن الصهيونية لا ترى سوى «المعاناة» اليهودية خلال ما يسمى «النفى»، لا سيما فى أوروپا.

وأسطورة «النفى» لها سخافتها المخصوصة، وقد سيستها الصهيونية عندما جلبتها من قصص الكتاب المقدس. وهى تشير إلى ما يقرب من ألفى سنة من التاريخ اليهودى من هدم المعبد فى القدس على أيدى الجيش الرومانى سنة ٧٠م، حتى مولد إسرائيل فى سنة ١٩٤٨م. ويعتبر اليهود الذين كانوا يعيشون خارج فلسطين فى هذه الفترة منفيين عاشوا فى «المنفى». لا يبدو التعايش العربى ـ اليهودى نوعًا من «النفى» بأى حال. والحقيقة أن اليهود كانوا قد استوطنوا منطقة الهلال الخصيب (التى حولت بريطانيا جزءًا كبيرًا منها إلى العراق فى بدايات القرن العشرين)، لا سيما المنطقة المحيطة بمدينة بابل القديمة، قبل عدة قرون مما يسمى النفى. وإلى هذا اليوم يتحدث اليهود الإيرانيون والعراقيون بفخر عن تاريخ متواصل على مدى ٢٥٠٠ سنة. والتلمود البابلى، الذى بقى المرشد الروحى لكل اليهود المتدينين، ومنهم اليهود الأوروپيون، هو فى حد ذاته

شهادة على أهمية هذه الجماعات اليهودية . وبعد الثورة الإسلامية، حلت بغداد محل بابل باعتبارها المركز الروحى لكل الجماعات اليهودية، بما فى ذلك الجماعات اليهودية الصغيرة جدًا، فى ذلك الوقت، بأوروبا .

ويتحدى الفصلان الثانى والثالث أساطير «النفى» و«المعاناة»، ففى الفصل الثانى نرى كيف أنه فى وقت سقوط المعبد بالقدس، منذ حوالى ٢٠٠٠ سنة، كان معظم اليهود يعيشون خارج فلسطين ، مبعثرين فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية وما وراءها، ولم تكن بابل استثناء فى ذلك .

أما الفصل الثالث فيواجه بروز طبقة التجار اليهودية، فى أوروبا العصور الوسطى إلى أسطورة «المعاناة». والآن لا يوجد شك فى أن الدور الاقتصادى اليهودى فى أوروبا العصور الوسطى كان يمكن أن يفاقم، بل ويحفز نزعة عداء السامية التقليدية فى المسيحية . ولكن الصهيونية تحكى جانبًا واحدًا فقط من القصة . إذ كان الحكام المسيحيون على استعداد دائم لحماية رعاياهم اليهود الذين كانوا ناشطين اقتصاديًا وفى غاية النجاح أحيانًا . وعلى أية حال، فإن الصهيونية تتخلص من المناقشة الجادة، دعك من التحليل، للدور الاقتصادى اليهودى فى التاريخ الأوروبى الباكر .

هذا محض نفاق، إذ كان على الصهيونية أن تواجه الصورة غير المتوافقة زمنيًا «للتاجر والمالى اليهودى» التى عاشت إلى ما بعد حركة التنوير الأوروبية بنفس الروح التى عمرت بها الحركات اليهودية الأخرى الأهم كثيرًا والتى خرجت من رحم التنوير والأندماجيين والاشتراكيين . و«شيلوك» الشخصية اليهودية المثيرة للجدل التى ابتدعها شكسپير، ينتمى بجذوره إلى هذا التاريخ اليهودى الأوروبى الباكر . لا يمكنك أن تتجاهل «شيلوك»، إنما عليك أن تشرحه . ويحاول الفصل الثالث أن يقدم مثل هذا الشرح .

وقد طرحت حركة التنوير وعدًا بالاندماج . إذا إنها كانت إعلانًا عن حقوق جديدة للمواطنة والحريات فى أوروبا وأمريكا، ليعيش اليهود جنبًا إلى جنب مع المسيحيين . وتضمن هذا التحرر من الدور الاقتصادى الضيق الذى كانت أوروبا المسيحية قبل العصر الحديث قد حاولت أن تفرضه على اليهود . وبدأت الثورة الأمريكية سنة

١٧٧٦م والثورة الفرنسية ١٧٨٩م فى تحويل الوعد إلى حقيقة سياسة عملية. وللأسف، فإن الثورة فى الإمبراطورية الروسية حيث كانت تعيش غالبية اليهود ـ والتى بلغت ذروتها فى بواكير القرن العشرين ـ قد أخفقت فى الوفاء بذلك الوعد. وكشف الفصل السادس الخلفية التاريخية، ويبرهن على أن الجذور الحقيقية للصهيونية تكمن هناك.

أما الفصول: الخامس والسابع والتاسع فتكشف الأثر المدمر العميق للصهيونية على العرب وأرضهم فى فلسطين، حسبما ظهر أيضًا فى العالم الحديث. ويفند الفصل الخامس النصف الأول من الأسطورة الصهيونية الشهيرة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، ويفند الفصل الساس النصف الثانى منها. ويحاول الفصل الخامس أن يعيد الحياة للجماعات الفلاحية العربية فى الأرض الخاوية بفلسطين قبل وصول الصهاينة فى القرن التاسع عشر. وبقدر نجاح الفصل فى هذا، فإن الفضل ينبغى أن ينسب للمؤرخ اللامع ـ ولكن حظه من الشهرة قليل ـ «بشارة دومانى»، الذى أقتبس فى هذا الفصل أبحاثه دون خجل.

ويكشف الفصل السابع والتاسع أسطورة أن مزاعم الصهيونية بشأن الاستقلال الوطنى اليهودى والتحرير، يمكن مقارنتها بنضال الشعوب المقهورة فى أماكن أخرى بالعالم فى القرن العشرين. فالحقيقة أن الصهيونية مثلت حركة فى الاتجاه المضاد. وبعد الحرب العالمية الأولى، ساعدت على تقوية الحكم الاستعمارى البريطانى على العالم العربى. وبعد الحرب العالمية الثانية، لم تكن الدولة اليهودية المختلقة حديثًا سوى رصيد استراتيجى لمخططات الولايات المتحدة الإمپريالية الجديدة للمنطقة العربية. وفى كل من الحالين، كانت الصهيونية معتمدة على القوى الإمپريالية الغربية تمامًا.

هذه الفصول تلقى بعض الضوء المدهش على المجادلات المألوفة. فمثلاً يكشف الفصل السابع كيف أن إعلان بلفور سنة ١٩١٧م، الذى مهد الطريق أمام الدولة اليهودية، له جزور أعمق مما يدرك معظم الناس. ذلك أن آرثر بلفور، الوزير البريطانى المحافظ الذى ارتبط الإعلان باسمه، كانت تحركه معتقدات معادية للسامية. ولم تنتقل عدوى معاداة السامية المنسوبة إليه إلى بقية وزارة داڤيد لويد الحربية فقط؛ وإنما ذعن إليها بسعادة الزعماء الصهاينة من أمثال حاييم وايزمان.

ويكشف هذا عن جانب من الصهيونية مزعج تمامًا، وعادة مخفيًا، وهو جانب نقابله أيضًا فى الفصل السادس مع تيودور هرتزل، مؤسس الصهيونية، كان ذلك استعدادًا لدعم الآراء الأوروبية المعادية للسامية عن اليهود. ونقولها صريحة: إن الزعماء الصهاينة كانوا على استعداد تام لأن يقولوا للسياسيين الأوروبيين الذين يتصرفون من منطلق رد الفعل «فى بلادكم يهود أكثر مما ينبغى؟ ساعدونا على التخلص منهم فى فلسطين».

كذلك يناقش الفصل السابع زعمًا غير عادى، بأن الدافع الأساسى وراء إعلان بلفور كان اعتقاد وزارة الحرب البريطانية، بأن القوة اليهودية فى أمريكا وروسيا سوف تساعد على تقوية مركز الحلفاء فى الحرب ضد ألمانيا.

ونعوم تشومسكى هو الملهم الرئيسى وراء الفصل التاسع، ومثلما لاحظ إدوارد سعيد، أعظم مفكر فلسطينى، فإن كتاب Fateful Triangle لتشومسكى، ربما يكون أكثر الكتب طموحًا من حيث محاولة تناول الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين من زاوية الدور الأمريكى المركزى فى هذا الصراع. . ويمكن قراءته على أنه حرب طويلة بين الحقيقة وسلسلة من الأساطير ـ إسرائيل الديمقراطية، استخدام إسرائيل الطاهر للسلاح، الاحتلال الرحيم، لا عنصرية ضد العرب فى إسرائيل. . هذا العمل يستحيل مجاراته، وإذا كان هذا الفصل لا يفعل شيئًا سوى إقناع الناس بقراءة تشومسكى، فإنه يكون قد حقق غرضه.

وعلى أية حال، فإن الفصل يحاول أن يكون على قدر من الأصالة. فتحت حكم الرئيس جورج دبليو. بوش، بدت العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل مقلوبة أحيانًا بشكل غريب، وبعيدًا عن أن إسرائيل تخدم مصالح الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، ألم تبدأ الولايات المتحدة فى خدمة مصالح إسرائيل؟

ويغلب على الظن أن اليهود الأمريكيين من المحافظين الجدد، فى قلب إدارة بوش، كانوا مهندسى هذا الانقلاب فى السياسة. ومن المؤكد أن لبعض هؤلاء المحافظين الجدد جذورًا تمتد إلى حزب الليكود المتعصب فى إسرائيل (الحزب الحاكم وقت عمل هذا الكتاب فى صيف ٢٠٠٣م). وثمة عامل معقد يتمثل فى أن هذه الزمرة القبيحة قد

بعثت الحياة مجدداً فى اتهام قديم بمعاداة السامية تستخدمه المؤامرة الصهيونية. ويحاول الفصل التاسع بعناية أن يفند الاتهام، وينظر إلى أى مدى انصاعت إدارة بوش للمحافظين الجدد.

ويتحدى الفصل الثامن أسطورة أن الهولوكوست أو ما يسمى مذابح النازية ضد اليهود يقدم حالة لا يمكن الرد عليها فى الدفاع عن الصهيونية. فبينما لا يوجد شك فى أن الهولوكوست(*) يشكل إحدى أخطر الجرائم فى التاريخ الإنسانى فإن ذلك لا يبرر اختلاق دولة يهودية قائمة على أساس الإقصاء العنيف لشعب آخر من أرضه، وهو ما حدث بالضبط سنة ١٩٤٨م. لقد كانت تلك لحظة فاصلة بالنسبة لكل من الصهيونية والفلسطينيين الذين يذكرونها باعتبارها نكبة. وبالإضافة إلى أن ما حدث هو أبعد ما يكون عن كونه رد فعل مشروع للهولوكوست، فإن الهولوكوست أذا ما تذكرناه بشكل صحيح هو نفسه يدين الأفعال التى تسحب الأساس الأخلاقى من أولئك الذين يستغلونه على هذا النحو. ويجادل الفصل الثامن من خلال استخدام كتابات وتحليلات حول الهولوكوست، بأن الرفض الإيديولوجى الأعمى لفهم الحقائق السياسية للشعب الفلسطينى، له قدرة فى حد ذاته على جعل الصهيونية حركة راديكالية، مما يغريها بتصرفات عنيفة أشد من ذى قبل ضد الشعب الفلسطينى.

ونحن نعرف من تاريخها القصير والدموى كيف يمكن أن يتحول هذا العنف إلى تطهير عرقى. ولدينا دلائل تاريخية صادمة من قرية دير ياسين الفلسطينية سنة ١٩٤٨م وفى معسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا ببيروت سنة ١٩٨٢م. وقد صك كاتب إسرائيلى راديكالى مصطلحًا جديدًا لهذه العملية هو Politicide، بمعنى إيجاد نهاية للوجود «الفلسطينى» (kimmerling 2003:3) التى ترمز إليها سياسات الزعيم الإسرائيلى آريل شارون.

(*) استغلتها إسرائيل سياسيًا وإعلاميًا وماليًا، ودفع ثمن ذلك الفلسطينيون. وهناك خلاف كبير على حجمها وتفاصيلها، مع إغفال بقية ضحايا النازية والحرب العالمية الثانية فى مقابل التركيز عليها، وتفرض كثير من الحكومات الأوروبية عقوبات قانونية ضد من يحاول «التشكيك» فى هذه الأسطورة. وقد تعرض باحثون فى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة لمضايقات عنيفة نتيجة نشر أبحاثهم عنها. وآخرهم المؤرخ الإنجليزى إيرفنج الذى ينفى تمامًا وقوعها، حيث تم اعتقاله فى ديسمير عام ٢٠٠٥م ـ المترجم.

وتتسم الدولة اليهودية بعجز فطرى عن الاعتراف بمسئوليتها عن النكبة، وفى الحقيقة فإنّ ظل اللاجئ الفلسطينى قدر سيطاردها إلى الأبد، ماديًا، وسياسيًا وأخلاقيًا ونفسيًا، ثم عسكريًا فى نهاية الأمر. إذ إن حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة التى كان يقودها ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، تضرب بجذورها العميقة فى معسكرات اللاجئين المنتشرة فى معظم أنحاء العالم العربى. وعلى الرغم من أن الأمر استغرق عشرين سنة لكى تظهر منظمة التحرير الفلسطينية، فإنها كانت بالنسبة للدولة اليهودية الوجه الآخر السالب. لقد كان للمنظمة الحق السياسى والأخلاقى فى أن تطالب بأعتراف على أسس عادلة واعتراف بطلبها العادل للعودة لأرض فلسطين. ويجسد الانتحارى الذى يفجر نفسه بالقنابل فى مطلع القرن الحادى والعشرين إخفاق الدولة اليهودية فى فهم هذا. ففى بعض الأحيان يكون الانتحارى هو اللاجئ الذى لم يسمح له بالعودة إلى وطنه.

وعلى امتداد هذا الكتاب، استخدمت عبارة معاداة السامية لوصف كراهية اليهود. وأنا أدرك تمامًا أن هناك جدلاً حول هذا المفهوم (بل حتى فى كيفية تهجئته) ولكن هذه حذلقة لا أظن أنها تخصنا هنا.

إذا كان هذا الكتاب يقترح الحاجة الملحة لتاريخ يهودى بديل، سواء القديم أو الحديث، بدلاً من التاريخ الذى أقحمه الصهاينة علينا فى القرن العشرين، فإن هذا يكون إضافة جيدة. ولكننى لا أزعم أننى كتبت مثل هذا التاريخ. إذ إن اهتمامى الأساسى كان منصبًا فقط على هدم التاريخ الأسطورى الذى اصطنعته الصهيونية.

***

الفصل الأول

الكتاب المقدس
هو مصدر ملكيتنا

عندما حذر داڤيد بن جوريون السلطات البريطانية ـ عن طريق اللورد پيل والبعثة الملكية[1] ـ سنة ١٩٣٦م من أن «الكتاب المقدس هو مصدر الملكية لنا» (Ben Gurion 1970 : 107). كان السياسى الصهيونى الأشهر فى القرن العشرين، والذى صار فيما بعد أول رئيس وزراء إسرائيلى، يقدم تعبيراً حديثًا عن أسطورة أصولية تمامًا من الكتاب المقدس، وهى أسطورة تمثل قلب الصهيونية. فكما جاء فى العهد القديم، كانت مملكة إسرائيل اليهودية القديمة والتى تُدعى أحيانًا إسرائيل القديمة وتسمى أحيانًا مملكة داود وسليمان المتحدة، كانت موجودة من حوالى سنة ١٠٠٠ حتى سنة ٩٢٢ ق. م. ويزعم أنها كانت أقوى دولة والأكثر رخاء بين دول شرق المتوسط فى ذلك الوقت، وتبسط سيادتها من نهر الفرات فى بلاد الشام حتى تخوم مصر (وادى العريش) شمال سيناء.

وتتطابق هذه الحدود مع الوعد الذى يقال إن الرب قد أعطاه لإبراهيم أبى الأنبياء ومسجل فى سفر التكوين، الذى هو الفصل الافتتاحى فى الكتاب المقدس:

«وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكا أبديًا. وأكون إلههم» (تكوين ١٧ ـ ٨).

هذا هو الأساس الذى يقوم عليه المفهوم الجغرافى السيئ للرؤية الصهيونية. **أرض إسرائيل، الصخرة التى تقوم عليها الأيديولوچية الصهيونية**(*). وهى خليط قوى من

(*) قال شلومو بن عامى آخر وزراء خارجية حزب العمل لعمرو موسى ـ أمام وكالات الأنباء ـ فى القرن الواحد والعشرين: القدس عاصمة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة: فأجابه موسى: ولكن عمر إسرائيل=

اليهودية القديمة والقومية الحديثة، التى تحتفى بالوعد الذى أعطى لإبراهيم، وتزعم أن مملكة داود هى تعبيرها السياسى ونموذجها الحديث المانح للشرعية فى حد ذاته.

عند هذه النقطة يحتاج القارئ إلى التنبيه إلى خاصية مفزعة بشأن بن جوريون، وهى خاصية يشترك فيها مع غيره من زعماء الحركة الصهيونية. ذلك أن بن جوريون لا يؤمن بشكل خاص بهذه القصة الواردة فى الكتاب المقدس، أو بأية قصة أخرى بهذا الشأن ولكن ما كان يهمه - كما قال - هو أن يهوداً كثيرين يصدقونها بالفعل. وكان هذا كافياً. فلا يهم ما إذا كان الاعتقاد صحيحاً أم لا. إعطاء معنى لهذا النظام العقائدى الغريب، هو من الأعراض العامة المتأصلة للأيديولوچية الصهيونية، هو الذى سوف يشكل أساس النصف الأول من هذا الفصل. وسوف نتأمل حينئذ شيئاً أشد مدعاة للدهشة: إن الصهاينة علماء آثار عظماء. لقد كان البحث عن الآثار نوعاً من الهوس الوطنى، وظلوا على مدى أكثر من مائة سنة يقومون بحفائر فى فلسطين بحثاً عن «إسرائيل القديمة». وفى مناسبات تم الإعلان عن اكتشافها فى تصريحات زائفة مبالغة فى الحماس، ثم لا تلبث أن تنهار ولا تصمد أمام التمحيص العلمى المكثف. ثم حدث فى تسعينيات القرن العشرين، أن بدأ يتضح الإدراك بأنها يمكن ألا تكون موجودة. .

وبعض علماء الآثار الإسرائيليين ذائعى الصيت أدركوا حينئذ أن ما يسميه العلماء أحياناً «تحول النموذج» قد صار ضرورة. وبعبارة أخرى، كان الإطار المسلَّم به المستخدم فى محاولة تفسير الاكتشافات الأثرية هو نفسه المشكلة. وبشكل صريح، فإن قصص العهد القديم - بعيداً عن تقديم خطوط إرشادية للكشف الأثرى - قد برهنت على أنها عراقيل وعقبات.

ويخلص الفصل إلى النظر فى كيفية أن علماء الآثار يتوافقون مع ما يعتبر ثورة عقلية فى التفكير حول فلسطين القديمة، وكيف أنهم وجدوا أنفسهم - دونما قصد - يتحدون الأسطورة الصهيونية التى هى جوهر الهوية الإسرائيلية الحديثة.

= خمسون سنة فقط. فأجاب شلومو: كل الناس يعرفون أن القدس عاصمة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة. فذلك موجود فى الكتاب المقدس. وبعد وفاة ياسر عرفات، ظهر وزير العدل الإسرائيلى على شاشة الـ C.N.N ليقول: لا يمكن دفن الإرهابى عرفات فى ا لأرض التى دُفن فيها ملوك بنى إسرائيل - المترجم.

بن جوريون: رائد صهيونى..

كان داڤيد بن جوريون، المولود فى بلونسك، پولندا، سنة ١٨٨٦م، جزءًا من جيل من الشباب اليهود فى الإمبراطورية الروسية الذين صدمتهم تجاوزات المذابح، وأعمال الشغب المعادية لليهود، والهجمات القاتلة على الجماعات اليهودية. (هذه الفترة بما فيها نشاط الشاب بن جوريون فى پولندا، معروضة بالتفصيل فى الفصل السادس) وصار بعض هؤلاء الشباب اليهود أعضاء فى الحركة الصهيونية، وقليل منهم، كان بن جوريون من بينهم، ذهبوا للعيش فى فلسطين. وكانت هناك بالفعل مستوطنات زراعية صهيونية قليلة فى فلسطين التى كانت فى ذلك الوقت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية (نوقشت فى الفصل الخامس). **وعند وصول بن جوريون إلى فلسطين سنة ١٩٠٦م ذهب ليبحث عن المستوطنات الزراعية التى كان يصفها بالفعل بأنها «جمهوريات عبرية»** (Teveth 1987: 40) . **فى ذلك الوقت كان هناك خمسة وخمسون ألف يهودى فى فلسطين من إجمالى عدد السكان البالغ سبعمائة ألف.** وكانت هناك أقلية صغيرة من اليهود تعمل فى المستوطنات. وسرعان ما اكتشف بن جوريون أنه على الرغم من أن هذه المستوطنات تم بناؤها على أرض تم شراؤها من ملاك الأرض العرب الغائبين، فإن الفلاحين الغاضبين لأسباب منطقية والذين تم طردهم من الأرض قد عادوا لشن غارات مسلحة. وفى وقت باكر منذ سنة ١٩٠٩م نجد بن جوريون، وبيده البندقية، مستعدًا للدفاع عن مستوطنة زراعية فى الجليل(*) (Teveth 1978: 45).

وقد ترك بن جوريون بصمته على السياسات الصهيونية فى فلسطين مباشرة. فقد كان فى المؤتمر التأسيسى لبوال زيون (أى حزب العمال العبرانيين الديمقراطى الاشتراكى فى فلسطين، والذى ناقشت سياساته فى الفصل السادس). وفى سنة ١٩٠٦، تم انتخابه عضوًا فى اللجنة المركزية للحزب (Teveth 1987: 45) وسوف يواصل حزب العمال مسيرته بحيث يصير القوة الحاسمة فى السياسات الصهيونية فى معظم فترات القرن العشرين، وقيض لبن جوريون أن يصبح الأكثر نجاحًا وكارزمية بين زعمائه.

(*) كانت المقاومة الفلسطينية الباكرة ضد النشاط الاستيطانى الصهيونى مشروعة فى ضوء ممارسات عصابات تجريد الفلاحين من أراضيهم بمساعدة البنوك الغربية، وهى سياسة واصلتها سلطات الانتداب البريطانى فيما بعد ـ المترجم.

.. وصانع أساطير

فى هذا الفصل نركز اهتمامنا على محاولة فهم نظام المعتقدات لدى بن جوريون . وهو يقدم رؤية ثاقبة لا نظير لها فى داخل صناعة الأساطير الصهيونية . ويشرح بن جوريون بنفسه هذه المسألة على نحو جيد للغاية :

«ليس مهمًا ما إذا كانت القصة تسجيلاً لحدث أم لا. ولكن المهم هو أن هذا هو ما يعتقده اليهود، من فترة المعبد الأول» (Pearlman 1965: 227) .

وهناك كاتب اسمه ييزهار ، صار فيما بعد جزءًا من هيئة مكتب بن جوريون الداخلية ، قد حاول مؤخرًا أن يدافع عن الزعيم الصهيونى ضد الاتهام ، بأنه من خلال خلط الحقيقة (بالاعتقاد بالحقيقة) كان يعتمد التلاعب بالحقيقة لحساب تشكيل الأساطير ؛ لكى تناسب الذرائع السياسية للمشروع الصهيونى . وباختصار يحاول ييزهار لى الحقائق فيما بين الأسطورة والحقيقة :

«إن الأسطورة ليست أقل من التاريخ من حيث كونها حقيقة، ولكنها حقيقة إضافية، حقيقة مختلفة، حقيقة موجودة بإزاء الحقيقة، حقيقة إنسانية غير موضوعية، بيد أنها حقيقة تشق طريقها صوب الحقيقة التاريخية» (Wistrich and Ohana 1895: 61) .

ويبدو هذا نوعًا من الكتابة الحاذقة ، وربما حتى الشاملة العميقة ، بيد أنها كتابة معيبة بشكل عميق . إنها لحقيقة أنه بإقناع الناس بالعمل ، وبالعمل بشكل عنيف إذا دعت الضرورة ، استجابة لأسطورة ما ، يمكن خلق حقيقة تاريخية . بيد أن هذا لا يعطى مصداقية للأسطورة بحقن الحقيقة داخلها بشكل ما بعد حدوث الحدث . وعلى أية حال ، كانت هذه هى لعبة بن جوريون . إذ إن الاعتقاد المكثف فى الأسطورة جعلها حقيقة ، أو على الأقل لها ما للحقيقة من صلاحية . وهذه ديماجوجية (دهماوية) ، قادت بن جوريون فى أوائل ستينيات القرن العشرين إلى السقوط ومعه بعض من أبرز مفكرى إسرائيل العلمانيين و الدينيين . وكان السبب فى ذلك ما يعرف باسم فضيحة لافون[*] .

(*) فضيحة لافون هى عملية قامت بها المخابرات الإسرائيلية لضرب المصالح الأمريكية والبريطانية فى مصر بهدف الإيقاع بين حكومة الثورة وأمريكا وبريطانيا ، فى وقت لم تكن «حكومة الثورة» قد بلورت اتجاهات سياساتها الخارجية بعد . وقد تم الكشف عن هذه العملية بالصدفة فى إحدى دور السينما بالإسكندرية فى منتصف خمسينيات القرن العشرين ـ المترجم .

وما يهمنا هنا ليس فضيحة لافون فى حد ذاتها[٢]، وإنما الطريقة غير المتوقعة التى وضعت نزاهة بن جوريون موضع تساول، ولكنها كشفت أيضًا عن هشاشة الخصائص الأيديولوچية للدولة الإسرائيلية. وصدمت الفضيحة إسرائيل وهزتها.

«مع الخلاف العاصف الذى أوهن أساس الدولة الفتية، وعرض بن جوريون ولاون للعناء الخاص والعام... وأخضع الساحة السياسية لفوضى كاملة» (Cilbert 1998: 296-7)[٣].

ثم واجه بن جوريون عملية تصفية حسابات طويلة مع كثير من أشد مفكرى إسرائيل ليبرالية.

بن جوريون والمسيح المنتظر

كان أحد أكثر استخدامات بن جوريون إثارة لصناعة الأساطير، هو استخدام كان لا بد أن يؤدى فى النهاية إلى تعذيب منتقديه بشدة، هو لعبة على موضوع المسيح المنتظر لدى اليهود. فعند الوهلة الأولى ربما يبدو هذا أمرًا محالاً. فبغض النظر عن أى شيء، أنكر بن جوريون مركزية الدين كقوة أصيلة فى القومية اليهودية الحديثة (Keren 1983: 65). وكان مؤمنًا تمامًا بالعلم والعقلانية. وعلى أية حال، لم يكن هناك شيء بهذا القدر من الاستقامة لدى بن جوريون.

وقد وصف بأنه «موحد وقح»، ولم يوصف بأنه ملحد[٤]. ويبدو أن هذا يعنى أنه كان يؤمن بالقوة الروحية المعززة للعقل البشرى. «الاعتقاد بقدرة العقل البشرى ينبع من ارتباطه بالكون الذى يستكشفه» (Keren 1983: 28)، وأتاح له بابًا خفيًا يعاود منه الدخول إلى الدين عندما يناسبه، وكذلك المرونة فى إعادة تفسير الدين بحيث يناسب الحاجات السياسية الحديثة ومبررها الأيديولوچى.

وفى كل الأحوال، أتاح له إيمانه التوحيدى أن تكون له تطلعاته المسيحانية الخاصة، وهو أمر من الواضح أنه متاح للعباقرة من البشر، ويبدو أنه كان يحسب نفسه واحدًا منهم. فقد كتب «الرب أو الطبيعة هو الذى يمنح العبقرى مواهب سامية، ليس بدافع حبه له، ولكن بدافع من الرغبة فى أن يرزق العالم بمخلوقات سامية. . . إنه يخلق وسيطًا. .» (Teveth 1987: 10). لقد رأى نفسه هذا الوسيط، وغالبًا ما استخدم

عبارة «هازون مشيحى» أى «الرؤية المسيحانية» (Wistrich and Ohana 1995: 62) فيما يتعلق بالحركة القومية اليهودية الحديثة فى فلسطين. وكانت حجته أن هناك مكونات ثلاثة للقومية اليهودية الحديثة: رابطة الشعب مع أرض الوطن، واللغة العبرية، وفوق هذا وذاك الرابطة المسيحانية بالخلاص (Keren 1983: 65).

ماذا كان معنى رؤية بن جوريون المسيحانية والرابطة التى تجمعها بالخلاص؟ وفقًا لكل من اليهودية والمسيحية فإن الرب سوف يرسل رسولاً - وسيطًا يمثله - هو المسيح المنتظر إلى الأرض لكى يحول المجتمع الإنسانى ويخلصه من ذنوبه وخطاياه. والخلاص يعنى «التجديد أو الميلاد المتجدد» وهو يضرب بجذوره فى رؤيا الرب من أجل البشر، وفى اليهودية ما يزال المسيح منتظرًا لم يأت، أما فى المسيحية، فإن «يسوع المسيح»، ابن الرب، كان هو المسيح، وسوف يعود.

وأحد أقسى منتقدى بن جوريون، الكاتب إفراهام آفى - هاى، جادل بأن بن جوريون، قد جرد مفهوم المسيح المنتظر من تجسيده فى شخص؛ وهو مفهوم مشترك بين اليهودية والمسيحية. وبدلاً من شخص المسيح، جعل بن جوريون الصهيونية حركة مسيحانية. ومن ثم فإن خلاص الجنس البشرى ينبغى أن يسبقه خلاص الشعب اليهودى، وإعادتهم إلى أرضهم (Keren 1983: 65).

وقد تحدث بن جوريون عن تأسيس مجتمع نموذجى سوف يصير «نورًا بين الأمم» (مقتبسًا الموضوع من النبى إشعيا فى العهد القديم) «ومن خلاله سوف يأتى الخلاص الكونى، حكم التقوى وأخوة البشر واستئصال الشر» (Keren 1983: 65). وعبارة بن جوريون هنا تقرأ كما لو كانت اقتباسًا حقيقيًا من إشعيا، ولكن الحقيقة أن ما يفعله هو استغلال لغة الكتاب المقدس لنفسه ولكى يبرر اختلاق دولة إسرائيل؛ وهى وسيلة شائعة الاستخدام بين الصهاينة الذين يصفون أنفسهم بأنهم من غير المؤمنين.

وغالبًا ما يضفر بن جوريون ملاحظات مثل هذه مع إشارات إلى اليهود الذين ينجزون المهمة النبيلة المتمثلة فى «استيطان أرض الوطن القديم» باعتبارها شرطًا ضروريًا للخلاص الكونى للجميع على أساس حقيقة أنهم كانوا، أو على الأقل يمكنهم أن يكونوا «الشعب المختار». ولا يمكن للمرء سوى أن يعجب بجراءة الرجل

الصريحة. فقد اغتصب بن جوريون المسيحية مثلما اغتصب لنفسه اليهودية. لقد عاد الشعب اليهودى لكى يستوطن الأرض القديمة بعد ألفى سنة، وسوف يكون نوعًا من المسيح القومى، يشع نورًا على جميع الأمم الأخرى فى العالم على حد زعمه.

بيد أن النظرة الساخرة سرعان ما تتلاشى عندما ندرك كيف استطاع بن جوريون بسهولة أن يجعل مسيحانيته السياسية تنزلق لكى تدعم مغامرات إسرائيل السياسية والعسكرية. إذ إن الشعب المنتظر للخلاص كان بوسعه أن يتابع أهدافًا عدوانية وتوسعية قومية فى فلسطين وما وراءها، بصورة مشروعة بالنسبة لهم، لأنهم وحدهم كانوا المنوطين بالاستجابة لما جاء فى نص للعهد القديم.

وهكذا تذكر بن جوريون النبى موسى أثناء أزمة السويس سنة ١٩٥٦م، وهى المغامرة العسكرية الإمبريالية الصاخبة، عندما انضمت إسرائيل إلى انجلترا وفرنسا فى محاولة إسقاط زعيم مصر، جمال عبد الناصر، الذى كان قد أمم قناة السويس. ووفقًا لكلام بن جوريون، ربما كان الآلاف من الجنود الإسرائيليين المشتبكين فى المعركة بصحراء سيناء بين مصر وإسرائيل مدفوعين بالذكريات التى تحكى عن كيفية قيادة موسى لأسلافهم إلى جبل الطور بسيناء حيث تلقى الوصايا العشر من الرب:

«لم تكن هذه مجرد معركة. ذلك أن الهالة التى تحيط بسيناء والتجارب العميقة والصوفية المرتبطة بذلك الاسم على مدى آلاف السنين، كانت تشع على رؤوس جنودنا كما لو كان آباؤهم حاضرين فى حدث جبل سيناء» (Keren 1983: 69).

كانت الاقتباسات من الكتاب المقدس بمثابة التوابل التى تضفى النكهة على جميع خطب بن جوريون. وكانت عبارات الأنبياء تدخل فى اللغة السياسية، كما أن أبطاله المفضلين فى الكتاب المقدس، حتى عندما يخالفون الرب، كانوا يشيرون فى كل اتجاه لمواقفه المعاصرة. وفى إحدى المناسبات امتدح بن جوريون چيروبوم الثانى، أحد ملوك إسرائيل القديمة، الذى «فعل شرًا أمام عين الرب»، ولكنه مع هذا وسع مملكته بالاستيلاء على دمشق (Wistrich and Ohana 1995: 69).

التجديف:
الديانة اليهودية عشيقة الحكومة العلمانية

هناك اثنان من الفلاسفة الدينيين اليهود المشهورين، مارتن بوبر ويشاياهو ليبوڤيتز، يسميان أنفسهما من الصهاينة، كانا مع ذلك مفزوعين من الطريقة التى رأيا فيها بن جوريون يتلاعب بالديانة اليهودية لأهداف سياسية ضيقة.

فقد خطف بن جوريون المفهوم الروحى لصهيون، حسب حجة بوبر، وهو ما لا ينبغى أن يكون له مكان فى سياسات القوة الوطنية:

«صهيون ينطوى على ذكرى، وطلب، ومهمة. صهيون هو حجر أساس القاعدة، والأساس الذى يقوم عليه صرح المسيحانية والخلاص للبشرية.. صهيون فى شكله الحديث كان «شبه صهيونى» ولم يكن «صهيونية حقيقية».. وشبه الصهيونية ليس سوى أحد الأشكال المبتذلة للقومية فى أيامنا، شكل لا يعترف بأية سلطة سوى المصالح الوطنية المتخيلة» (Keren 1983: 77).

ويجادل بوبر هنا أن دولة بن جوريون الوطنية قد حلت محل سلطة الرب.

وفى إحدى النقاط، اتهم بوبر بن جوريون بالكفر والتجديف. وحجته أن اتجاه بن جوريون إلى العلمانية «يحول بين الناس وصوت الرب الحى» (Keren 1983: 78).

ولا يمكن لبن جوريون أن يستبعد بوبر باعتباره صاحب عقلية متحجرة. أولاً، لأن بوبر كان يحظى باحترام كبير بين المؤمنين وغير المؤمنين على السواء، وثانيًا، أن بوبر كان مدركًا تمامًا للمعضلات التى تواجه السياسات اليهودية فى فلسطين الحديثة وبالإصرار على أن دولة يهودية من الطراز الذى كان بن جوريون يدافع عنه لم تكن مقبولة وفق تعاليم الديانة اليهودية الحقة، كان بوبر يعبر عن النوع الإنسانى للأخلاق اليهودية التى يؤمن بها. [كان على بوبر ـ كما يذكر إدوارد سعيد المفكر الفلسطينى الأبرز ـ أن يكون له موقف حول نوع الدولة السياسية الحديثة التى يجب أن تنشأ فى فلسطين. وكان بوبر وعدد آخر من اليهود المؤمنين بالفلسفة الإنسانية، يتبنون فكرة دولة واحدة لشعبين (said200:314) يستطيع فيها كل من المجتمع العربى والمجتمع اليهودى أن يتشاركا السلطة فى ظل دستور واحد].

كان بوبر مفكراً سياسيًا أكثر حداثة، ومن المؤكد أنه كان صاحب رؤى عالمية أوسع كثيراً . وقد صار هذا واضحًا عندما تشاجر الرجلان حول محاكمة أدولف أيخمان النازى وعضو قوات العاصفة، والذى كان متورطًا بعمق فى الهولوكوست وقبض عليه عملاء إسرائيليون فى الأرجنتين سنة ١٩٦٠م، وتمت محاكمته فى إسرائيل سنة ١٩٦١م. فقد كان بوبر يريد محاكمة أيخمان فى محاكمة دولية؛ لأن جرائمه كانت جرائم ضد الجنس البشرى بأسره. وأصر بن جوريون على أن المحكمة يجب أن تعقد فى أسرائيل كوسيلة لدعم شرعية الدولة اليهودية.

كان يشياهو ليبوفيتز، وهو فيلسوف دينى وعالم، أيضا حساسًا تجاه استغلال بن جوريون للمسيحانية السياسية. وقد أغضبه على نحو خاص تبرير بن جوريون المستند إلى الكتاب المقدس، لما أسماه ليبوفيتز «الحماسة الزائدة فى مقابلة الشر بالشر» (keren 1983; 82) عندما قامت وحدة من الجيش الإسرائيلى، يقودها آرييل شارون ، بقتل خمسين من المدنيين العرب الفلسطينيين بقرية قبيه. ولم يخش ليبوفيتز من استخدام لغة قوية. وأدان تبريرات أفعال الدولة على أساس من المبادئ الدينية باعتبارها «متاجرة بعرض الديانة اليهودية (البغاء) لصالح نزعة آكل لحوم البشر الوطنية والشغف بالسلطة»(keren 1983:83) . واتهم بن جوريون بأنه يبقى الديانة فى وضع «عشيقة الحكومة العلمانية»، وعرف دولة إسرائيل تحت حكم بن جوريون بأنها «ولد علمانى مزعج شاع عنه أنه متدين» (keren 1983:84).

وتحدى ليبوفيتز بن جوريون بشكل محدد حول مسألة «قدسية الأرض»، أى استغلال فكرة «القدسية» بطريقة «لم تكن مقدرة لها، مع كل ما ينطوى عليه هذا الاستغلال المشوش من خطر» (keren 1983:83) .

بن جوريون يسمى العرب «مدمرى» الأرض المقدسة

لم يكتف بن جوريون بزعم أن «أرض إسرائيل» مقدسة، ولكنه كان يعتقد أيضًا أن العرب قد دنسوها بشكل ما. فبالنسبة لبن جوريون هى «الأرض التى ستتجمع فيها كل الثقافات ومنها سوف تظهر عبقرية البشر النهائية، لكى تنشر حكمها على العالم

بأسره»، ولكن بشرط واحد- أن يتحكم فى الأرض «أبناؤها»؛ لأنه إذا حدث مرة أخرى أن توقف بنو إسرائيل عن سكنى الأرض، فإن هذا سيكون «فاجعة الحياة» وستتحول إلى كومة من الخرَب. والعرب هم السبب فى هذا؛ لأنهم ـ كما يزعم بن جوريون ـ تصرفوا طوال تاريخ أرض إسرائيل باعتبارهم مخربين(Wistrich and Ohama 1995:75).

وقد وصف إسحاق دويتشر، وهو أحد أعظم الكتاب اليهود الاشتراكيين، بن جوريون بأنه «روح شريرة للشوفينية الإسرائيلية» (Deuts cher 1968:142)

بل إن بن جوريون زعم أحيانًا بشكل يدعو إلى السخرية، أنه حتى وصول العبرانيين الجدد، كانت الأرض «جرداء» على مدى ألفى سنة (Wistrich and Ohana 1995:75).

وكانت هذه الفكرة متجذرة تماما فى الأساطير الصهيونية منذ نشأة أوائل المستوطنات فى أواخر القرن التاسع عشر. وفى أحد خطاباته الأولى من إسرائيل سنة ١٩٠٦م، كتب بن جوريون عن «الأبخرة العفنة التى تفوح من الأرض عندما يتم حرثها للمرة الأولى منذ ألفى سنة» (Wistrich and Ohana 1995:76).

ومن الواضح أن الصهيونيين الأوائل كانوا يعتقدون أنه فيما بين زمن تدمير المعبد اليهودى الثانى فى القدس على أيدى الجيش الرومانى سنة ٧٠ ميلادية والاستيطان الصهيونى الجديد، كانت الأرض قد صارت قشرة صخرية تجمعت تحتها الغازات.

كان هذا هو نمط الخطاب الذى صاحب الأسطورة الصهيونية المتجذرة والقائلة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». وهذه الأساطير هى مواضيع فصول هذا الكتاب.

ففى الفصل الخامس سوف يكتشف القارئ أن هناك زراعة ناجحة حققها الفلاح العربى على أرض فلسطين التى اختارها الصهاينة الأوائل للاستيطان أواخر القرن التاسع عشر. وهنا تكون عدم أمانة بن جوريون وقحة وصفيقة بشكل خاص. وكما لاحظنا فى بداية هذا الفصل، كانت لديه تجربة مباشرة مع تلك المستوطنات الصهيونية الباكرة، التى تم شراؤها من الملاك العرب الغائبين. بل كان عليه أن يسلح نفسه للدفاع عن إحدى المستوطنات ضد الفلاحين العرب الحانقين بسبب طردهم وتدمير حياتهم، بعد أن ظلوا يعملون ويعيشون على هذه الأرض أجيالاً وراء أجيال.

الديماجوجية (الدهماوية)

بن جوريون يعيد تحرير الكتاب المقدس

في يوم ١٢ مايو سنة ١٩٦٠م دعا بن جوريون إلى مؤتمر صحفي في تل أبيب.

ووصل الصحفيون المحليون والأجانب، والموظفون العسكريون والمدنيون، والكُتاب والفنانون، وأعضاء من عائلته، وغيرهم من البارزين يحملون نُسخًا من الكتاب المقدس في حجم الجيب. وذكرت صحيفة «الچيروسالم بوست» الحادث تحت عنوان رئيسي «بن جوريون يقدم روايته لقصة خروج اليهود من مصر». ووصفت كيف تحدى رئيس الوزراء رؤية الكتاب المقدس للخروج، وزعمه أن أقلية صغيرة فقط من اليهود قامت بالرحلة من مصر، وأن الغالبية العظمى من بني إسرائيل لم تذهب إلى مصر أساسًا، والحقيقة أن نقاد الكتاب المقدس الجادين كانوا قد تطرقوا لهذه النقطة لسنوات، ولكن بن جوريون زعم أن مصدر الإلهام في هذه النظرة الثاقبة كانت حرب الاستقلال سنة ١٩٤٨م ونماذج الاستيطان في إسرائيل الحديثة (keren 1983:102). وهو أمر يغري على استنتاج أنه كان يتعلق بشكل يدعو للسخرية بما سوف يظهر ببطء على أنه اتفاق بين الباحثين. ولكن بالنسبة لبن جوريون كانت الأحداث الثورية بعد سنة ١٩٤٨م هي التي توفر النظرات المتأملة الجديدة في التاريخ القديم.

وبطبيعة الحال، ثار جدل كبير، وكان دائما يناسب بن جوريون؛ لأن مثل هذه المجادلات كانت تعزز سلطة الكتاب المقدس باعتباره النقطة المرجعية لتوجيه البلاد.

ولم يتأثر الباحثون المتخصصون في الكتاب المقدس. بل إن أكبر منتقديه فعالية كان باحثًا في الكتاب المقدس من الجناح اليميني هو إسرائيل إلداد. وقد اتهم إلداد بن جوريون بالمبالغة والإثارة الإعلامية المثيرة وإساءة استغلال السلطة السياسية. وقد قارن إلداد الدعاية التي صاحبت الكشف الأثري عن لفافات البحر الميت بالطريقة التي استغل بها بن جوريون وسائل الإعلام للدعاية «لاكتشافه» عن خروج اليهود من مصر. وكانت حجته أن الحفريات الأثرية كشفت عن مكتشفات مادية، على حين أن المؤتمر

الصحفى الذي عقده بن جوريون لم يتضمن سوى فرضيات . ويجب أن يتم تحقيق الفرضيات تحقيقًا دقيقًا بدلاً من طرحها على العامة . وكون أن بن جوريون هو رئيس وزراء البلاد جعل مثل هذا الحرص أكثر حيوية .

وكما أوضح إلداد ، وكثير غيره ، كان هناك اختلاف كبير بين رجل الدولة والباحث . فبالنسبة لرجل الدولة المنشغل بالسياسات الرمزية ، فإن الناقل قد يكون على نفس درجة أهمية الرسالة ، وبالنسبة للباحث فإن أى مجال للتعبير عن الرسالة سوف يؤدى إلى التشويش . إذ إن الباحث يعمل بمفرده ، ويتغذى على النقد الدقيق ، كما أنه محاط بجمهور صغير نسبيًا . أما رجل الدولة فيتحدث إلى جماهير غفيرة ، غير قادرة على أن تستمتع بالقدر الضرورى من الشك ، وهى تأخذ سلطته أمرًا مسلمًا به . ولا شك أن مثل هذه التأثيرات قادرة على تحديد نوعية التقييم التى تخضع لها المعرفة أو المعلومة . (keren 1983:117) .

وقد ميز إلداد بين ثلاث رؤى للموضوع . أولاها ، هى أن هناك مؤمنًا يتقبل القصة ، كما هى ، لأنها فى كتاب الرب . وثانيتها ، هناك العالم الذى يمتلك المقاربة المعاكسة بالضبط ، فلا شىء فى الكتاب المقدس ينبغى أن يكون فوق الشك ، سواء كانت أحداثًا خارقة للطبيعة أو «طبيعية» . والثالثة هناك المفسِّر الذى يدرس الكتاب المقدس لا لذاته وإنما باعتباره وسيلة لاستخراج الدروس المعاصرة أو العالمية . وكل المقاربات الثلاث مشروعة ، بشرط أن يبقى التمايز بينها ، وكانت شكوى إلداد مؤداها أن بن جوريون قد خلط بعضها ببعض (keren 1983:114) .

لقد مسَّ إلداد الوتر الحساس لدى الصهيونية . ففى النهاية لا يمكن للعلم والدين أن يتوافقا . وداخل الصهيونية يصبح التوتر بين الاثنين غير محتمل عندما يكون التاريخ اليهودى خاضعًا للمحاجاة القائمة على قواعد البرهنة والبحث العلمى ، أى عندما يكون هناك التزام صحيح بمستويات ومعايير البحث العلمى [٥] .

***

بحثًا عن «إسرائيل القديمة»

نحن الآن بحاجة إلى أن نفصل بين عوامل ثلاثة : إساءة استخدام الصهيونية للكتاب المقدس وقصصه، وقصص الكتاب المقدس نفسها، والفترة التاريخية التى يزعمون أن الكتاب المقدس يتحدث عنها. وسوف يأخذنا هذا إلى المجادلة وبشكل حرفى عند الحافة الحاسمة للدراسات الأثرية الإسرائيلية . ولكن دعنا أولاً نحاول أن نضع الخلفية مع استخدام «إسرائيل القديمة» كبؤرة البحث بالنسبة لنا. وأمامنا صعوبة مباشرة لأن هناك عددًا من «إسرائيل القديمة» فى الكتاب المقدس. وسوف نركز على ما يسمى «مملكة داود وسليمان المتحدة» من حوالى سنة ١٠٠٠ إلى سنة ٩٢٢ ق.م تقريبًا ؛ لأن هذه هى «إسرائيل القديمة» التى تبنى عليها الصهيونية أشد مزاعمها فجاجة.

ربما يتذكر القراء الذين لهم أى قدر من المعرفة بالكتاب المقدس، أن الأرض فى تلك الفترة كان لها اسم آخر هو «كنعان». وأحد الملامح المدهشة التى تظهر بغتة دائمًا عندما ينشغل البحث التاريخى والأثرى الجاد بقصص الكتاب المقدس، يتمثل فى أن الآثار التى تم اكتشافها هى كنعانية أكثر من كونها «إسرائيلية». والحقيقة أن الآثار «الإسرائيلية» لم تكتشف أبدًا من تلك الفترة، ولكن ربما لا يكون ذلك مهمًا. وعلى أية حال، فإن قصص الكتاب المقدس تحمل صوراً قوية لدرجة أنه حتى أكثر الناس شكًا، يفترض أنه لا بد أن تكون هناك على الأقل بذور من الصدق التاريخى.

ومهما يكن من أمر، ألايعرف أى تلميذ فى المدرسة أن داود (الذى سيصير الملك الإسرائيلى «للمملكة المتحدة») حينما كان محاربًا قد هزم جالوت الفلسطينى بضربة مقلاع؟ أليس هذا فعلاً من أعظم أفعال الشجاعة الفردية - وأكثرها شهرة بالتأكيد - وصلت إلينا من العالم القديم؟ إنها دعوة من الكتاب المقدس بأننا لا يمكن أن نرفض أن نُسلِّم بتفوق داود الإسرائيلى الأخلاقى والروحى على الفلسطينى جالوت. إنها قصة خرافية محفورة بعمق فى مخيلة الحضارة الغربية، وتجسدت على نحو برَّاق فى النهضة

الأوروبية فى تمثال «داود» الذي نحته مايكل أنجلو، واللوحة التى رسمها الرسام رامبرانت المذهلة، داود بقدم رأس جوليات إلى الملك شاءول .

ومع هذا، فإن الصهيونية الحديثة قد وجدت صعوبة متصاعدة فى الدفاع عن داود الكتاب المقدس باعتباره شخصية تاريخية حقيقية، مع استيعاب فى الوقت نفسه دلالات التحليل الجاد والبحث الأثرى الرصين حول الكتاب المقدس .

فى ثمانينيات القرن العشرين، قام سياسى إسرائيلى بارز، هو أبا إيبان، الذى اكتسب سمعة باعتباره باحثًا فذًا فى دراسات الكتاب المقدس، بتقديم فيلم تليفزيونى وثائقى بعنوان: **الميراث، الحضارة واليهود**. كانت السلسلة ترمى إلى أن تظهر تاريخ اليهود من زمن الكتاب المقدس حتى اليوم الحاضر، وصحبها كتاب يحوى صوراً جميلة. وما كان مثيراً فى هذه السلسلة هى التنازلات التى كان على إيبان أن يقدمها مراراً وتكراراً أمام البحث النقدى الجاد للكتاب المقدس والكشوف الأثرية التى قوضت اعتقاداته الصهيونية حول الكتاب المقدس. وقد أزيح النقاب عن هذا بشكل تام عندما جاء إلى القصة الخرافية عن داود وجوليات . وحسبما أوضح هو «**عاشت الخصومة التى يحملها الكتاب المقدس تجاه الفلسطينيين بقيت فى المعنى الحديث للمصطلح: فكلمة فلسطينى تعنى شخصًا جاهلاً، خارجًا على القانون، يتباهى بعدائه للثقافة**». (Eban1984:45).

كما اعترف فى الجملة التالية مباشرة «**إن الحقيقة أنه خارج ميادين اللاهوت والأخلاق، فإن إنجازات الفلسطينيين الثقافية كانت متفوقة بشكل لافت للنظر على إنجازات الإسرائيليين**». وثمة صورة ملونة مدهشة حقًا تعود بنا إلى الموضوع، وهى صورة لإناء زهور مزين بشكل رائع تحتها تعريف بالصورة نصه: «لم يكن الفلسطينيون برابرة وهمجًا وإنما كانوا حرفيين مهرة» (Eban1984:40) .

كيف عرف، على الأقل فى اللاهوت والأخلاق، أن الإسرائيليين كانوا أكثر تفوقًا من الفلسطينيين؟ والإجابة هى أنه لا يعرف. وهذا ما يسميه نقاد الكتاب المقدس مثالاً على التحرير، أي الإعداد للنشر. فقد كتبت قصص الكتاب المقدس بعد وقت طويل، بحيث إن أية مزاعم عن الجدارة ا لمتعلقة بنظم الإيمان لدى الفلسطينيين والإسرائيليين فى ذلك الوقت إنما هى مزاعم مستحيل أن تصمد أمام النقد. ولكى نستخدم مفهومًا

يفضله نقاد الكتاب المقدس كثيرًا، فإن القصص يمكن أن تكون مزيفة (أبوكريفا) بعبارة أخرى، فالكتاب المقدس نفسه يثير كثيرًا من الصعوبات حول الحياة الدينية والتاريخية لكل من داود وسليمان.

الفوضى والخلط فى الكتاب المقدس حول داود وسليمان

من ناحية هناك التأثير الطاغى لداود: إذ إن التراث «المسيحانى» يبدأ به. فقد كان الأنبياء العبرانيون اللاحقون متأثرين جدًا بما بدا أنه مباركة خاصة من الرب على داود بحيث إنهم تخيلوا مملكة ستقوم فى المستقبل، مملكة مباركة، أو «أو ماشيحانية» وهى الكلمة العبرية المقابلة لكلمة مسيح (Eban1984:47). فبعد حوالى ١٠٠٠ سنة، كان المزمور الثالث والعشرون يتحدث عن التراث التوحيدى والمسيحانى، ويحفظها لكل من اليهودية والمسيحية:

«الرب راعىَّ فلستُ أحتاجُ إلى شىء. فى مراع خضراء يُربضنى. وإلى مياه هادئة يقودنى. يُنعش نفسى ويُرشدنى إلى طرق البر إكرامًا لاسمه. حتى إذا اجتزتُ وادى ظلال الموت، لا أخافُ سوءًا لأنك ترافقنى. عصاك وعكازك هما يشدّدان عزيمتى. تَبسُط أمامى مأدبة على مرأى من أعدائى. مسحت بالزيت رأسى، وأفضت كأسى. إنما خير ورحمة يتبعاننى طوال حياتى، ويكون بيت الرب مسكنًا لى مدى الأيام»(*).

ومن ناحية أخرى، تورط داود فى واحدة من أكبر الفضائح التى تحدث عنها الكتاب المقدس، بحيث عبر عن احتقاره لأى نظام لاهوتى أو أخلاقى فى تعامله مع زعماء القبائل المحليين، العدو منهم والصديق على السواء. فقد ضاجع بتشبع وحملت منه، بينما كان زوجها أوريا الحيثى بعيدًا يحارب العمونيين لحساب داود. وتم إرسال أوريا إلى «وجه الحرب الشديدة» حيث تركه رفاقه، بناء على أوامر داود، لكى يموت على أيدى الأعداء (صموئيل الثانى، ١١ : ١٥) (Eban 1984:49)(**).

(*) المزمور الثالث والعشرون من مزامير داود، . . . وقد أوردت النص كاملاً؛ لأن المؤلف اقتبسه منقوصًا عن كتاب أبا إيبان (Eban 1984:48) ـ المترجم.

(**) خطيئة داود وخداعه: وفى ربيع العام التالى، فى الموسم الذى اعتاد فيه الملوك الخروج للحرب، أرسل داود قائد جيشه يوآب على رأس قواته حيث هاجموا بنى عَمُون وقهروهم، وحاصروا مدينة ربّة، أمّا داود فمكث فى أورشليم. وفى إحدى الأمسيات نهض داود عن سريره وأخذ يتمشى على سطح قصره، فشاهد امرأة ذات جمال أخّاذ تستحم. فأرسل داود من يتحرى عنها. فأبلغه أحدهم: =

ووفقًا للباحثة المعاصرة المتخصصة فى الكتاب المقدس، كارين آرمسترونج، التى تحظى باحترام عظيم، فإن سلوك داود كان انتهاكًا حتى للمعايير المعاصرة للعدالة «الوثنية»، دعك من معايير العدالة اليهودية اللاحقة (Armstrong 1996,40) [٦].

ومثل أبا إيبان، نجد الكاتب پول جونسون، فى كتابه الذى يحظى بشعبية واسعة History of the jews، متحمسًا بشكل يائس للوقوف إلى جانب قصص الكتاب المقدس، مع إن قراءته للكتاب المقدس قد ألقت مسحة من الشك على أصول داود الإسرائيلية: «كان فى الأصل راعيًا ينحدر من نسل روث المؤابى المتواضع الأخّاذ. . .» (Johnson 1993:55).

بل إن المشكلة أكبر مع سليمان. فإنه مثل داود مشكوك فى نسبه؛ لأنه كان هو الابن الثانى لداود من بثشبع. وطور سليمان أكبر إمبراطورية مدهشة، متخصصًا فى زواج المصلحة مع الوثنيات. وحسبما يخبرنا إيبان:

= «هذه بثشبع بنت أليعام زوجة أوريا الحثّى، فبعث داود يستدعيها. فأقبلت إليه وضاجعها إذ كانت قد تطهرت من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها. وحملت المرأة فأرسلت تبلغ داود بذلك. فوجه داود إلى يُوآب قائلا: «أرسل إلىَّ أوريّا الحثّى». فبعث به يُوآب إلى داود. وحين مثَل لدى داود استفسر منه عن سلامة يُوآب والجيش وعن أنباء الحرب. ثم قال داود لأُوريّا: «امض إلى بيتك واغسل رجليك». فخرج أوريّا من بيت الملك، وأرسل له هديّة إلى بيته. غير أن أوريّا لم يتوجه إلى بيته، بل نام مع رجال الملك عند باب القصر. فأخبروا داود قائلين: «لم يتوجه أوريّا إلى بيته». فسأله داود: «ألم ترجع من سفر؟ فلماذا لم تمض إلى بيتك؟» فأجاب: «التابوت وجيش إسرائيل ويهوذا معسكرون فى الخيام، وكذلك سيّدى يوآب، وبقية قوّاد الملك مخيّمون فى العراء، فهل آتى أنا إلى بيتى لآكل وأشرب وأضاجع زوجتى؟ أقسم بحياتك، لن أفعل هذا الأمر». فقال داود لأوريّا: «امكث هنا اليوم وغدًا أطلقُكَ». فمكث أوريّا فى أورشليم ذلك اليوم حتى صباح اليوم التالى. ولبى دعوة الملك، فأكل فى حضرته وشرب حتى أسكره داود. ثم خرج عند المساء ليرقد فى مضجعه إلى جوار رجال سيده، ولم يتوجه إلى بيته أيضًا.

مقتل أوريّا: وفى الصباح كتب داود رسالة إلى يوآب، بعث بها مع أوريّا، جاء فيها: «اجعلوا أوريّا فى الخطوط الأولى حيث ينشب القتال الشرس، ثم تراجعوا من ورائه ليلقى حتفه». فعيّن يوآب أوريّا فى أثناء محاصرة المدينة، فى أشد جبهات القتال ضراوة، حيث احتشد أبطال الأعداء. فاندفع رجال المدينة لمحاربة يوآب فمات بعض رجال داود ومنهم أوريّا الحثّى. فبعث يوآب رسولاً ليُطلع داود على أنباء الحرب، وأوصاه قائلاً: «إن رأيت أن الملك بعد إبلاغه أنباء الحرب قد ثار غضبه وقال لك: لماذا اقتربتم من سور المدينة للقتال؟ أما علمتم أنهم يرمون بالسهام من فوق السور؟ من صرع أبيمالك بن يربوشث؟ ألم ترمه امرأة بحجر رحى من على السور فمات فى تاباص؟ لماذا اقتربتم من السور؟ فقل له: قد مات عبدك أوريّا الحثّى أيضا».

«**زيارة ملكة سبأ :** وعندما بلغت أخبار سليمان وإعلائه لاسم الرب مسامع ملكة سبأ، قدمت لتُلقى عليه أسئلة عسيرة، فوصلت أورشليم فى موكب عظيم جداً، وجمال مُحَمّلة بأطياب وذهب وفير وحجارة كريمة، وأسرّت إليه بكل ما فى نفسها». (سفر الملوك الأول ١٠ : ١، ٢).

. . . وعقد زيجات مع السلالات الحاكمة - مع العمونيين والإيدوميين والحيثيين والموآبيين والفينيقيين، الذين تزوج من أميراتهم، كذلك ابنة الفرعون، وكلها زيجات تم عقدها بقصد الإضافة إلى مجد البلاط ودعم استقرار المملكة. (Eban 1984:50-1).

كما كان سليمان - بطبيعة الحال - هو الذى بنى المعبد الأول فى القدس. لقد ربط إيبان نفسه بأعقد الحبال وهو يحاول التوفيق بين مزاعم الكتاب المقدس والبرنامج الوثنى لبناء المعبد الذى كان من الأمور النمطية فى تلك الفترة.

ويبدأ إيبان بملاحظة أن الملوك الوثنيين المحليين: مثل حيرام الفينيقى، ملك صور، كانوا يقدمون الحرفيين المهرة وقاطعى الحجارة الحاذقين ومواد البناء «وأخشاب الأرز» الشهيرة من لبنان.

ويتساءل إيبان عن المدى الذى يمكن أن نعتبر فيه هذه الاستعارات دليلاً على وجود رابطة أعمق بين ديانتى الكنعانيين والفينيقيين وديانة إسرائيل.

وإجابته مهمة جداً لأنها تعكس الصراع بين العلم والدين داخل مجال علم الآثار الإسرائيلى، على الرغم من أنه لا يقول هذا، وهو صراع كان يتطور فى الوقت الذى كان يعمل فى كتابه ووصل إلى درجة الأزمة منذ ذلك الحين:

«ينبغى أن تكون الاختلافات فى المعتقد الدينى واضحة بما فيه الكفاية. . . كما كانت هناك أيضاً إنحرافات كبيرة فى الممارسة الدينية. فقد كانت إسرائيل. . . ممنوعة من عبادة ربها على شكل صورة، وقد كانت الأضحية البشرية، أو الدعارة فى العبادة، وطقوس الخصوبة الماجنة، كلها مستبعدة كذلك. بيد أننا يجب ألا نعمى أنفسنا عن الطرق التى كانت بها العبادة الإسرائيلية القديمة تتشابه كثيرا مع الممارسة الكنعانية بدرجة أكبر من تشابهها مع الديانة اليهودية منذ الأزمنة الرومانية».

«وأوضح استعارة ـ وأكثر انحراف صادم عن الممارسة اليهودية اللاحقة ـ يتمثل فى طقس التضحية، الذي تم تطويره بدرجة عالية منذ العصور السومرية على الأقل. إذ كانت أضحية المعبد هى مركز ديانة الدولة فى عهد سليمان، وبقيت كذلك ما دام بقى المعبد فى القدس». (Eban 1984:50)

وبالاعتراف بالانفصال بين أشكال العبادة القديمة والديانة التى تسمى اليهودية يقوض أبا إيبان الإصرار الصهيونى على وجود خط مستمر من زمن القصص الباكرة فى الكتاب المقدس حتى اليوم الحالى.

بيد أننا يجب أن نتحول الآن نحو مشكلة أكبر كثيراً، تضرب فى صميم قلب التفسير الصهيونى للكتاب المقدس.

إسرائيل القديمة: أين كانت الكلمة؟

تحتفى الديانة اليهودية بسلطة الكلمات، وأشهرها «الوصايا العشر» التى يفترض أن موسى تلقاها من الرب فوق جبل سيناء، منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة مضت، عندما قاد العبيد العبرانيين السابقين هربًا من ربقة الأسر فى مصر، صوب «الأرض الموعودة» التى سوف تصير إسرائيل (القديمة). والعهد القديم ملىء بالكلمات المقدسة التى توفر التوجيه الروحى للشعب اليهودى باعتباره شعبًا متدينًا. وهذه، طبعًا، كلمات «مكتوبة»، ذات معنى مركب لدرجة مهولة، تقدم نظامًا شاملاً من اللاهوت والأخلاق، يستمد فى إلهام ملايين الناس في العالم الحديث. إلا أننا ما يزال علينا أن نكشف عن أية آثار للكلمات المكتوبة من فترة المملكة المتحدة التى حكمها داود وسليمان، أى إسرائيل القديمة، أقل قليلا من ثلاثة آلاف سنة مضت. وهذه هى المشكلة. إذ إن الكلمة المكتوبة علامة على تقدم المجتمع فى مجال حضارته. ويتم تصوير إسرائيل القديمة على شكل متقدم من أشكال الحضارة، ولكن أين كلماتها؟

وفقًا لفنكلشتاين وسيلبرمان، اللذين ألفا الكتاب المبهر:

The Bible Unearthed: Archaeology's New vision of Ancient Israel and the Origin of its Sacred Texsts.

لم يتم الكشف عن أثر واحد فى القرن العاشر قبل الميلاد يدل على النشاط الأدبى الإسرائيلى حتى الآن (Finkelistein and Silberman 2002:235-8).

ولأن فنكلشتاين أحد علماء الآثار البارزين فى إسرائيل الحديثة، فإن مغزى هذا بعيد الأثر. إذ إن هذا لا يعكس شيئًا أقل من الانفجار الداخلى لعلم الآثار فى إسرائيل.

إن معرفة الكتابة في العالم القديم، وحفظ السجلات، والمراسلات الإدارية، والمؤرخات الملكية، وجمع الكتب الدينية «لا سيما ما يجلب الفخر، ويتميز بالحذق، مثل الكتاب المقدس، تكون متصلة بمرحلة بعينها من التطور الاجتماعى، وتحديداً تشكيل الدولة بديانة وعبادة دينية مركزية وملكية» (Finkelistein and Silberman 2002:22). والمغزى هو أن الفشل فى اكتشاف نشاط أدبى فى تلك الفترة يشى بأنه لم يكن هناك تكوين للدولة، أو عبادة مركزية وملكية. إلا أن معبد سليمان كان هو المجد الذى توج برنامج البناء الذى نافس برنامج الفراعنة.

فبعد عشرات السنين من الحفريات، واستخدام تفاصيل من الكتاب المقدس للبحث عن بقايا هذه المبانى، ثمة اتفاق علمى يظهر ببطء وعلى استحياء شديد بين علماء الآثار فى إسرائيل الحديثة، على أن هذه المبانى لم توجد قط، أو أن هناك بقايا المبانى، ولكن لا يمكن أن يرجع تاريخها إلى زمن سليمان:

«لقد أجريت حفريات فى القدس مرات ومرات . . . وعمل ميدانى . . . أخفق فى أن يوفر دليلاً مهمّا على الإشغال [ببناء] الذى تم فى القرن العاشر (فترة داود وسليمان). ولم يكن هناك أية علامة على بناء أثرى مفقود، بل هناك شقفات من الفخار . . . وأكثر التقديرات تفاؤلاً لهذا البرهان السلبى، هو أن القدس فى القرن العاشر كانت محدودة فى امتدادها، وربما لم تكن أكثر من قرية ريفية نمطية قائمة على أحد التلال» (Finkelistein and Silberman 2002:33). ومن المؤكد أن هناك معبداً تم بناؤه في القدس، بعد ذلك بعدة قرون، وربما في مدينة يهوذا الصغيرة التى كانت مدينة / دولة. والواقع أن هذه حجة فرانكلشتين عن الفترة التى بدأ الكتاب المقدس نفسه فيها يتخذ الشكل المكتوب. ولكن حقيقة الأمر هى أن قصص داود وسليمان من وحى

خيال بعض من أقدم خيالات العالم القديم إبداعًا (Finkelistein and Silberman 2002:123-45).

«كيف تدَّعون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب، بينما حوّلها قلم الكتبة المخادع إلى أكذوبة؟» (إرميا، الإصحاح الثامن : ٨).

فى ثمانينيات القرن العشرين، كان الصحفى چون ماكارثى واحدًا من عدد من الأوروپيين والأمريكيين الذين احتجزهم المتشددون الإسلاميون رهائن فى بيروت. وقد أدى تحمله إلى ذيوع شهرته هو ورفاقه فى الأسر. وقد قرأ مكارثى الكتاب المقدس مرتين أثناء فترة احتجازه، على الأقل لأنه كان الكتاب الوحيد الذى كان يسمح به الحراس لرهائنهم فى سجن الإسلاميين المتشددين.

وأثارت «إسرائيل القديمة» اهتمامه، وعندما أطلق سراحه ذهب للبحث عنها، لكى يتعثر فى فرق من الأثريين الإسرائيليين، مثل الفريق الذى كان يقوده فرانكلشتين، الذى كان هو الآخر يبحث عن إسرائيل القديمة عبثًا. وصار مكارثى مأخوذًا لدرجة أنه قرر إنتاج فيلم وثائقى تليفزيونى عنها: الأمر ليس كذلك بالضرورة. ولا بد أن منتجى فيلمه قد أصابهم الهلع من جراء مضمونه الراديكالى؛ فترة البث التى منحوها له والتى استمر ست ساعات ونصف الساعة انحصر فى فترة ضيقة بعد منتصف الليل، ولا يكاد يكون أحد قد شاهده [٧].

وثمة نكهة تدل على الأثر المدمر للفيلم الوثائقى تمثلت فى الترجمة عن النبى إرميا يفتتح بها السرد فى كل حلقة مدتها نصف الساعة:

«كيف تدَّعون أنكم حكماء ولديكم شريعة الرب، بينما حوّلها قلم الكتبة المخادع إلى أكذوبة؟» (إرميا، الإصحاح الثامن : ٨) (Sturgis 2001:186).

وإرميا أقرب شبهًا بالفلسطينيين من حيث إنه كان صاحب تأثير ضعيف على الألفى سنة الأخيرتين، وتم استبعاده على اعتبار أنه نبى الحساب فى الآخرة ـ وهو مثال آخر على الطريقة التى يهيمن بها الكتاب المقدس وانحيازاته على الخيال الحديث.

والواقع، من الممكن احتمال أن إرميا كان شاهدًا أمينًا للغاية في مدينة يهوذا

الصغيرة، فى الوقت الذى كانت بعض أسفار الكتاب المقدس تتخذ شكلاً مكتوبًا.

وقد وضع مكارثى مسلسله الوثائقى على أساس أعمال الأثريين الإسرائيليين مثل فرانكلشتين وزميله البروفيسور رئيف هرتزوج. وفى أكتوبر ١٩٩٩م لخص هر تزوج اكتشافاتهم فى مقالة مثيرة فى مجلة صحيفة هاآرتس الإسرائيلية (Deconstructing the Walls of Jericho', Ha'aretz Magazine 29 October 1999: 6-8).

وفى المقالة وصف هرتزوج كيف أن ما يسميه «مرحلة الأزمة» فى علم الآثار بإسرائيل نضجت فى السنوات الأخيرة. وقد وصفها باعتبارها ثورة علمية ولا أقل من ذلك. وهى عملية معروفة جيدًا لكل العلماء والباحثين الذين على ألفة بدينامية الطفرة العلمية:

«نصل إلى مرحلة الأزمة عندما تكون النظريات داخل إطار الموضوع العام عاجزة عن حل عدد كبير متزايد من حالات الشذوذ عن القياس، ويصير الشرح والتفسير عملية ثقيلة مضجرة غير متناسقة، ولا تتكامل القطع فيما بينها...

هذا ما تعلمه الأثريون من حفرياتهم فى أرض إسرائيل: لم يذهب الإسرائيليون إلى مصر أبدًا، ولم يتجولوا فى الصحراء، ولم يغزوا الأرض بحملة عسكرية ولم يسلموها إلى قبائل إسرائيل الإثنى عشرة. وربما يكون الأصعب قبوله هو حقيقة أن المملكة المتحدة التى حكمها داود وسليمان والتى يصفها الكتاب المقدس على أنها قوة إقليمية، لم تكن فى أحسن الأحوال سوى مملكة قبلية صغيرة» (Ha'aretz,29 October,1999).

وبعبارة أخرى، لم يكن هناك إبراهيم، ولا موسى، ولا يوشع؛ وكان داود وسليمان زعيمين قبليين على أحسن الفروض. ويستمر قائلاً: **«وستكون صدمة غير سارة للكثيرين أن رب إسرائيل، يهوه، كانت له قرينة أنثى...» اسمها عشيراه**، وكان لها برنامجها الخاص فى مسلسل مكارثى الوثائقى. وحسبما يشرح ماثيو ستورجيس، الذى كتب الكتاب المصاحب لمسلسل مكارثى:

«يتم تعريف عشيراه على أنها ربة كنعانية أخرى. كانت ربة للخصوبة ورفيقة معترفًا

بها للإله الرئيسى إل (وفيما بعد بعل» وقد وجـدت تماثيل كثيرة صغيرة تمثلها فى المواقع الكنعانية الباكرة.والتماثيل الصغيرة، بصدورها الكبيرة وأعضائها الجنسية المحددة جيدا، تتصل اتصالاوثيـقًا بالتماثيل التى عُثـر عليها فى المواقع الإسرائيلية اللاحـقة زمنيا. وهى علاقة قادت الباحثين إلى افتراض أن تماثيل الخصوبة الإسرائيلية ربما تمثل عشيراه أيضًا»

.(Sturgis 2001:186)

لاحظ كيـف أن علم الآثار الآن مضطر إلى التـخلص من الفـروق المهـمـة بين المواقع الكنعانيـة والمواقع الإسرائيلية . ففى نقطة مـا بعد الرواية الخيـالية فى الكتاب المقدس المعروفة بمملكة داود وسليمان المتحدة، ربما بعد قرنين من الزمان، وبصورة تقريبية تمامًا من سنة ٨٠٠ إلى سنة ٧٠٠ ق . م، ظهرت هـوية تاريخيـة تسـمى إسرائيل، علي الرغم من أنهـا كـانت، فى تجسـدهـا الأول وثنيـة مـتمـايزة، ولهـا إله وثنى هو «يهـوه» وربة هى «عشيراه» والأكثر من ذلك أن القدس لم تكن مركزها الروحى .

وفى أواخر ستينيات القرن العشرين، اكتشف الأثرى بيل دڤر «عشيراه»، على شكل نقش مكتوب بالعـبـرية القـديمة، عندمـا كـان يقـوم بحفـر فى خـربة الكوم بالقـرب من الخليل. على سور مقبرة من العصر الحديدى المتأخر، يرجع تاريخهـا إلى الفتـرة من منتصف القرن الثامن قبل الميلاد حتى أواخره، اكتشف رسمًا واضحًا لما يبدو أنه مرتبط بنقش نصه : «مبارك . . . من يهوه . . . وزوجته عشيراه» ويتذكر دڤر :

«عندما اكتشفته للمرة الأولى، لم أكن حقًا أريد نشره، باعتبارى باحثًا شابًا. فقد كان مثار جدل وخلاف شديد. ولكن فى سبعينيات القرن العشرين تم اكتشاف موقع ثان على أيدى الأثريين الإسرائيليين ـ أيضًا في القرن الثامن ق . م فى سيناء . وبه نفس التعبير «ليبارك يهوه وزوجته عشيراه فلانًا» (Sturgis 2001,173).

تم هذا الكشف فى كونتيلا عجرود، فى شمال شرق سيناء . والنقش المكتوب بالحبر على جرة تخزين قديمة، كـان مصحوبًا برسم لشكلين مثيرين للفضول، أحدهما ذكر بشكل واضح، والآخر أنثى، وكلاهمـا متوج . وحسـبمـا يلاحظ دڤر «يبدو أن يهوه كـانت له قرينة بالفعل، مثل سائر الآلهة الأخرى فى الشرق الأدنى القـديم ـ على الأقل فى أذهان كثير من الإسرائيليين».

مثل سائر الآلهة الأخرى فى الشرق الأدنى القديم...

ووفقًا للحجة التى ساقها هرتزوج، فإن اكتشاف النقوش بالعبرية القديمة التى تذكر أزواجًا من الآلهة، «يهوه وعشيراه»، بعد فترة المملكة المتحدة بوقت طويل، تطرح سؤالاً مفتوحًا على اتساعه عن الوقت الذى تم فيه بالضبط اعتناق التوحيد. ويبدو محتملاً أن مملكة داود وسليمان القبلية الصغييرة، إذا ما كان لها أى وجود أصلاً، كانت تعبد آلهة وثنية متعددة.

والآن، فإن الأثريين من أمثال هرتزوج وفينكلشتين، ليست لهم عقلية سياسية على نحو خاص، ولكنهم واعون تمامًا بمغزى بحثهم بالنسبة لمزاعم إسرائيل الحديثة الأيديولوچية عن الماضى الذى يتحدث عنه الكتاب المقدس.

ويقرر هرتزوج أن العامة الإسرائيلية يحاولون تجاهل الاكتشافات على الرغم من الحقيقة التى عرفوها على مدى عشرات السنين. ويستمر قائلاً:

«إن أية محاولة للتساؤل عن مدى إمكانية الاعتماد على الأوصاف الواردة فى الكتاب المقدس سوف تؤخذ على أنها محاولة لتقويض **«حقنا التاريخى فى الأرض»** وعلى أنها تحطيم لأسطورة الأمة التى تجدد مملكة إسرائيل القديمة. هذه العناصر الرمزية تشكل مكونًا حاسمًا فى بنية الهوية الإسرائيلية من الواضح أنها كانت تهديد غير محتمل ومن الأنسب أن نغمض عيوننا» (Ha'aretz, 29 October 1999).

ومدى تقدم الأثريين الإسرائليين من أمثال هرتزوج وفينكلشتين الآن فى شرح أصول الكتاب المقدس أمر يخرج عن مجال هذا الكتاب [(٨)]، بيد أن هناك سخرية مثيرة تستحق المزيد من التعليق. فإنهم يجادلون بأن إسرائيل القديمة «الحقيقية» كانت دولة وثنية، وكانت السامرة «عاصمتها» أو مركزها الروحى. وسوف يعتاد القراء على الزعم الصهيونى الحديث عن يهودا والسامرة (الضفة الغربية) فى أرض فلسطين. وما هو معروف بدرجة أقل، الحرب المتفجرة المريرة بين يهودا والسامرة، أو بين يهودا وإسرائيل، إذا ما استخدمنا الأسماء الواردة فى الكتاب المقدس.

ويجادل هرتزوج وفينكلشتاين: هذا العداء [بين يهودا والسامرة] هو الذى أرسى جزئيًا الأساس الذي قامت عليه قصص الكتاب المقدس والميلاد الحقيقى للديانة

اليهودية. إنها الحرب التى انتصرت فيها يهودا فى نهاية المطاف. أما السامرة (إسرائيل القديمة الحقيقية) فقد باتت منبوذة. وبحلول القرن الميلادى الأول، كانت السامرة بمعبدها الخاص بعيداً جداً عن القدس ووطنًا للسامرى الطيب المشهور فى الإنجيل، لا تعتبر يهودية حقًا فى رأى الأحبار اليهود فى معبد **القدس بيهودا**. وبعبارة أخرى، منذ ألفى سنة، فى القرن الذى شهد التمرد اليهودى الكبير ضد روما، لم تكن إسرائيل القديمة «الحقيقية» تُعتبر يهودية.

فى الفصل التالى سوف نكتشف المغزى المدمر لهذه المزاعم الصهيونية الحديثة فى فلسطين، عندما ننظر إلى الشتات اليهودى فى الإمبراطورية الرومانية. ولكن لا ينبغى لنا أن نترك هذا الفصل قبل أن نسدى احترامنا للكُتّاب العظام الذين كتبوا الكتاب المقدس فى العصور القديمة. ومن المؤكد تمامًا أن الكتاب المقدس ليس تكليفًا لمزاعم الشوفينية اليهودية الحديثة على أرض فلسطين، ولكن، يمكننا أن نتفق مع فرانكلشتين وسيلبرمان، بالتأكيد على أنه:

«كتاب مقدس فيه عبقرية أدبية وروحية لا تبارى... وهو ملحمة بطولية شعبية نُسجت سويًا من مجموعة ثرية بشكل مدهش من الكتابات التاريخية، والذكريات، والخرافات، والحكايات الشعبية، والقصص والدعاية الملكية [(٩)]، والنبوءة والشعر القديم... والقطعة الأدبية الفذة سوف تمر بالمزيد من التحوير والتوسع (لدرجة أنها ستصير) مرساة روحية...للجماعات فى جميع أنحاء العالم..»

.(Finkelstein and Silberman2002:1-2)

***

الفصل الثانى

نفى اليهود
هو خاصيتهم المميزة

هذه هى الجملة الافتتاحية فى كتاب« The Origins of Zionism » للمؤلف ديڤيد ڤيتال (3 : 1975)، وهى مقدمة بحثية ذات مستوى راق عن الصهيونية « ترسى معايير جديدة لكى يحذو حذوها مؤرخو الصهيونية» على حد تعبير « الملحق الأدبى للتايمز - The Times Literary Supplement». والآن يتصف ڤيتال بأنه مؤرخ شديد الجدية ومقروء جداً. وكونه مستعداً بوصفه مؤرخًا مشهورا لأن يُرَوِّج «النفى» بحيث يجعله أهم «حقيقة تاريخية» عن اليهود، إنما يعكس التغير الجوهرى الناجح الذى لحق بهذه الأسطورة الدينية القديمة. إذ إنها تحولت إلى سلاح إيديولوچى علمانى، لقد تحولت إلى صيحة القتال بالنسبة للمزاعم التاريخية التى تدعيها القومية اليهودية في القرن العشرين على فلسطين. وعلى أية حال فإن أسطورة «النفى» تمثل إحراجًا فكريًا شاملاً للجيل الجديد من المؤرخين الراديكاليين في إسرائيل الذين يناضلون لفك قبضة الصهيونية الشديدة عن التاريخ اليهودى.

ووفقًا لواحدة من النقاد الإسرائيليين المحدثين ذوى الآراء النافذة، وهى يائيل زيروباڤيل، فإن «النفى» هو النصف الثانى مما تسميه «التقسيم الصهيونى لفترات التاريخ اليهودى» (1995:15-17) [١]. وهذا نموذج فج لمرحلتين «العصر القديم» و«النفى». وفى البداية (العصر القديم) لدينا إعادة سرد قصة الكتاب المقدس باعتبارها قصة التحرر الوطنى اليهودى ولكنها تنتهى بسلسلة من حالات التمرد الوطنى الفاشلة. ثم نجد، مع «النفى»، اليهود يساقون خارج أرضهم، ويتوزعون بين شعوب معادية، فيما يوصف بأنه الشتات اليهودى(الدياسپورا)، لكى يعيدوا اكتشاف هويتهم الوطنية الحقيقية بعد ألفى سنة.

هناك اعتراضات كثيرة على هذا التناول :

أولاً ـ وُضع تاريخ النفى بداية من سنة ٧٠ ق . م ، و هى السنة التى أخمد فيها الرومان العصيان اليهودى فى يهودا التى كانت هى الولاية اليهودية فى الإمبراطورية الرومانية ، ودمروا المعبد فى القدس . وقد تم ببساطة تجاهل وجود جماعات يهودية مزدهرة فى ذلك الوقت ، أى زمن الدياسپور اليهودية ا لقديمة فى عالم البحر المتوسط وما وراءه ، وشُطب من التاريخ .

ثانيًا ـ من المهم كثيراً ما كانت أغلبية أولئك اليهود الذين عاشوا في الشتات اليهودى القديم تظنه فيما يتعلق بعلاقاتهم بمملكة يهودا ومعبد القدس ، هل كانوا يؤمنون بأنهم منفيون بالفعل ؟

ثالثًا ـ هل كان هناك حقًا «نفى» يهودى بعد سنة ٧٠ ق . م ؟

وأخيراً ـ هناك الافتراض بأن فكرة «القومية» الحديثة جداً ، وهى فى هذه الحال «القومية اليهودية» ، يمكن فرضها علي أحداث جرت منذ ألفى سنة مضت .

هذا الفصل سوف يحاول تطوير هذه الاعتراضات ، بيد أننا نحتاج أولاً أن نفهم شيئًا عن الخلفية التاريخية للتاريخ اليهودى منذ ألفى سنة مضت . والتاريخ اليهودى فى تلك الفترة له مؤرخه الخاص جداً وهو يوسيفوس ، ولا بد لأية مناقشة عن «النفى» أن تأخذ فى اعتبارها كتاباته التاريخية . وكل المؤرخين المحدثين يعتمدون عليه ، حتى مع أنه لا يمكن الاعتماد عليه بسبب سوء سمعته ، ولكن ما كتبه يوسيفوس يمكن أن يمدنا برؤية فريدة وكاشفة عن تلك الفترة ، شريطة الالتزام بالحذر الشديد فى تفسير ما كتبه[٢] .

وقد وُصف يوسيفوس بقدر أكبر من الدقة بأنه مؤرخ يهودى رومانى . فقد كان يتحدث اليونانية بطلاقة ، التى كانت لغة الطبقات المتعلمة من الرومان . وكان يحترم الثقافة والسياسات الأكثر إتساعًا فى الإمبراطورية الرومانية . ومن المؤكد أنه كان فخوراً بتراثه اليهودى ، ولكنه كان يراه متعايشًا مع الإمبراطورية الرومانية . كان يوسيفوس واحداً من أبناء الأرستقراطية اليهودية من ملاك الأراضى بالقدس التى كان زعماء الإمبراطورية الرومانية قد هذبوها بدرجة كبيرة . فقد كانت روما تحكم يهودا من خلال

هذه الزعامة اليهودية فى القدس. وعلى الرغم من أن الديانة اليهودية كانت متمركزة فى يهودا، وفى موضع المعبد بالقدس بصفة خاصة، فقد كانت معروفة فى شتى أرجاء الإمبراطورية الرومانية، لأن أعداداً كبيرة جداً من اليهود كانوا يعيشون في أجزاء مختلفة منها. والحقيقة أن تراثاً هائلاً من الحج كان قد تطور، حيث كان اليهود من كل أنحاء عالم البحر المتوسط وما وراءه يسافرون إلى المعبد فى القدس لتقديم الفروض. وكانت الأعياد اليهودية الكبيرة أعياداً شعبية بشكل خاص. وكانت أعداد كبيرة من بقاع بعيدة تتجمع هناك (Goodman 1987:52).

كانت الديانة اليهودية قد تشكلت في يهودا (انظر الفصل الأول) وفى بابل قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة مضت. أما كيفية حدوث ذلك، فمن المؤكد أنه يخرج عن مجال هذا الكتاب[٣]. ولكن يوسيفوس لديه موعظة شعرية جميلة عما حدث بعد أن هزم الإسكندر الأكبر الإمبراطورية الفارسية وتعرف للمرة الأولى على القدس، قبل ٢٣٠٠ سنة:

«لأنه بينما بقى الإسكندر بعيداً رأى الجموع فى المسوح البيضاء، والكهنة ورؤوسهم مغطاة بالكتان، وقد ارتدى الحبر الأكبر ثوباً من الياقوت الأزرق والذهب، وقد وضع على رأسه التاج وعليه شريط ذهبى نقش عليه اسم الرب، اقترب وحده وسجد أمام الاسم، وقام أولاً بتحية الحبر الأعظم. ثم قام جميع اليهود سوياً بتحية الإسكندر بصوت واحد وأحاطوا به» (Josephus, Jewish Antiquities,11; cited Modrzejewski1995:52).

عاشت أغلبية اليهود خارج يهودا منذ ألفى سنة مضت وسبعين سنة قبل (النفى)

ينصحنا البروفيسور مودرزيچيفسكى، أستاذ التاريخ القديم بالسوربون، أن نأخذ بجدية شديدة هذا الوصف للقاء الاحتفالى بين الإسكندر واليهود فى القدس. ومع هذا «فإن الحملات المظفرة للإسكندر الأكبر (٣٣٦-٣٢٣ ق.م) كانت نقطة

فارقة . . . عصرًا جديدًا فى التاريخ بإقليم البحر المتوسط بدأ عندما واجهت العقلانية الإغريقية الروحانية اليهودية (*) . . . لقد أرست غزوات الاسكندر حدود إمبراطورية عالمية . . . لقد قيض لها أن تكون النموذج بالنسبة للرومان»(Modrzejewski,1995:47).

ويزعم مودرزيچفسكى أن يوسيفوس يسجل حدثًا ذا أهمية بالغة، حتى ولو كان ذلك على سبيل الرمز. فقد بدأ شتات اليهود فى جميع أنحاء عالم البحر المتوسط في أعقاب غزوات الإسكندر. ووفقًا لچون باركلاى الذى قام بدراسة مرهقة عن الشتات القديم في عالم البحر المتوسط فى تلك الفترة، كان هذا يصدق فقط على مصر بصفة خاصة عندما صارت جزءًا من إمبراطورية الإسكندر الإغريقية. فقد تم تجنيد أعداد كبيرة من اليهود جنودًا وموظفين فى الحكومة. كما جاء كثير منهم عبيدًا ومهاجرين بسبب الظروف الاقتصادية (Barclay 1996:20-2).

وفى المقابل، وافق الإسكندر وخلفاؤه البطالمة فى مصر على احترام الشريعة اليهودية وحمايتها (Modrzejewski 1995:55). وهناك بعض الأدلة على أن الإسكندر كان يسير على هدى سابقة أرستها الإمبراطورية الفارسية قبله، حيث كان هناك أيضًا شتات يهودى (أصغر حجمًا). وكان هذا يعنى التسامح مع الاستقلال الدينى اليهودى المرتكز فى معبد القدس مقابل الخدمات التى يؤيدها اليهود. وهناك وثائق مثيرة من مستعمرة يهودية أسبق بفترة زمنية كبيرة فى جزيرة ألفنتين فى نيل مصر (بأسوان الحالية)، كانت تخدم الإمبراطورية الفارسية، يعود تاريخها إلى فترة السيطرة الفارسية (Modrzejewski 1995:21-44).

هذه السوابق تبدو وأنها قد ثبتت نموذجًا مألوفًا للعلاقة بين اليهود وحكام الإمبراطوريات القديمة، بل إنها امتدت حتى دول العصور الوسطى، بعد ذلك بحوالى ألف سنة.

وفى الإسكندرية، المدينة التى بنيت لتخليد ذكرى مؤسسها على الساحل المصرى

(*) لا تحظى وجهة نظر مودرزيچفسكى بالكثير من القبول ولا الانتشار، فالإسكندر واجه الفرس والتراث الثقافى المصرى، وخلط بين العناصر الهيللينية (اليونانية) والعناصر الآسيوية فى المناطق ذات الحضارات القديمة (مصر والشام والعراق وفارس والهند)؛ ولهذا عرفت الفترة التالية لدى مؤرخى العالم القديم بإسم الحضارة الهيللينستية، أى الجامعة بين الإغريق والأسيويين. ـ المترجم.

المطل على البحر المتوسط والتى صارت القلب السياسى والتجارى للإمبراطورية، نمت الجماعة اليهودية بمعدل خارق للعادة لتصل إلى ما لا يقل عن ثلث إجمالى عدد السكان البالغ خمسمائة ألف نسمة (Modrzejewski 1995:73)، وقد سيطرت روما على إمبراطورية البطالمة المتداعية، ومن المؤكد أنه بحلول القرن الميلادى الأول «كانت غالبية اليهود يعيشون خارج يهودا» (Barclay 1996:4n.1).

يهود مصر منذ ألفى سنة مضت

لا شك إنه كانت هناك عائلات بارزة كثيرة من عائلات الشتات اليهودى فى الإمبراطورية الرومانية، وكان رئيس إحدى هذه العائلات هو «فيلون السكندرى»، ولكن مصادرنا محدودة جدًا واعتمدت فى بقائها بعد ألفى سنة على صُدَف التاريخ مثل الرمال الجافة في الصحراء المصرية التى خزنت أحيانًا أوراق البردى، أو فى هذه الحال الانبهار المسيحى بهذا الفيلسوف اليهودى اليونانى. «لقد كان المسيحيون الأوائل على ألفة بمقولة يونانية تقول «Either Plato philonises or Philo platonises» أى أفلاطون الفيلونى، أو فيلون الأفلاطونى كما يقول الراهب المسيحى چيروم (Barclay 1996:165).

« لقد كان فيلون على قمة الجماعة اليهودية فى الإسكندرية. . . على ذروة التراث الفلسفى اليهودى. . . مرتبط على نحو عميق بالثقافة الهيللينستية» (Barclay 1996:158)، لقد كان فيلسوفا أفلاطونيًا، ولكن على حد تعبير فيلون» فى مدرسة موسى» (Barclay 1996:163).

كان شقيق فيلون هو الإسكندر كبير مفتشى رسوم الجمارك «آلابارخ - Alabarch»، التى كانت تجبى على الضفة الشرقية للنيل. وكان واحدًا من أغنى الرجال فى المدينة، وكان يعطى منحة للمعبد فى القدس من صحون الذهب والفضة لبواباته التسع. ويزعم يوسيفوس أنه كان «مشرفًا» أيضًا، وربما كان مستشارًا، على الرغم من أن معناها غير مؤكد، لأم كلوديوس الإمبراطور الرومانى (Barclay 1996:158-160).

وكان تيبريوس جوليوس إسكندر ابن أخى فيلون. وعيَّنه الإمبراطور كلوديوس وكيلاً قضائيًا فى يهودا، وقد ساعد فى وقت لاحق فى إخماد العصيان اليهودى بالقدس. ويخبرنا يوسيفوس أن تيبريوس تخلى عن عادات أسلافه (Modrzejewski 1995:186-8).

وسيكون من الحماقة أن نخرج باستنتاجات عامة من عائلة واحدة، خصوصًا هذه العائلة. بيد أن هناك صفة خاصة واحدة تظهر بالفعل. فعلى الرغم من أن هذه عائلة مندمجة تمامًا، فإن اثنين من أعضائها البارزين تمسكا باليهودية تمامًا. وقام الثالث بقطيعة نهائية مع هذا الدين. ولكن حتى هنا لا يوجد بالضرورة مؤشر على موقف تجاه الإمبراطورية الرومانية الوثنية.

أما يوسيفوس، الذى كان قائد التمرد اليهودى ضد الجيوش الرومانية فى الجليل، فقد غير موقفه إلى الجانب الآخر. وحتى فى ظل الحماية الرومانية، أقسم على استمرار التزامه بديانته اليهودية.

لقد كانت هناك مستويات عالية من الاندماج بين الجماعة اليهودية فى مصر. فقد خدم اليهود فى كل مراتب الجيش الإغريقى الإسكندرى، فى صفوف المشاة وفى الفرسان «من المشاة المتواضعين إلى الضباط والصَّرافين فى الجيش» كما يقول باركلاى (Barclay 1996:115). وفى معظم الحالات كانوا يخدمون فى الوحدات العسكرية التى تضم أجناسًا مختلطة.

كان معظم اليهود مرتبطين بنظام الكليروخوس، وهى الآلية المستخدمة لفرض الحكم الرومانى فى الريف. وجنبا إلى جنب مع الجنود المرتزقة المهاجرين من أجزاء أخرى فى الإمبراطورية، أعطيت لهم مساحات من الأرض ومن ثم تحولوا إلى ملاك أراضى صغار يرتبطون بالامتنان والالتزام للبيروقراطية الإمبراطورية (Tcherikover and Fuks 1957:11-17)[٤]. وقد أدى هذا حتمًا إلى الاستياء بين الكليروخوس المهاجرين من ناحية والفلاحين الأهالى من ناحية أخرى (Modrzejewski 1976:48).

فهل كان الاندماج - إذن - مع المجتمع اليونانى ثم، فيما بعد، المجتمع الرومانى الامبراطورى فقط وليس مع الأهالى المصريين؟ «حقا إن اليهود المصريين تخلوا عن العبرية ثم الآرامية وأنتجوا أدبًا باليونانية» (Modrzejewski 1995 XI,XII).

ومع هذا ، علينا أن نخشى من التعميم العقائدى . فبالإضافة إلى ما ذكرناه ، كان هناك عدد ضئيل من الفلاحين اليهود فى مصر . ونسمع عن راعى اسمه باسوس اليهودى ، كان يعمل فى ضيعة مملوكة لرجل غير يهودى . كان باسوس «على الأقل يحظى باعتراف بأنه جاء أصلاً من يهودا» (Barclay 1996:115) . وهناك «سيوس اليهودى» الذى كان مدينًا لتاجر صوف غير يهودى . ونجد يهوديًا آخر «يرعى القطيع المملوك لمعبد مصرى» (Barclay 1996:115) ولدينا أيضًا حرفيون وبناءون ، ونساجون ، ومكارية حمير ، ومراكبية ، يعملون فى بعض الأحيان لدى غير اليهود (Barclay 1996:116) .

وينعكس بعض الإحساس بالاندماج فى المجتمع المصرى المحلى فى كتابات أحد المؤلفين اليهود ، وهو أرطپانوس ، على الرغم من أنه كتب باللغة اليونانية والذى كان متعاطفًا مع العبادات الدينية المصرية (Barclay 1996:127-32) (على الرغم من أن معظم الكتابات الدينية اليهودية كانت تهاجم العبادات المصرية) (Barclay 1996:46) . ولكننا لا نستطيع سوى أن نخمن هذا الاندماج . وعلى أية حال ، فإن فيلون لا يترك لدينا شكًا بشأن المكان الذى يسميه اليهود وطنهم ، من وجهة نظره .

فيلون : «الشتات القديم هو الوطن»

بينما يعتبر فيلون أن فلسطين ، أو جزءًا منها على الأقل ، هى الأرض المقدسة ، فإنه لم يكن يعتبرها الوطن . وقد قالت ساره پيرس إن :

«مناقشاته بشأن الرحلة سعيا وراء الحكمة تؤكد على أن الشخص الحكيم ، الذى يتجسد فى مثال إبراهيم . . . ينبغى أن يهجر الوطن الذى يرتبط غالبًا وبشكل صريح بالجهل أو الديانة المزيفة لصالح الوطن الحقيقى ، الذى هو مملكة الرب ، أو الفضيلة . . . كما أن الانفصال عن وطن بعينه يشكل جزءا من تقديم فيلون للحكماء باعتبارهم «مواطنين عالميين» يسمون فوق الارتباط بأماكن معينة . . . » (Pearce 1998:100)[٥] .

وما يخلب الألباب فى منظور فيلون ، هو كيفية تنبؤه بالعالمية الحديثة التى خرجت من طيات الشتات اليهودى الأوروبى فى العصور الوسطى ، والتى أصبحت جزءًا رائعًا من التراث التنويرى اليهودى . وثمة جانب أكثر إظلامًا فى هذا بطبيعة الحال .

ويتمثل هذا الجانب المظلم فى التراث الذى ساعد دائما على تغذية اللاسامية الحديثة والهجوم على «الكوزموپوليتانية اليهودية» التى لا جذور لها، والتى كانت الصهيونية أحيانًا تقلدها ببراعة(٦) ويبدو أن الكوزموپوليتانية اليهودية أقدم من الصهيونية بما يقرب من ألفى سنة!.

ويعترف فيلون بالأهمية الحتمية لارتباط الناس بوطنهم: «الإخلاص الوطنى. . . من بين أسمى الخيرات، وأمر به الرب فى شريعة موسى» (Pearce 1998:100-1) بيد أن «الوطن» هو «قبل كل شىء هو المكان الذى وُلد فيه المرء وتعلم فى رحابه» والواقع أن «الأرض المقدسة» ليست «الوطن»، وإنما هى «أرض غريبة»:

«يفترض فيلون شعوراً مشتركًا فى الارتباط بالأوطان المحلية عندما يصور الحج إلى معبد القدس باعتباره «أقسى امتحان»، يتطلب التخلى مؤقتًا عن الوطن والعائلة للعيش فى أرض غريبة. «ولا شك فى أن الإخلاص للمعبد وشرائعه تمثل المركز فى هوية فيلون اليهودية. ولا يعنى هذا، على أية حال، أن هذا التعبير عن الالتزام يجب أن يُقرأ بمصطلحات تهمّش ولاءه المحلى» (Pearce 1998:101).

ولدينا هنا تأكيد بأنه لم تكن هناك رابطة ضرورية بين البؤرة الدينية فى الحج والمعبد وبين الإخلاص الوطنى «للأرض الموعودة».

كيف يتناسب منظور فيلون مع بقية الشتات اليهودى فى العالم القديم؟ إن مصادرنا محدودة للغاية. ومع هذا نجد هنا استنتاج باركلاى الذى يختتم به تقويمه لمصادر تاريخ اليهود فى روما منذ ألفى سنة:

«إن مسحنا لتاريخ يهود روما كان موجهًا إلى درجة كبيرة على أساس من «اللقطات الفوتوغرافية». . . إلا أن هذه وفرت. . . صورة متماسكة إلى حد بعيد. وباعتبار اليهود إحدى أقليات كثيرة مهاجرة فى روما، كانوا خاضعين لازدراء النخبة الرومانية على المستوى الاجتماعى والثقافى، حتى على الرغم من أن أفرادًا استثنائيين من اليهود كانوا معروفين فى البلاط الإمبراطورى. على أية حال، فإن استمرار عادات اليهود الموروثة، وجاذبيتهم الخاصة للرومان من طبقات اجتماعية كثيرة كانت ملامح خاصة بالصورة اليهودية، بالقدر الذى لفت الانتباه العدائى من جانب تيبريوس، وكلاوديوس، ودوميتيان. . . ولم يحدث أن كان اليهود الرومان من الكثرة أو كانوا

يمثلون تهديدًا للعامة من الرومان أو الطبقات الحاكمة بحيث تقع حوادث عنف من النوع الذى شهدناه فى المدن السورية والمصرية والليبية . ولأن أيديهم كانت نظيفة من الحروب فى يهودا وتمرد الشتات سنة ١١٦-١١٧م، استطاعت الجماعة اليهودية فى روما أن تحتفظ بتاريخ متواصل استمر حتى يومنا هذا» (Barclay 1996 : 318-19) .

اليهود وغير اليهود فى الشتات القديم

يبدو معقولاً أن نقر بأن يهود روما كانوا يعتبرون روما «وطنًا» لهم . ومع هذا فإن باركلاى يكتب عن العنف فى أماكن أخرى من الشتات . ومن المستحيل أن نحكم على مستويات كثافته أو أثرها على تجذر اليهود محليًا . فقد كان يرتبط أحيانًا بالطريقة التى كان الحكام الأباطرة يجعلون الديانات المختلفة والمجموعات العرقية المختلفة تتحرك بعضها ضد البعض . «ومذبحة الإسكندرية» سنة ٣٨ ميلادية كان من بين أسبابها الطريقة التى أدارت بها روما العلاقات بين الاغريق واليهود والمصريين فى المدينة (Barclay 1996:48) . ولا شك فى أن اليهود كانوا عرضة لعداوة خاصة إذا ما نظر إليهم على أنهم يفرضون سياسات إمبراطورية غير شعبية (مثل نظام الكليروخس فى مصر) . وبشكل عام فإن اليهود الذين عرفوا بإدراكهم لاختلافهم الدينى، وربهم الواحد الخفى، وبالختان، وقوانين الطعام ومراعاة السبت، كان من السهل أن يستعبدوا الآخرين . «ولأنهم كانوا موالين لبعضهم بعضًا، فإنهم كرهوا الآخرين جميعًا» كما يقول المؤرخ الرومانى تاكيتوس . (Goodman 1987:98) .

وغالبًا ما يشير يوسيفوس إلى كراهية السوريين الراسخة لليهود (Barclay 1996:248) وهو عادة مصدرنا الوحيد، وينبغى أن نكون حذرين، لأنه ترك لنا صورة بديلة مُعذِّبة أيضًا . ففى نفس الفترة التى كان فيها التوتر بين اليهود وغير اليهود يتصاعد بسرعة، مباشرة قبل التمرد اليهودى ضد روما، يقدم يوسيفوس الدليل على أن غير اليهود كانوا منجذبين تجاه اليهود . فهو يكتب عن كل مدينة كان لها «مهودوها»، المبشرون اليهود الباحثون عمن يريد اعتناق اليهودية، وعن عنصر «مختلط» ليس يهوديًا خالصًا ولا غير يهودى (Barclay 1996:248). وفى دمشق يزعم أن الجميع «فيما

عدا زوجات قليلات من الدمشقيات قد اعتنقن الديانة اليهودية» وفى أنطاكية، وهى مدينة قديمة فى نفس المنطقة، كانت اليهودية تجتذب عددًا كبيرًا من اليونانيين (Barclay 1996:254).

وتقول مصادر العهد الجديد من الكتاب المقدس المزاعم نفسها؛ ففى قيصرية كانت اليهودية تنتشر حتى بين العسكريين، كما يقول كرنيليوس (أعمال الرسل، الإصحاح العاشر: ١-٢)[*] (Barclay 1996:254) وكان يوسيفوس على ثقة تامة من أن اليهودية لا يمكن مقاومتها فى النهاية:

«لقد أظهرت الجماهير على مدى فترة طويلة من الزمان شغفًا عظيمًا بديانتنا... وليست هناك مدينة واحدة، إغريقية أو بربرية... لم تتسرب إليها عادة يوم السبت الذى نخصصه للعبادة؛ حيث الصيام، ووُقود المصابيح، والكثير مما نحرمه بالنسبة للحوم تتم مراعاته.... وبدون الطُعم المغرى للفرح الحسى، ولكن فقط بسبب الجدارة الجوهرية الذاتية برهنت الشريعة [اليهودية] على مدى فعاليتها الشديدة» (Josephus 1996 :282).

وربما يكون يوسيفوس مبالغًا كما يؤكد ذلك معظم الباحثين فى العصر الحديث. ولكن، على الأقل، فإنه من المؤكد يعكس الثقة بالنفس لجماعة فخورة بديانتها. إنه لا يمكن أن يكون وصفًا لجماعة معزولة تعيش فى «المنفى» (الواقع أنه عند هذا التقاطع بالضبط بين اليهود والوثنيين، بدأت العبادة اليهودية المسيحية تبتعد عن بعض التحريمات الأكثر صرامة فى اليهودية. وأشهر يهودى فى الشتات وهو «بولس الطرسوسى» [بولس الرسول]، سوف يقوم برحلة يطوف فيها بجماعات الشتات، يبشر فى معابدهم ويوحد بين المتعاطفين من اليهود والأمميين. أما الباقى، فهو كما يقولون، تاريخ معاد لليهود بالتأكيد، ولكنه يبقى شهادة على حركية وإبداع الجماعة اليهودية فى الشتات فى القرن الميلادى الأول)[٧].

(*) يقول النص «وكان فى قيصرية رجل اسمه كرنيليوس قائد مائة من الكتيبة التى تُدعى الإيطالية، وهو تقى وخائف من الله مع جميع بيته يصنع حسنات كثيرة للشعب ويصلى إلى الله فى كل حين». وليس فى هذا ما يؤيد زعم يوسيفوس، والذى يقول كثير من المؤرخين إنه يجب أن يؤخذ كلامه بكل حذر ـ المترجم.

منذ ألفى سنة

عاش اليهود فى جزء من

أرض إسرائيل ـ سامرا والجليل ويهودا

ماذا عن اليهود الذين يعيشون فيما يسمى «أرض إسرائيل»؟ أولا يجب علينا أن نتذكر من الفصل الأول أن «أرض إسرائيل» بحد ذاتها أسطورة دينية. فمنذ ألفى سنة مضت كانت هناك ثلاثة أجزاء جغرافية وسياسية متمايزة تكون ما يسمونه «أرض إسرائيل»، التى تبنى عليها الصهيونية الحديثة مزاعمها، وهى السامرة ويهودا والجليل. وكل منها يحتاج إلى أن نتدبره بشكل منفصل.

تكشف السامرة عن أعمق خطوط التصدع بالنسبة للصهيونية. فحتى يومنا هذا، هناك هوية سامرية فريدة، ليست لها روابط بإسرائيل الحديثة أو اليهودية الحديثة كما هى مفهومة فى الغرب. وهناك مؤرخ واحد، هو كوجينز، قد أمعن النظر بحق فى مغزى وجود ثلاثة مرشحين من السامرة شاركوا فى انتخابات المجلس التشريعى الفلسطينى الافتتاحى فى الضفة الغربية سنة ١٩٩٦م. وكما يكتب: «إن تمايز السامرة باعتبار أنهم ليسوا عربا ولا إسرائيليين، هو ما تم الاعتراف به على هذا النحو» (Coggins 1998:66).

لقد أصرَّ السامريون على أنهم يهود، ولكن فى القرن الأول كان بينهم وبين مملكة يهودا عداء مستحكم. وقد أذكى نار العداوة بينهم رفض السامرة الاعتراف بمعبد القدس. وبدلاً من ذلك، كانوا يتعبدون فوق جبلهم، «جبل جرزيم»، وتتمثل الصعوبة هنا فى أنه لا توجد وثيقة باقية من السامرة. ومعظم الوثائق يهودية، بالمفهوم الذى يمثله معبد القدس، كما أنها معادية للغاية. وقد لخص ميللر مدى ضآلة ما نعرفه عن السامرة:

«إن الكيفية التى رأوا أنفسهم بها، قد تم التعبير عنها بشكل واقع من خلال نقشين باليونانية فى جزيرة ديلوس اليونانية [مما يكشف عن شتات سامرى]».

«إن الإسرائيليين [٨]... الذين يدفعون ضرائب العشور إلى جبل جرزيم المقدس.

والتاريخ الحقيقى، وحجم الاستيطان ونماذجه فى الجماعة السامرية فى السامرة نفسها، غير معروف سوى فى نطاق ضئيل بدرجة غير عادية. ومن خلال الأدلة التى ترجع إلى تلك الفترة لا نعرفهم سوى من الخارج، كما هو الحال مثلاً فى وصف إنجيل يوحنا عن الكيفية التى تحدث بها يسوع مع امرأة سامرية عند بئر يعقوب(*) «آباؤنا عبدوا الله فى هذا الجبل، وأنتم اليهود تصرون على أن أورشليم يجب أن تكون المركز الوحيد للعبادة» (يوحنا ٤ : ٢٠). ولم يمرّ وقت طويل على هذا التاريخ الدرامى، حتى أرسل بونثيوس بيلاطس تجريدة عسكرية لذبح جمهرة من السامريين كانوا قد تجمعوا فى قرية بالقرب من جبل جرزيم، على أمل أن تظهر الأوانى المقدسة التى كان موسى قد أودعها هناك (كما تذكر رواية يوسيفوس). وبعد ذلك بثلاثين سنة، فى المراحل الباكرة من التمرد اليهودى، تجمع عدد كبير من السامريين مرة أخرى فوق جبلهم المقدس، وفى صيف سنة ٦٧م، تم ذبح ما يربو على أحد عشر ألفًا بأيدى القوات التى أرسلها الإمبراطور الرومانى ڤيسپاسيان. . . » (Millar 1993:341).

لا يوجد دليل على أن يهود يهودا ويهود السامرة قد استطاعوا أبدًا أن يجدوا قضية مشتركة فى نضالهم ضد الرومان على الرغم من قسوة عدوهم المشترك. وهذا ما يشكل نقطة لها دلالتها الموحية جدًا. فمنذ ألفى سنة مضت، لم تستطع مملكة يهودا القديمة أن تؤكد سلطتها على السامرة، كما رفضت السامرة أن تعترف بالسلطة الدينية للقدس. وليس ثمة معنى لمسألة الاعتراف بسلطتها الوطنية خارج هذا الإطار الدينى.

بل إن الجليل تطرح مشكلات أشد خطورة

فقد وصف الباحث المتخصص فى لفافات البحر الميت، چيزا ڤيرميس، الجليل فى كتابه المميز «Jesus the Jew» (يسوع اليهودى)، الذي يفحص الجذور اليهودية ليسوع وسياق قصته. وإن قدرة الكاتب الفذة على استخراج التاريخ الحقيقى من الأناجيل، والكتابات الدينية التى للربيين اليهود مثل التلمود، وما كتبه يوسيفوس، قد أدت إلى

(*) «وجاءت امرأة سامرية إلى البئر لتأخذ ماء، فقال لها يسوع: «اسقنى» . . فقالت: «أنت يهودى وأنا سامرية، فكيف تطلب منى أن أسقيك؟» فإن اليهود كانوا لا يتعاملون مع أهل السامرة» يوحنا: ٤ : ٧-٩ المترجم.

نتائج مذهلة. فهو يكشف عن يهودية فلاحية خشنة، ومرتجلة، فى القرن الأول الميلادى، على خلاف مع القدس وبنفس درجة الخلاف مع روما. ففى البداية كانت الجليل (شمال فلسطين) محكومة بشكل منفصل عن يهودا «وهى حقيقة عززت من إدراك أهل الجليل ووعيهم بذاتهم» (Vermes 1983:45) هذا الوعى المحلى والإقليمى عكس أيضًا الجغرافيا الاقتصادية. فقد كانت الجليل أرضًا خصبة على نحو خارق للعادة، إذ إن زيت الزيتون الذى كانت تنتجه، مثلاً، كان يصدَّر إلى جميع أنحاء عالم البحر المتوسط. والاكتفاء الذاتى الاقتصادى للجليل «ربما يكون قد غذى كبرياء السكان واستقلالهم» (Vermes 1983:46).

وقد كان زعماء المعبد فى القدس يبغضون أهل الجليل. فقد كانوا «فلاحين»، ولكن الكلمة العبرية توحى أيضًا بأنهم كانوا غير متعلمين دينيًا. والاقتباس التالى من التلمود يعكس الاستياء المتبادل بين يهود المعبد الأرثوذكس وبين يهود الجليل (الفلاحين=عام هاآرتس):

«لا يجوز لأى رجل أن يتزوج ابنة أحد اليهود الفلاحين؛ لأنهم مثل الحيوانات النجسة، ونساؤهم مثل الأفاعى، وعن بناتهم يقول الكتاب المقدس: «ملعون من يرقد مع أى صنف من الحيوان» (Vermes 1983:54 -5).

ويشى اقتباس من التلمود أيضًا بأن الكراهية بين القدس اليهودية وريف الجليل اليهودى كانت أكثر كثافة منها بين اليهود والوثنيين: إن كراهية العام هاآرتس أكبر تجاه المتعلمين من كراهية الوثنيين لإسرائيل، ولكن كراهية زوجاتهم تظل هى الأكبر» (Vermes 1983:55).

ويجد ڤيرميس ملاحظة فى أحد الأناجيل تردد أصداء مثل هذه العداوة، وتقول هذه الملاحظة: «من المؤكد أن المسيح ليس من الجليل». (Vermes 1983:55).

وكما هو الحال بالنسبة للسامرة، لا يوجد دليل على أن الجليل قد انضم إلى يهودا فى صراع مشترك ضد روما. والواقع أن راچاك، فى كتابها عن سيرة يوسيفوس، قد أسمت الفصل الذى خصصته عن الجليل «الحرب الأهلية فى الجليل»، كاشفة عن حقيقة أن القتال داخل الإقليم كان اقتتالاً بين البعض والبعض الآخر أكثر من كونه قتالاً

ضد روما. وهى تزعم أن الموقف كان قريبا من الفوضى الكاملة. (Rajak 1983:165).

لقد كان يوسيفوس هو القائد الأعلى بالقدس المسئول عن الجليل عند بداية التمرد اليهودى. وتتميز راچاك بالصراحة الكاشفة وهى تتحدث عن ولاء الجليليين لقائدهم القادم من القدس:

«يخبرنا يوسيفوس... عن عصابات لم يستطع نزع سلاحها، ومن ثم ضمهم إليه مرتزقة... وإذ وجد نفسه قائدا طموحًا لما يشبه عصابة من الرجال المتوحشين، انتفخت بمن انضم إليها من الفلاحين الذين لا مأوى لهم، والقرويين الغاضبين»

(Rajak 1983:145).

ومع هذا، جاء بعض أهل الجليل إلى يهودا، وربما إلى القدس، لكى يحاربوا. أما ما كانوا يحاربون من أجله هم وسكان يهودا فهو السؤال الذى يجب أن نحاول الإجابة عليه الآن.

التمرد اليهودى ضد روما ٦٦-٧٠م

يرمز التمرد اليهودى ضد روما (٦٦-٧٠م) إلى نقطة فارقة كبيرة فى التاريخ اليهودى القديم. وكونها حربًا من أجل التحرر اليهودى أمر لا شك فيه؛ أما إذا ما كانت تصلح نموذجا قانونيًا مشروعًا لحركة قومية يهودية مثل الصهيونية، فهو الأمر الذى يثير الكثير من الشكوك بكل تأكيد.

ولنبدأ بالعائلة الثورية غير العادية عائلة يهوداس الجليلى. فقد ولد عند بداية القرن الميلادى الأول، وقاد المعارضة ضد التعاون مع الإحصاء الرومانى وكانت تلك وسيلة لتجنب دفع الضرائب. وبعد ذلك بأربعين سنة، تم صلب اثنين من أبنائه هما، يعقوب وسمعان، بسبب أعمال التحريض الثورية. وكان هناك ابن باق، هو مناحم، الذى صار فيما بعد أحد الزعماء الثوريين فى القدس.

وكان هناك ابن أخ لمناحم، اسمه إليعازر، هو القائد الأسطورى لصخرة مسعدة «الماسادا»، حيث قامت عدة مئات من اليهود، بعد الصمود أمام الرومان فى أعقاب سقوط القدس، بعملية انتحار جماعى فى نهاية الأمر.

وربما يثور الاعتراض على أن مصدرنا عن هذه السلالة هو يوسيفوس، ومن ثم فإن التاريخ الذى يكتبه لا يمكن الاعتماد عليه. ولكن الصهاينة يكونون أكثر من سعداء باستخدام يوسيفوس عندما يناسبهم. لقد صارت صخرة مسعدة أحد أهم أماكن الجذب السياحى فى إسرائيل الحديثة، وتستخدم بصفاقة كوسيلة لصناعة الدعاية الصهيونية. ووفقًا لييجال يادين، أشهر أثرى إسرائيلى أجرى حفائره فى الموقع، فإنه «من خلا ل الزيارات إلى الماسادا، يمكن أن نعلم إخوتنا [فى الشتات] ما نسميه اليوم الصهيونية» (Zerubavel 1995:67). وغالبًا ما تتضمن الكتيبات السياحية مستخرجات من خطبة أليعازر الشهيرة عن «الحرية» عشية الانتحار الجماعى (Zerubovel 1995:134). والخطبة مستخرجة من تاريخ يوسيفوس، ويسود اعتقاد عام بأنه قد اصطنعها، مما يكشف عن الجانب غير الجذاب فى شخصية يوسيفوس(٩).

ويتطلب الاعتماد على يوسيفوس قدرًا عظيمًا من الحرص. فقد كتب الباحث غير العاطفى، مارتن جودمان، ما يعتبر ـ من ناحية حججه ـ أفضل تقرير عن التمرد اليهودى.

ففى هذا الكتاب الذى يحمل عنوان «The Ruling Class of Judaea, The Origins of the Jewish Revolt against Rome 66-70».

يفصل بمهارة بين يوسيفوس بوق الدعاية وبين يوسيفوس المؤرخ الحقيقى.

لقد كان التمرد اليهودى ضد روما حرب فلاحين ضد الطبقة الحاكمة اليهودية فاحشة الثراء فى القدس، مثلما كان حربًا ضد حكم روما. والواقع، أن جودمان هو الذى أوضح أن روما انقلبت على الطبقة الحاكمة اليهودية بسبب عجزها عن السيطرة على الفلاحين.

ويستحق تحليل جودمان لحركة عصيان الفلاحين السابقة، التى قادها يهوداس الجليلى أن نوليه انتباهنا الخاص؛ لأنه يقدم لنا العقلية التى كانت لدى الناشطين الثوريين من الفلاحين، إذ إن استخدم جودمان للدليل الذى أخذه عن يوسيفوس حول يهوداس يوحى بأن هذا الأخير يقدم حركة مسيحانية، لم تكن تحترم الحدود الوطنية ولا الزعماء الوطنيين، إذ يكتب جودمان:

«لم يكن ما يقال إن يهوداس قد اقترحه هو مجرد أن الخضوع لروما كان شرًا، ولكن

قبول أى سيد من البشر كان خطأ لأنه لا يجب أن يحكم اليهود غير الله وحده . . . وكان تأثير هذه الأيديولوچية هى الفوضى والثورة .

كان أكثر الدوافع إلحاحًا لانضمام أى يهودى فى نضال عنيف ، هو الاعتقاد أن العصر المسيحانى لم يكن مجرد أمل مستقبلى . . . وإنما هو حقيقة واقعة . فما إن يصل المسيح ، وتكون المعارك الأخيرة ، [التى صورتها لفافة الحرب التى عثر عليها فى خربة قمران] (١٠) على وشك الاندلاع . . . فلن يكون أمامكم من خيار سوى المشاركة» (1987:93-4,91-2) .

لدينا هنا «فوضى مسيحانية مذهبية» ، شكل من التحرر اليهودى لا يعترف بأى بناء لدولة ، سواء أكانت وطنية أم غير ذلك .

وبينما تعتبر راچاك ، وهى الخبيرة فى يوسيفوس ، أن هناك قدرًا من المبالغة فى التأكيد على النزعة المسيحانية (1983:40-1) ، فإنها تعزز التفسير الفوضوى الجديد بمفاهيم علمانية «قطع الطريق» و «اللصوصية» ، باعتبارها تفسيرات سياسية :

«كان قطاع الطرق ، بطبيعة الحال ، عدو المستوطنين وأصحاب الأملاك فى شتى أرجاء العالم القديم ؛ وحتى روما لم تستطع دائمًا أن تصدها عن الإمبراطورية . فالعصابات حالة متطرفة . وهى . . . كما يعترف يوسيفوس . . . أن معظم المتمردين لديهم أحقاد ضد أبناء طبقة أخرى غير طبقتهم ، وبعضهم على الأقل كان مسوقًا برؤيا ـ ربما غير مميزة ، وأحيانا مسيحانية ، ولكنها لم تكن بلا مضمون عملى ـ لمجتمع أفضل . . . » .

« . . . الثوريون . . . لا بد أنه كانت لهم أهداف اجتماعية وسياسية واضحة ، حتى لو كانت غامضة ومحددة بشكل سئ . . . والغموض . . . كان مختلطًا بالنقص العام فى الأيديولوچية الثورية الواعية فى العالم القديم . . . وربما نفترض [الأهداف] . . . والمعايير فى العالم الإغريقى ـ على أنها مطالب بإلغاء الديون (تذكر تدمير سندات المرابين فى سجلات معبد القدس) ولإعادة توزيع الأرض وهو ما لا يعلق عليه يوسيفوس» (1983:85,139) .

وتقتبس راچاك من كلام إريك هو بسباوم فى كتابيه «**Primitive Rebels**» و«Bandits» قوله إن عصابات الفلاحين وقطاع الطرق ، باعتبارها شكلاً من الاحتجاج

الاجتماعي والسياسي البدائي ضد الظلم وعدم المساواة، لها تاريخ طويل ومشرف في جميع أنحاء العالم في العصور القديمة والعصور الوسطى.

وكان الزيالطة «Zealots» يشكلون أهم مجموعة ثورية منظمة في التمرد، وتولوا السلطة في القدس لوقت قصير. وهناك تبدو بعض الاستمرارية التاريخية مع يهوداس الجليلي، حسبما يرى ڤيرميس على الأقل. وقد جندوا رجال العصابات لتقوية قاعدة سلطتهم في القدس (Goodman 1987:225). وعندما استولوا على المعبد اختاروا الحبر الأعظم الجديد عن طريق السحب حسب الحظ، وبذلك تجنبوا المرشحين من عائلات الطبقة الحاكمة التقليدية. وكان الحبر الأعظم الذي تم اختياره قاطع أحجار في إحدى القرى، وربما كان هو أول حَبر أعظم من أصول على هذا القدر من التدني. وتبدو في هذا رنة من الحقيقة، إذا ما كان السبب هو أن يوسيفوس كان شديد الحنق لهذا، فقد استبعده باعتباره ريفيًا ساذجًا وجاهلاً (Rajak 1983:133).

وقد «سك الزيالطة أحسن عملات التمرد» (Goodman 1987:201 n.3).

والعملات لا تقدر بثمن لأنها أحسن دليل متاح ـ بعيدًا عن يوسيفوس ـ عن الأهداف العامة للتمرد. «إذ إن الشعارات [التي تحملها العملات] أكدت على الحرية وعلى قداسة مدينة القدس. . . وحساب عدد السنين من إعلان الاستقلال يكشف عن بداية عهد جديد» (Goodman 1987:178). وهي تشي بنضال من أجل يهودية حرة ومستقلة، ومن أجل الدفاع المسلح عن مركزها الروحي، أي معبد القدس، ربما توقعا لوصول المسيح المخلص. ولكن هنا أيضًا تحث راجاك على الحذر في التعامل مع الشعارات على أساس أنها دينية خالصة:

«إن الشعار الواحد. . . هو الكلمة المفردة «الحرية»، الذي تحمله العملة، ويطرحه يوسيفوس كذلك. إن المعلقين على يوسيفوس من أصحاب العقلية اللاهوتية، وهم الأغلبية، قد قرأوا هذا قراءة أخروية، أي من خلال نظرة مؤمنة بالبعث والآخرة، باعتباره يشير إلى الأحوال التي سوف تنشأ في يوم القيامة. إلا أن حتى . . . مثل هذه الدوائر. . . تسمح بأن نوع الحرية الذي كانوا يحلمون به. . . لا بد وأنه كان يحمل مكونا بارزًا عن التحرير العملي للمقهورين» (1983:139).

ويجادل جودمان أن فشل الطبقة الحاكمة اليهودية في القدس في السيطرة على

العناصر الفوضوية التى بدأت تظهر جذور لحركة التحرر، هو الذى أثار سخط روما إلى هذا الحد. وقد ألهب هذا تقليد تدريب مفسرين مستقلين للتوراة من بين الفلاحين، وكان هؤلاء أيضًا على استعداد لتقديم التبريرات الدينية لمكلية الفلاحين ـ بشكل مستقل ـ للأرض.

ويكتب جودمان: «سيعرف الفلاحون أن النموذج الذى وضعه الرب في التوراة يتطلب من كل رجل أن يمتلك أرضه الخاصة باعتباره مواطنًا حرًا متساويًا مع الآخرين» (1987:67).

ويستمر قائلا:

«كان هناك كثير من الأحبار والخبراء فى تفسير التوراة الذين كانوا ـ على الرغم من أنهم مستبعدون خارج الطبقة الحاكمة ـ قد تمكنوا من تحقيق قدر كبير من الهيبة بين الجماهير، بيد أنهم لم يقوموا بأية محاولة للاستيلاء على السلطة لصالحهم، لأنهم مثل الفقراء عمومًا، كانوا يفتقرون إلى المؤسسات. . . ولم يكن الخطر على المجتمع كامنًا فى الثورة، وإنما تمثل فى الفوضى على نحو أكثر غدرًا» (1987:137).

ولا نستطيع أن نمضى فى المناقشة إلى أبعد من ذلك؛ لأنها لن تصل إلى نتيجة. ويمكننا أن نرى الخطوط الخارجية لصراع ثورى مرير، بيد أنه محجوب خلف ضبابيات الزمان. ومع ذلك يمكننا أن نستخرج رؤى داخلية مهمة من فئات الأدلة. ويمكن أن ننشغل فى حماسة بتفسير يوسيفوس غير الصادق، ولكن ينبغى أيضًا أن نكون مدركين للملاحظة التى أبداها عالم الدراسات الكلاسيكية المتميز دى ستى كرواك G.E.M.de Ste Croix:

«إذا لم يكن لدى الإغريق كلمة تعبر عن شيء ما. . . ربما يكون هذا تحذيرًا مفيدًا بأن الظواهر التى نبحث عنها ربما لم تكن موجودة. . .» (de Ste Croix 1983:35).

القومية فكرة حديثة. وهى تتطلب الإسهام الجماهيرى من جانب أناس واعين بأنفسهم باعتبار أنهم سيكونون مواطنين فى بنية دولة داخل أرض يتم تحديدها وطنيًا (Hobsbaum 1990:19). ونحن لا نملك ببساطة دليلاً من التمرد اليهودى يجعلنا نراه نضالاً من أجل التمرد الوطنى ليهودا، دعك من التحرير الوطنى «لأرض إسرائيل».

هل أدى تدمير المعبد فى القدس فى أعقاب هزيمة المتمردين اليهود على أيدى الرومان، إلى «النفى»، على الأقل بالنسبة ليهود القدس ويهودا؟

من المؤكد أنه يبدو محتملاً أن منطقة القدس، وفى أعقاب حركات التمرد فى الشتات[١١]، وفى ريف مملكة يهودا بقيادة باركوخيا[١٢]، تم إخلاء بقية مناطق يهودا بالقوة من اليهود. ولا شك فى أنه كان هناك هجرة داخل الشتات اليهودى، ولكن كان هناك أيضًا هجرة مكثفة إلى الجليل، حيث كانت الديانة اليهودية، فى صيغة ربانية معدلة، مقدرًا لها أن تزدهر بموافقة الرومان. وقد اقتفى جودمان آثار وصول الربيين المنفيين من يهودا إلى الجليل فى ذلك الوقت، مستخدمًا مصادرهم الدينية ذاتها. والقصة التى يحكيها لنا هى عن اثنين من أهالى يهودا عقب التمرد اليهودى مباشرة. وهناك الديانة اليهودية الفلاحية «الموجودة بالفعل» التى تنتشر فى قرى الجليل المزدهرة، والتى وصفها ڤيرميس فى الصفحات السابقة، وهناك المحاولة التى قام بها الربيون المهاجرون الحرفيون[١٣] لطرح التزام أكثر صرامة بالشريعة اليهودية. وقد أبدت روما قدرًا كبيرًا من عدم الاهتمام بهذه العملية. (Goodman 1983:154)، على الأقل فى مراحلها الباكرة، ولم تهتم إلا بجمع الضرائب. (Goodman 1983:146).

وبينما نسجل مجرد عدد قليل من المميزات للصراع بين هذين الشكلين من الديانة اليهودية ـ فى ظل هزيمة حركات التمرد اليهودى وتدمير المعبد ـ فإن ما يترك الانطباع المؤثر هو الاستمرارية اليهودية وكذلك العلاقات الهادئة مع غير اليهود فى إقليم الجليل. ولدينا هنا لمحات عن الأخذ والرد مع الجيران غير اليهود فى الريف[١٤].

ووجهة النظر الصهيونية التى تقول بأن فى ذلك الوقت بدأ الألم والعذاب فى ليل «النفى» الطويل فى عالم تحكمه كراهية اليهود، لا محل لها ولا مكان فى الجليل. ويكتب جودمان أننا نعرف عن يهود:

«يأكلون سويًا مع الوثنيين، على الرغم من أنهم لا يأكلون طعامهم بالضرورة. . . وربما يساعد الوثنى فى سقاية حيوان جاره يوم السبت. . . ويفضل اليهود السفر بصحبة الوثنيين على مكابدة مخاطر السفر وحدهم. . . يجب أن يظهروا

التعاطف فى الأوقات التي يحزن فيها الوثنيون، ويواسونهم ويدفنون موتاهم والسبب الذى يقدمونه «لأساليب السلام» يوحى بأن مثل هذه العلاقات قامت حقًا وأجبرت الربيين على أن يكونوا متساهلين ضد رغبتهم . . .

وكان لا بد للاتصال الودى أن يتحول إلى علاقات حميمة. وربما كانت المرأة اليهودية تعير ملبسها إلى صديقة من الأمميين، وربما يعير الرجل جحشه، وهناك الكثير من التعليقات على القروض المالية فى كلا الاتجاهين. وكان يمكن للتعاون أن يمتد إلى الملكية المشتركة لمزارع الكروم والمزارع . . . ومن مثل هذه الأنشطة ربما كانت تنمو الثقة الكبيرة، لدرجة أن يهوديًا قد يأتمن وصيًا من الأمميين على بضائعه أو عائلته لكى يرعاها بعد وفاته . . . وربما كان اليهودى أيضًا يعين وصيًا من قبل أحد الأمميين. . » (1983:44).

وقد سمحت كتابات الحاخامات بظهور الأشكال الوثنية المقدسة الممكنة على الأشياء اليومية مثل الغلايات، والأباريق، والأحواض وغيرها، ولكنهم لم يسمحوا بظهور هذه الصور على الأشياء الثمينة مثل المجوهرات. (Goodman 1983:69) ومرة أخرى، «غالبًا ما كانت الأعراف والتقاليد الإغريقية تقدم مادة موضوع الزخرفة ـ رأس الأسد، أكاليل الزهور، النسور، والملائكة للحليات فى المعابد. . . » (Goodman 1983:71).

هل الجليل هى «المنفى»، «الشتات»، «أرض إسرائيل»، أم ولاية يهودية فى الامبراطورية الرومانية؟

والجليل هي مركز إنتاج التلمود الفلسطينى، الذى كان مقدرًا له مع التلمود البابلى[١٥] أن يصير المرشد الروحى لليهودية حتى عصر التنوير، بعد ألف وثلاثمائة سنة.

بيد أن هنا يكمن التناقض النهائى، إذ إن الجليل أيضا هى المكان الذي شهد أكثر كشف أثرى مذهل من التاريخ اليهودى القديم المتأخر، على أرضية من الفسيفساء لمعبد يهودى قديم: جوهرة قديمة حقيقة تحتفى فى وقت واحد بالرب الذى لا صورة له، وبإله الشمس، وهى شهادة على التعايش بين اليهود وغير اليهود.

القرن الرابع الميلادى

معبد قرب طبرية بأرضية عليها إله الشمس

ربما لا يوجد منتج آخر من تلك الفترة يكشف تمامًا عن التعبير الواثق عن التقاليد والهوية اليهودية فى داخل سياق تعددى، أو يربط ذلك بعناصر كثيرة للغاية من الزخرفة الفنية اليونانية ـ الرومانية. والفسيفساء (الموزايكو) الذى يشغل الممشى المركزى فى المعبد مقسم إلى لوحات ثلاث. الأولى تصوير موضع التوراة محاطًا بشمعدانين تحترق فيهما الشموع. ثم يلفت النظر تصوير دائرى للعلامات الإثنتى عشرة فى دائرة البروج، متمركزة على صورة عربة الشمس مع تجسيد Helios إله الشمس فى صورة شخص: وكل علامة تحمل إسمًا بالعبرية. وقد تم تجميعها فى أربعة فصول استخدم مصطلح عبرى للدلالة عليها، وهى مصورة على شكل نساء شابات، تتميز كل منهن أيضا باسم عبرى يقابل أسماء الشهور الأربعة: نيسان، وتموز، وتشرى، وتفيث.

وتحتوى اللوحة الثالثة، فيما بين صورة لأسدين، سلسلة من نقوش مختصرة باليونانية تحمل أسماء المحسنين. . . ثم اسم محسن آخر . . . . يمكن إعادة تكوينه من نقش يونانى آخر مواز، مصحوب هذه المرة بمباركة مكتوبة بالآرامية: «ليحل السلام. . على أى شخص نفذ وصية فى هذا المكان المقدس» (Millar 1993:364).

***

الفصل الثالث

ثمانية عشر قرنًا من المعاناة اليهودية

فى الرؤية الصهيونية للتاريخ، كانت الجماعات اليهودية التى امتدت بعيدًا فيما وراء الشرق الأوسط، فى آسيا وأوروپا وفى أمريكا أخيرًا، طوال القرون التى تلت سقوط المعبد الثانى بالقدس ٧٠م، جماعات لا حول لها ولا قوة، ملاحقة وتخضع لاضطهاد متواصل. وكانت حجة منظرى الصهاينة من أمثال تيودور هرتزل، أن لا شىء سوى نقل اليهود إلى «وطننا التاريخى الذى نذكره دوما» فى فلسطين يمكن أن يُنهى «ثمانية عشر قرنًا من المعاناة» (Vital 1975:266) بيد أن الحقيقة أشد تعقيدًا من هذا بكثير. فالواقع أن هذه الأسطورة الصهيونية إهانة بالغة لحركية اليهود، وحراكهم وإبداعهم الكبير فى مواجهة مهمة شق طريقهم فى خضم تقلبات الأحوال التى ألمت بهم، وفى داخل الأشكال والأحجام المتغيرة للامبراطوريات المسيحية والإسلامية البازغة، والتى سادت طوال هذه الفترة التاريخية الطويلة، وقد استبعد سالو بارون، وهو واحد من أهم المؤرخين اليهود وأغزرهم إنتاجًا فى مطلع القرن العشرين (ويصل كتابه الذى يحمل عنوان تاريخ اليهود الاجتماعى والدينى إلى ١٨ مجلدًا) التناول الصهيونى باعتباره «بكائية حزينة».

هناك حقيقتان غير عاديتين تستحقان التأمل فى البداية. لماذا اختفى الفلاحون اليهود فعلاً بحلول سنة ١٠٠٠م، بحيث انخفضت أعداد «الشعب اليهودى» كثيرًا، وبحيث جعلته من أهل الحضر؟ (Johnson 1993:171) لماذا كان أكثر من نصف يهود العالم فى بداية القرن التاسع عشر يعيشون فى پولندا ـ ليتوانيا؟ (Hundert 1992:11).

هذان السؤالان يستدعيان سؤالاً آخر. فعلى مدى حوالى ٢٠٠٠ سنة، لم يتمكن

اليهود فقط من البقاء؛ ولكنهم نجحوا فى تحقيق فترات متواصلة من الرفاهية، ولكن مع مرور القرون، وبصورة متزايدة، أصبح إقبال اليهود على زراعة الأرض أقل. كان هذا الأمر واضحًا بشكل كبير فى أوروپا المسيحية التى منعت اليهود من امتلاك الأرض أثناء الفترة التى أطلق عليها المؤرخون «الإقطاعية» والتى اعتمد فيها الازدهار، وقبل كل شىء، على الإنتاج الزراعى. وهنا نصل إلى واحدة من أكثر الحقائق الصعبة وغير المفهومة، وذلك لأن هذه الحقبة من الزمن هى التى شهدت تطوير اليهود لشركة عالمية للتجارة لتقوم بمساعدتهم فى خدمة الإمبراطوريتين الدينيتين. . وهذا، سيعمل بدوره على استقرار وتطور المجتمعات اليهودية المبعثرة، وستجعل دينهم المميز لهم لا يمكن فصله عن دورهم الاقتصادى.

ويرى كارل ماركس أن بقاء اليهود منذ العصور الرومانية وحتى القرن التاسع عشر؛ اعتمد فى الحقيقة على دورهم الاقتصادى. وقد أغضب رأى ماركس هذا بعض الباحثين الحديثيين الذين قاموا باستبعاد رؤيته لأنه كان (مرتد)[1]: ومع هذا كان ادوارد جانز، أحد أساتذة ماركس عندما كان طالبًا فى جامعة برلين فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، هو الذى جادل بأن وحدة اليهود على مر العصور اعتمدت بشكل مؤكد على تحول اليهود إلى طبقة من التجار، أو على الأقل، كانوا تحت قيادة هذه الطبقة (Mendes-Flohr and Reinharz 1995:216).

ولا يمكن أن نتجاهل جانز بهذه السهولة، فقد كان مؤسس واحدة من أكثر جماعات الضغط الثقافية اليهودية المتنورة، التى تحظى باحترام كبير فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر. هذه الجماعة هى: ڤيرين، رابطة ثقافة و علم اليهود.

أخيرًا بدأت الدراسات اليهودية الحديثة تتوافق مع هذه الحجة. إذ إن الباحثين فى التاريخ الاقتصادى اليهودى، مثل بارون وكاهان وغيرهما، قد أسهموا فى التبصر المدهش بأنه لم يكن هناك طبقة تجارية يهودية فحسب أواخر العصر القديم، وإنما يحتمل أنها كانت بحد ذاتها حافزًا على اعتناق اليهودية، فى نفس الوقت الذى كان فيه الفلاحون اليهود يذوبون فى الريف «الوثنى الذى لم يلبث أن تحول إلى المسيحية ثم إلى الإسلام» فى وقت لاحق. ويبدو أن أعدادًا كبيرة من الفينيقيين والقرطاچيين قد اعتنقوا

الدين اليهودى «وجلبوا مهاراتهم التجارية» إلى داخل الجماعات اليهودية (Baron et al . 1975:21) والحقيقة، أن أبرام ليون، الذى كان قائداً لمجموعة اشتراكية يهودية صغيرة فى بلچيكا تحت احتلال النازى، والذى مات فى أوشڤيتز، كتب أول دراسة رائدة فى هذا المجال، حتى على الرغم من أنها لم تلق الاعتراف من الباحثين فى العصر الحديث[٢].

ولا يمكن فهم العداوة تجاه اليهود فى عالم العصور الوسطى، ونجاحهم كذلك عبر العصور، دون أن نأخذ فى الحسبان دورهم الاقتصادى. ويكاد يكون التحرش الدينى مختلطًا بهذا على الدوام. وبطبيعة الحال، كانت اليهودية عند كل من المسيحية والإسلام فى درجة أدنى. بيد أن كلا الديانتين كانتا على استعداد دائم للبحث فى كتبهما المقدسة لإيجاد الأسباب التى تدعوهما إلى التسامح مع اليهود وحمايتهم. وعادة ما كانت فائدة اليهود لمجتمعاتهم تتجاوز تجديف اليهود ضد يسوع أو محمد؛ إذ إن دورهم الاقتصادى الدولى، الذى زرع وحصد على مدى أجيال كثيرة، قد أرسى طاقة لا تبارى فى العائلات اليهودية. فلم يحول بعض اليهود إلى قوم يتحدثون عدة لغات فحسب، مع كل المهارات الإضافية التى ينطوى عليها هذا، ومنها المعرفة التفصيلية بالأجزاء البعيدة والنائية فى العالم، وإنما وضعهم غالبًا فى طليعة التقدم العلمى. وفى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى كان اليهود معروفين غالبًا كتجار وأطباء، كذلك لعب بعض اليهود دورا ديبلوماسيًا كبيرًا:

«خدم التجار اليهود باعتبارهم وسطاء مهمين فى عالم انقسم بين الإسلام والمسيحية ... وبحلول القرن التاسع كانت العبرية قد صارت لغة عالمية مهمة»[*] (Baron et al. 1975:28-9).

(*) أوراق الجنيزا، وهى أكبر دليل وثائقى على أحوال اليهود فى العالم الإسلامى (فيما بين القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى والسابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى) تثبت أن اليهود فى غالبيتهم لم يكونوا يعرفون العبرية. والوثائق نفسها مكتوب معظمها باللغة العربية بحروف عبرية، أو بحروف عربية. ومن ناحية أخرى، فإن يهود أوروپا لم يستخدموا العبرية سوى فى المسائل الدينية، وعرف يهود حوض الراين لغة اليديتش التى كانت من اللغات الجرمانية مع خليط من كلمات وعبارات عبرية. وعلى أية حال، فإن أحوال اليهود الأوروپيين آنذاك، فى ظل الهوس والتعصب الكاثوليكي، والذى أذكت الحروب الصليبية نيرانه، لم يكونوا فى وضع يسمح لهم، أو للغتهم، بهذا الدور العالمى المزعوم، بدليل أن يهود أوروپا فى تلك الفترة لم يبرز بينهم اسم واحد فى أى مجال، باستثناء اليهود الذين عاشوا تحت حكم المسلمين فى الأندلس ـ المترجم.

وفى الحقيقة، كان الحكام يحتاجون بشدة إلى الجماعات اليهودية فى بلادهم. وقد حظوا بما هو أكثر من التسامح؛ فقد كانت لهم مكانة معترف بها فى مجتمع العصور الوسطى، ويعنى هذا أنهم تمتعوا بفترات طويلة من الاستمرار ودرجة من الاستقلال القانونى. وبطبيعة الحال، عندما كانت تسوء الأمور - الأمراض، الأوبئة، نقص المحاصيل، التعرض لفساد البلاط المستشرى، أو حاجة أحد الحكام لفرض مزيد من الضرائب على الفلاحين لمغامرة خارجية، يمكن أن تؤدى بدورها إلى الاضطراب الشعبى - كان يمكن أن يصير اليهود كبش فداء. بيد أن هذه لم تكن حالة دائمة، حتى لو كانت هذه إمكانية موجودة على الدوام.

وأخيراً بدأت الشبكة التجارية اليهودية القديمة فى العصور الوسطى تنهار عندما برزت أوروبا الغربية ببطء باعتبارها مركز القوة الاقتصادية التى سوف ترسى أسس بناء الإمبراطورية العالمية والرأسمالية الصناعية. إذ إن الدول القومية الجديدة فى غرب أوروبا خلقت أسواقًا عظيمة جديدة أنتجت تجارها العاملين فى خدمتها. وفى البداية، كانت تلك فترة من معاداة السامية الكثيفة بينما تم إخراج اليهود من الأمم البازغة ومن أسواقها. وهنا بدأت رحلة اليهود الطويلة إلى أوروبا الشرقية، ولاسيما پولندا - ليتوانيا، حيث استطاع اليهود الاستمرار فى دورهم الاقتصادى المهم. ولكن كان هناك آنذاك أيضًا إحياء يهودى ملحوظ، غمس الأقلية اليهودية فى أوروبا الغربية مباشرة فى مقدمة الحداثة، هذه الفترة أسىء فهمها إلا أنها جوهرية لفهم كل من رفض اليهود وتوافقهم النهائى مع العالم الحديث. واللحظة الحرجة هى بداية القرن السابع عشر. إذ إنها اللحظة التى بدأت فيها الخرافة والدين اللذان ميزا العصور الوسطى يخليان مكانهما للعلم. وهى اللحظة التى بدأت فيها المسيحية فى أوروبا الغربية - والتى كانت قد انكسرت بالفعل بسبب حركة الإصلاح الدينى - تراجعها الطويل المدى. إنها فجر التنوير. إنها أيضًا اللحظة التى شهدت النهضة الراقية عندما قام اثنان من أعظم فنانيها، الشاعر والكاتب المسرحى شكسپير فى لندن والرسام رامبرانت فى أمستردام، بإسهامهما الخاص فيما يسمى أحيانًا «المسألة اليهودية». ولكى أساعد على فهمنا لتلك اللحظة، فإننى سوف أنهى هذا الفصل باستدعاء شاهدين حيويين، شيلوك الشخصية التى ابتدعها شكسپير للتاجر اليهودى، وشخصية اليهودى الحقيقى الذى صوره رامبرانت، الذى كان على نفس الدرجة من الأهمية، وهو منسا بن إسرائيل.

لقد أوضح شكسبير ورامبرانت التناقضات التى واجهتها الجماعات اليهودية فى عالم يتغير بسرعة ، على حين بدأت الرأسمالية البازغة حديثًا تهز النظام القديم من أساسه. وترى الصهيونية عالمًا جامدًا، لا يتغير ومعاد لا يجد اليهود فيه لأنفسهم السلام - سوى بالتقهقر إلى مكانهم الخاص، المغلق، الّذى لا يقدم هو أيضا السلام بطبيعة الحال. ومع هذا فإن الحداثة والتفكير الحديث قد أظهرا أن التاريخ ديناميكى، حيث إن موافقتنا الاجتماعية والسياسية ، سواء كانت معادية أو غير ذلك، والظروف التى تخلقها، تخضع دائمًا للتحدى والتغيير، وكما قال ماركس وإنجلز فى «المانفستو الشيوعى» سنة ١٨٤٨م، مع قدر قليل من الاستعارة من شكسبير :

«كل ما هو صلب يذوب فى الهواء، وكل ما هو مقدس مدنَّس، والإنسان مضطر فى النهاية أن يواجه بحواس متزنة، ظروف حياته الحقيقية، وعلاقاته مع البشر.»

فى العصور الوسطى كان اليهودى الاقتصادى يدعم أحيانًا اليهودى الدينى وكان يحط من شأنه أحيانًا أخرى. وقد وعدت الحداثة بالقضاء على التمييز الأول وأتاحت للضمير الفردى المرونة لكى يحدد معنى الثانى، إذا ما كان له أى معنى. على هذا الأساس، كان لا بد لليهود وغير اليهود أن يكتشفوا «إنسانية مشتركة». وحتى إذا ما كان الوعد قد تحقق جزئيًا فقط، فإن علينا أن نواصل النضال من أجل تحقيقه.

الدور الاقتصادى اليهودى فى العصور الوسطى

لكن دعنا أولاً ننظر بمزيد من التمعن إلى الدور الاقتصادى اليهودى الباكر. إحدى خصائصه، التى تجاهلتها بصفاقة الكتابات التاريخية الصهيونية والأوروبية الغربية على السواء، تمثلت فى أن ديناميته كانت مدفوعة غالبًا بالنجاح الباهر الذى حققته الإمبراطوريات العربية الإسلامية من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر. تلك التى حملت الحضارة والعلم والفن والتطور التكنولوچى، غرب حضارة الهند وحضارة الصين - مع التفاعل معهما - من انهيار الإمبراطورية الرومانية إلى النهضة فى أوروپا الغربية. والواقع أنه من وجهة نظر يهود العالم الإسلامى، الذين كانوا يسافرون فى رحلات إلى قلب الأراضى الأوروپية، كانت معظم أوروپا تبدو مشهدًا مؤسفًا للتخلف الصادم.

فقد أرسل خليفةُ قرطبة (العربى المسلم) إبراهيمَ بن يعقوب لتفقد الاحتمالات التجارية والدبلوماسية فى وسط أوروبا فى منتصف القرن العاشر فقال :

«ليست لديهم حمامات، ولكنهم . . . يبنون موقداً حجريا يصبون عليه الماء حين يسخن . ويمسكون حزمة من الحشائش بأيديهم ويدفعون البخار حول أجسادهم . ثم تتفتح مسامهم، وتتخلص أجسادهم من كل الزيادات» .

وكما يلاحظ نورمان ديفيز فى كتابه «History of Europe» ، فإن هذا الدبلوماسى اليهودى من إسبانيا المسلمة ينظر إلى الداخل الأوروبى بكل الفضول الذى يقوم به أنثروبولوجى ببحث عن قبائل پاپوا (1996:325) .

وبعد قرنين من الزمان، يكتب يهودى آخر، هو بنيامين الطليطلى رحلته ليصف ملاحظاته عبر أوروبا والشرق الأوسط . وقد اشتهرت بأنها أحسن كتاب رحلات من العصور الوسطى، وسرعان ما تمت ترجمتها إلى كل اللغات الأوروبية تقريبًا لكى تصبح المصدر الأول للباحثين فى القرن السادس عشر .

كانت القسطنطينية، أكبر مدينة فى العالم آنذاك، هى التى خلبت عقله بشكل خاص . كان يعيش بها حوالى ٢٥٠٠ يهودى . ووجد حرفيين يعملون فى صناعة الحرير وتجاراً من كل نوع . وكان كثيرمنهم أغنياء، ولكن لم يكن مسموحًا لأحد منهم بأن يمتطى الخيل فيما عدا الراباى (الربى) سليمان المصرى، الذى كان طبيب الامبراطور . وكانت المحاكم اليهودية مستقلة . والأعمال العدائية ضد اليهود ممنوعة . و المعابد تستظل بحماية قانونية، ولكن لم يكن مسموحًا ببناء معابد جديدة . وكان الاحتفال اليهودى بعيد الفصح يخضع لتغيير موعده حتى يأتى دائما بعد عيد الفصح المسيحى . كانت هناك عداوة شعبية ضد بعض اليهود، ولكن ربما كان بنيامين مندهشًا من سببها : «إنهم دباغو جلود ويصبون مياههم القذرة خارج بيوتهم» . ومثلما وجد الدباغين فى القسطنطينية وجد حرفيين يهوداً مهرة فى كل مكان ـ صانعى زجاج فى حلب، نساجى حرير فى طيبة، صباغين فى برنديزى (Johnson 1993:169-70) .

وشهادة بن خردايه، الذى كان المسئول عن البريد فى الخلافة العباسية فى منتصف القرن التاسع، تعتبر على نطاق واسع أفضل دليل لدينا عن مجموعة التجار اليهود العالميين المعروفين باسم «الرادانية» . فقد كانوا يتاجرون فوق مساحات شاسعة من

«أراضى الفرنج» (تقريبا فرنسا اليوم)(*) حتى بحر قزوين (على الشاطئ الشمالى لإيران اليوم). وكانوا يتحدثون العربية، والفارسية، واليونانية، «والإفرنجية»، والإسپانية واللغات السلاڤية. وكانت هناك مستعمرات يهودية مبعثرة فى المنطقة التجارية لتنظيم تبادل منتجات الغابات والخيول والجلود والسيوف والعبيد من كلا الجنسين من الغرب بمواد الرفاهية القادمة من الشرق، وكميات كبيرة كذلك من النقود العربية الفضية أساسًا. وقد اشتهر اليهود بتجارة الفضة وتشغيلها عبر قارة أوروپا. وقد خولت الملكة چيزيلا المجرية اثنين من عمال السكة اليهود لسك عملات فضية لها. وبعد ذلك بمائة سنة كان اليهود يديرون دار سك النقود فى پولندا الوليدة وينتجون صحونا فضية رقيقة تحمل اسم الحاكم الپولندى بحروف عبرية إلى جانب اسم الصناع. (Abramsky et al.1986:15-8).

وقد أثر الازدهار اليهودى والنفوذ السياسى لهم آنذاك على امبراطورية الخزر، التى كانت قد تطورت على امتداد ساحل بحر قزوين. **وإذ وجدت النخبة الخزرية الوثنية نفسها محصورة بين الخلافة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، اعتنقت الدين اليهودى أواخر القرن التاسع كوسيلة للحفاظ على استقلالها السياسى، ولكى تندمج فى الشبكة التجارية اليهودية.** (Abramsky et al.1986:16)[٣].

الاستقلال الذاتى اليهودى
والحقوق فى مجتمع العصور الوسطى

تحدى الباحث الأمريكى فى اللاهوت اليهودى ديڤيد بيال بشكل واع الرأى القائل بأن الجماعات اليهودية كانت بلا حول ولا قوة فى مجتمع العصور الوسطى. وحجته أن المبدأ المعلن فى أواخر العصور القديمة على يد الحاخام البابلى صمويل الذى عاش فى القرن الثالث وكان مقربًا من البلاط الملكى الفارسى، والذى يقضى بأنه فى مقابل الاعتراف بالسلطة السياسية للوثنيين ينبغى أن يحصل اليهود على استقلال ذاتى داخل

(*) استخدم العرب والمسلمون مصطلح الفرنج للدلالة على أوروپا الغربية عموما، كما أنهم أطلقوا على الأراضى البيزنطية وسكانها (ومنهم اليونانيون) اسم «الروم» ـ المترجم.

الجماعة على المستوى القانونى والسياسى، بحيث أرسى سابقة راسخة بعيدة الأثر (1986:54-6). وهو ما يعنى أن اليهود، بدلاً من أن يصيروا «شعبًا منبوذًا على الهامش الخارجى للمجتمع فى كل من العالم المسيحى والعالم المسلم، سكنوا منطقة قريبة من مراكز السلطة. . . » (Biale 1986:59).

ويجادل بيال بأن المكانة القانونية لليهود فى إسپانيا وفرنسا وألمانيا وپولندا، كانت أفضل كثيرًا من الأقنان، وفى كثير من الأحيان كانت مقاربة لمكانة النبلاء والطبقة البورجوازية. ومفهوم «Servi Camerae» الذى يعرف اليهود بأنهم «أقنان الغرفة الملكية» (Biale 1986:66) يحيط به الغموض. فقد كان اليهود يدفعون الضرائب إلى الملك فقط، فى مقابل أن يضفى عليهم بعض الامتيازات المعينة. ومن ناحية أخرى كانوا يعتمدون عليه وعلى نزواته.

وقد اعتبر القانون الألمانى الصادر فى القرن الثالث عشر Sachsenpiegel، اليهود أناسًا أحرارًا. وهذا أسبغ عليهم حقوقا محددة فى مجتمع إقطاعى: حرية العبادة وحرية الحركة بشكل محدد. وكان هذا اعترافًا قانونيًا بالإسهام الذى قدمه اليهود فى مجال التجارة التى كانت حرية الحركة ضرورية لها. وقد ميز هذا بصراحة ووضوح بين اليهود وأولئك الذين كانوا مربوطين بالأرض، وجعل مكانة اليهود أقرب إلى مكانة الفرسان، الذين كان لهم الحق فى أن يعيشوا حيثما يرغبون.

ومع هذا كانت الحماية السياسية لليهود فى العصور الوسطى تفتقر إلى الاتساق، لاسيما فى أوقات الاضطراب الشعبى عندما تكون السلطات نفسها تحت وطأة الهجوم أو عندما تفقد سيطرتها على الشئون السياسية. وقد فشلت فشلاً ذريعًا فى حمايتهم من المذابح التى جرت أثناء الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦م، وعلى الرغم من أن التحذير الذى أطلقه سان برنارد من كلاريڤو لأتباعه، باعتباره الزعيم الروحى للحملة الصليبية الثانية فى أربعينيات القرن الثانى عشر، بعدم تكرار ذلك، وقد تمت الاستجابة له (Chazan unpublished: ch.6,p.11). على أية حال، فإنه بينما كان التهديد بالعنف ضد اليهود احتمالاً واردًا على الدوام، فإن اليهود لم يكونوا ببساطة ضحايا لاحول لهم ولا قوة:

«الصورة السائدة عن اليهودى فى العصور الوسطى هى صورة شهيد يموت بلا مقاومة، وهذه رؤية خاطئة . . . إذ إن اليهود لم يكونوا مجرد أشياء سلبية . . . فقد حملوا السلاح دفاعًا عن أنفسهم فى أزمنة كثيرة وفى أماكن عديدة . . .» (Biale 1986:72) .

وفى غرب ووسط أوروبا، كان قانون السلاح Waffenrecht يسمح لليهود بحمل السلاح، بل إنه كان مسموحًا لهم أن يخوضوا المبارزات . هذه الحرية غير العادية والمعروفة على نطاق ضيق، كانت تطرح معضلة محيرة أمام السلطات الدينية اليهودية . هل كان ينبغى لليهود أن يحملوا السلاح يوم السبت؟ يورد بيال عدة أمثلة بطولية عن المقاومة اليهودية المسلحة أثناء الحملات الصليبية . وبالإضافة إلى ذلك، يلاحظ أن اليهود لم يخدموا فقط فى جيوش العصور الوسطى لملوك فرنسا الكارولنجيين، وإنما صاروا فى بعض الحالات خبراء فى صناعة المعدات العسكرية . إذ إن بعض اليهود المطرودين من إسپانيا والبرتغال فى القرن السادس عشر جلبوا معهم إلى تركيا مهارات ساعدت الأتراك على صناعة «المدفعية والبارود وكرات المدافع، وغير ذلك من الأسلحة» (Biale 1986:73-6) .

بينما سيكون من الحماقة لى أن أخسر ميزان التاريخ أكثر مما ينبغى، لكى أزعم أن اليهود لم يكونوا عرضة للهجوم فى تلك الفترة، قدم بيال الدليل الذى يتطلب منظورًا أكثر تدقيقًا .

لقد كانت الحروب الصليبية نقطة فارقة، وقد أسماها ليون **«تعبيرًا عن إرادة التاجر المسيحى لشق طريق إلى الشرق»** (Leon 1970:137). ومن المؤكد أن الصراع بين أوروپا المسيحية والعالم المسلم والذى وصل ذروته بالهزيمة النهائية للمسلمين فى إسپانيا القرن الخامس عشر، قد ازدادت كثافته فى ذلك الوقت . وهى أيضًا علامة على بداية طرد اليهود من الدول القومية الجنينية فى أوروپا الغربية .

طرد اليهود من غرب أوروپا

فى انجلترا شكلت موجات من حوادث معاداة السامية خلفية عملية الطرد فى سنة ١٢٩٠ : مزاعم خطف اليهود للأطفال المسيحيين لقلتهم فى طقوس دينية؛ مذابح

اليهود فى يورك . والتنويعات على موضوع أن اليهود قتلة المسيح ، غذت الهيستيريا التى استحوذت على الجماهير ـ وكون أن الخبز الذى يُعد للاحتفال اليهودى بعيد الفصح يحتاج إلى بديل عوضًا عن دم المسيح كان يشكل واحدة من أشد خرافات العصور الوسطى خسة . ومع هذا فإن «الافتراءات ينبغى النظر لها على خلفية من عمليات إقراض اليهود الأموال بالربا» (Johnson 1993:210-11) .

كان اليهود جماعة من المرابين والصيارفة . وفى أعلى المستويات كان اليهود صيارفة رسميين للملك . وكانت خزانة اليهود هناك تشكل قسمًا من الخزانة الكبرى للمملكة (Roth 1949-30) .

كان الصيارفة الملكيون اليهود ، أحد الأسباب العديدة لاستياء البارونات ملاك الأراضى الإقطاعيين من الملك . وقد وصل الصراع بين البارونات والملك فى بداية القرن الثالث عشر إلى أوجه فى وثيقة الميثاق الأعظم «الماجنا كارتا» سنة ١٢١٥م ، التى تعتبر إحدى الوثائق العظمى المؤسسة للديمقراطية الإنجليزية .

ووثيقة «الماجنا كارتا» ، التى اشتهرت بما قررته من أنه لا يجوز سجن أى رجل حر أو نفيه «سوى بحكم قانونى بعد محاكمة من أقرانه» ، كانت فى جوهرها محاولة لفرض نظام وطنى مؤسسى وجنينى على العلاقات بين الملك والبارونات (Holt 1992:188-9) .

وقد تضمنت «الماجنا كارتا» عبارتين يهوديتين ، تناولتا الإعفاء من الديون . وببساطة شديدة ، خفضت العبارتان كمية النقود التى كان يجب على أسرة المدين دفعها ، بإلغاء فوائد الدين . وكانت تلك ضربة موجهة إلى كل من اليهود والملك ؛ لأنه إذا مات الدائن اليهودى كان الدين يؤول إلى الملك . وفى الوقت نفسه ، طبعًا ، نصت الفقرتان على التخفيف عن المدينيين المعدمين .

وكما يلاحظ روث :

> « هاتان الجملتان بما يبطنهما إحساس جارف بالظلم ، تعطيان فكرة عن العداء الذى كان ينظر به إلى الأتباع اليهود الملكيين فى ذلك الحين »(1949:36-7) .

وقد لاحظ سالو بارون مغزى الإطار الوطنى الجديد الذى ظهرت بداخله الشكوى الدينية ـ الاقتصادية ضد اليهود :

«لقد أثر الانشغال بالمشكلة اليهودية بعمق على التفكير الوطنى الإنجليزى . . . ويعتبر إدوارد الأول بحق الملك الذى شهد حكمه ذوبان السلالات الفرنكو ـ نورمانية ، والأنجلو ـ سكسونية نهائيا فى أمة إنجليزية جديدة مما خلق قومية متماسكة تمامًا» (1996:245n.40) .

وفى الوقت نفسه ، فإن «أول صيارفة مسيحيين حقيقيين» ، مثل فرسان الهيكل ، كانوا يحلون محل اليهود فى أدوارهم المالية الكبرى (Johnson 1993:213) .

وقد تم جمع البحث المتميز والتحليل الممتاز للاقتصاد اليهودى الإوروبى فى تلك الفترة على يد جوناثان إسرائيل . وهو يشير إلى عوامل اقتصادية كامنة سبقت موجات طرد اليهود فى جميع أرجاء أوروپا الغربية :

«اليهود . . . تم عصرهم اقتصاديًا إلى أبعد حد بالتطور العام للتجارة والصناعة والصيرفة المسيحية . فقد أراد التجار والحرفيون المسيحيون ألا يكون لهم منافسين من اليهود ، عندما صاروا أقوياء بالدرجة الكافية ، وكان هدف نقاباتهم أن تستأصل اليهود من الحرف والتجارة» (Israel 1985:27) .

ومحاكم التفتيش الإسبانية ، عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، تشكل أكبر رمز دموى وعنيف فى عمليات طرد اليهود . ومرة أخرى نشهد خلط الهويات القومية الجديد ، بالضراوة الدينية ، والاقتصاديات ـ الإسپانية الجديدة التى سوف تغزو أجزاء من أمريكا بتجارها فى محاولة للسيطرة على طرق التجارة الأطلنطية الجديدة المزدهرة ، وتحدد هويتها برفض تراثها الإسلامى واليهودى على السواء .

وثمة نموذج عام من الإرهاب ساق معظم اليهود باتجاه الشرق . وفى البداية كانت القوة الدافعة من المدن الجديدة تحت قيادة صغار القساوسة . ففى إيطاليا حلت مؤسسات مدنية مسيحية جديدة «monti di peita» محل البنوك اليهودية العاملة فى القروض (Israel 1985:7,9) . ثم ، عندما انفجرت حركة الإصلاح الدينى ، قام مارتن لوثر زعيمها الرئيسى ـ والذى كان متعاطفًا مع اليهود فى البداية ـ بالإنقلاب عليهم فى غضب أعمى ، عندما أيقن أنهم لا يأبهون بمجادلاته .

ومنذ ذلك الحين فصاعداً أدت الحركية المنطلقة لحركة الإصلاح الدينى إلى إذكاء نار العداء الدينى والاقتصادى ضد اليهود فى شتى أرجاء القارة.

وصار الدور الاقتصادى اليهودى التقليدى عامل استفزاز بشكل مطرد. فبين سنتى سنة ١٦١٤- ١٦١٥م، قام التجار اليهود فى فرنكفورت بتوجيه ضربة لنقابات صناعة النسيج اللوثرية باستيراد أقمشة أرخص من هولندا وانجلترا. وألهبت الخطب اللوثرية الغضب الشعبى، الذى اتخذ من اليهود كبش فداء لتدهور الأحوال الاقتصادية فى المدينة، وأدى إلى أسوأ حوادث شغب فى تاريخ المدينة (Israel 1985:68).

وفى كل مكان تعرضت الأنشطة الاقتصادية اليهودية للبتر، ولم يترك لهم سوى عمليات محدودة لإقراض الأموال بالربا للفقراء (Israel 1985:23).

وقد برهنت حركة الإصلاح الدينى المضادة على ضراوتها بدرجة مماثلة فى العداء لليهود. إذ إن حركة الإصلاح الدينى كانت قد أثارت جدلاً أساسيًا حول معنى كل من العهد القديم والعهد الجديد فى الكتاب المقدس. وفى البداية ـ خاصة فى إيطاليا ـ أسبغت روح عصر النهضة على الجدل سمة الصراحة والوضوح، وسمحت بمشاركة الباحثين اليهود. وحتى البابوات والكرادلة بدأوا يهتمون بالأدب العبرى. ولكن كان أمراً مسلمًا به أن اليهود سوف يخسرون الجدل، وأنهم سوف يتحولون إلى المسيحية عقب ذلك. وتفجر الذعر عندما بدأ أحد الرهبان الفرنسيسكان يتفق مع اليهود، وينكر المسيح ويتبنى الحجج اليهودية (Israel 1985:18). وتم حرقه مقيداً على خازوق فى روما. وانتشرت كلمة استشهاده فى كل الجماعات اليهودية فى أوروبا. وبعد ذلك مباشرة، أى فى سنة ١٥٥٣م، حرَّم البابا التلمود، الذى هو أساس التراث اليهودى بعد الكتاب المقدس وأساس الشريعة اليهودية. وصدر الأمر بإحراق الكتب اليهودية عامة، وفُرض على اليهود التقوقع فى الجيتوهات، وتلا ذلك طردهم. وقد تم حصار «المارانو»، وهم اليهود البرتغاليون الذين أجبروا على اعتناق المسيحية ثم عادوا فيما بعد إلى اليهودية، وعُذبوا وحرقوا أحياءً. (Israel 1985:18-19).

وبنفس الطريقة، بدا أن الأمم البازغة كانت تحدد هوياتها بالتخلص من اليهود، وأن المخاوف اللاهوتية التى كشفتها حركة الإصلاح الدينى كانت عميقة الجذور، جعلت

كلا من الجانبين ـ فى الانقسام الذى حل بالمسيحية (البروتستانت والكاثوليك) ـ يقف متحصنًا بمشاعر العداء لليهود. ومهما كانت درجة التدمير التى حاقت بالجماعات اليهودية فى أوروبا الغربية من جراء ذلك ـ وكان الخروج الضخم باتجاه الشرق هو الرد الوحيد المتاح ـ فإن هذه المرحلة لم تستمر سوى فترة قصيرة للغاية. إذ كان هناك إحياء دينى واقتصادى يهودى يأخذ مجراه، على حين لم تجد أزمة حركة الإصلاح الدينى خاتمة مرضية عندما أخذ معنى الحداثة فى أوروبا الغربية يتخذ شكلا أكثر وضوحًا. ولكن قبل اكتشاف هذا، فإننا بحاجة إلى الملاذ اليهودى الجديد فى پولندا.

يهود پولندا

فى سنة ١٥٠٠م، كان هناك حوالى ثلاثين ألف يهودى يعيشون فى پولندا. وفى سنة ١٥٧٥ كان الرقم قد زاد أربع أو خمس مرات ليصل إلى ما يتراوح بين مائة ألف ومائة وخمسين ألفًا، وهو عدد ربما زاد قليلاً على عدد اليهود الإسپان عشية طردهم. وقد انجذب اليهود إلى شرق البلاد، التى كانت أقل كثيرًا فى تطورها، وحيث يتمتع أعيان ملاك الأراضى بسيطرة مطلقة. وكان المطلوب بصفة خاصة القدرة على إدارة الضياع الزراعية وتحصيل الرسوم وإدارة تجارة المسافات البعيدة. فقد كانت المنطقة فى بداية الاستفادة من شهية أوروپا الغربية المفتوحة على غلال پولندا الرخيصة، والتى تخدمها شبكة الأنهار فى شرق پولندا على نحو جيد. وبدأ معظم المهاجرين اليهود الجدد يستوطنون فى العديد من المدن الصغيرة والقرى المملوكة لملاك الأراضى الكبار هؤلاء، مما خلق آلافا من الجماعات اليهودية الصغيرة (Israel 1985:27-9) وتسببوا فى ظهور ما صار معروفًا باسم نظام الأرندا Arenda system.

هذا النظام فى أساسه يصف الترتيبات التى بمقتضاها كان النبلاء البولنديون يعهدون بضياعهم الزراعية إلى اليهود لإدارتها. وكان معنى هذا التطور غير العادى أن اليهود كانوا يديرون الضياع الزراعية بالمعنى الحرفى للكلمة، والطواحين، ومعامل التقطير:

«هكذا كان اليهود هم الوكلاء الأساسيين. . . فى حركة مرور شاسعة شملت أوروپا بأسرها. . . لأنهم بينما كانوا يبيعون منتجات الأرض لكى تشحن إلى هولندا وما وراءها، كانوا هم الذى يقومون بتوزيع المنسوجات الغربية، والملح، والنبيذ،

ومواد الرفاهية مثل التوابل والمجوهرت . . . وكان هناك أيضا اشتغال اليهود على نطاق واسع بحرف مثل صناعة الصابون، ودباغة الجلود، وصناعة الزجاج والفراء» (Israel 1985:30) .

أدى هذا الدور الاقتصادى المتمايز إلى تطور **يهودى سياسى** فريد، ردد صدى مرحلة باكرة من الحياة السياسية لليهود فى أوروپا. **فقد تم** السماح بعقد مجلس سنوى، عرف باسم «مجلس الأراضى الأربع»، يكون له حق الإشراف على الشبكة الكاملة للجماعات اليهودية فى جميع أنحاء پولندا، كان يدير أمور التعليم، ويعالج الأمور الدينية، ويجمع الضرائب، ويتناول مسائل التخفيف عن الفقراء، ويدير العلاقات مع مجالس المدن الپولندية والكنيسة الكاثوليكية. وفى البداية كان هناك إحساس طاغ بالتحرر اليهودى. فلم يكن هناك فى أى مكان آخر بأوروپا أى شىء يقارن بما وصل إلى أن يكون استقلالاً ذاتيًا داخليًا لليهود وحكما ذاتيًا. والواقع أن هيبة مجلس الأراضى الأربع وصلت إلى درجة أنه كان يتدخل أحيانًا فى شئون الجماعات اليهودية خارج پولندا (Israel 1985:185-8) .

وعلى أية حال، كان هناك جانب مشئوم فى هذا التطور. فهناك نموذج مثير فى العلاقات اليهودية مع حكام الأراضى التى استقروا عليها، وهو نموذج كان لا بد من كسره لتحقيق التحرر النهائى لليهود. وهو يرجع بأصوله إلى زمن الإسكندر الأكبر، ويستمر حتى اليوم مع الاستيطان الصهيونى فى فلسطين. فقد باع اليهود مهاراتهم وخدماتهم للحاكم فى مقابل درجة من الاستقلال الذاتى ـ تقليديًا،حماية ديانتهم. وعلى أية حال، فإن الخدمات المقدمة كانت تنطوى أحيانا على وسائل قهرية لاستغلال الفقراء.

وهناك مشابهات مثيرة بين نظام الكليروخوس فى مصر البطلمية (انظر الفصل الثانى) ونظام الأرندا فى پولندا العصور الوسطى. والواقع أن هناك أيضا تشابها مع النظام الصهيونى الذى يحمى المصالح الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط فى مقابل دعم استقلال الدولة اليهودية، وهو ما يضرب بجذوره فى الاستعمار الصهيونى للأرض الفلسطينية بدوره. وسوف نعود إلى هذه المناقشة فى الفصول اللاحقة، **ولكن فى الوقت نفسه ينبغى لنا أن نلاحظ أن الحرية اليهودية كانت دائمًا متوافقة مع «دور الوسيط اليهودى» الذى تم تأسيسه.**

ومن المؤكد أن الكتابات التاريخية اليهودية البولندية كانت على صواب عندما وصفت نظام الأرندا بأنه «يشبه السماء بالنسبة لليهود، والجنة بالنسبة للنبلاء، والجحيم بالنسبة للأقنان» (Abramsky et al.1986:3). وعلى حد تعبير أحد كبار الربيين في بولندا القرن السابع عشر، وهو جويل سيركس: «**كان الخطر عظيمًا من صياح الأغيار (غير اليهود) في معظم الأماكن، الذين يشكون من أن حكم اليهود عليهم يشبه حكم الملوك والأمراء**» (Levine 1991: 67).

في سنة ١٦٤٨م انفجرت أوكرانيا، إذ كان أكثر من نصف الضياع المزروعة هناك تدار بالأرندا اليهودية لصالح ملاك الأرض البولنديين الغائبين (ليفين ١٩٩١ : ٦١) وقد انتفض الفلاحون الأوكرانيون، الذين قادهم شميلنيسكي، وهو من صغار النبلاء، وساندهم القوزاق وتتار شبه جزيرة القرم، وكانت انتفاضتهم ضد الحكم البولندي ونوابه من اليهود. وكان النبلاء البولنديون هم هدف هذه الانتفاضة، ومعهم رجال الكنيسة الكاثوليك واليهود الذين كانت أعدادهم أكثر من هؤلاء وهؤلاء، ولذلك تحملوا أفدح الخسائر. وتم قتل الآلاف من اليهود، وعلى الرغم من أن التقديرات تختلف، فإن هناك اتفاقًا على أن حوالي عشرين بالمائة من اليهود قضوا نحبهم (Abramsky et al. 1986: 5).

وفي كل مكان بدأ نظام الأرندا في الجمود، وغاص الإقطاع البولندي في الضمور الذي مهد الطريق لتقسيم بولندا بين كل من روسيا وبروسيا والنمسا في نهاية القرن الثامن عشر.

وبدأ الفقر المدقع واليأس، اقتصاديًا وروحيًا في آن واحد، يضرب اليهود الذين يعيشون في المدن الصغيرة والقرى، وهو ما كانت عليه أحوال الفلاحين البولنديين تقريبًا. وقد احتفظت لنا صفحات عديدة من البولين[٤] Polin بالحالة التي سادت في تلك الأوقات، وسوف نرى في الفصل السادس كيف ساعد هذا التاريخ في تشكيل ظهور سياسات الحداثة في الحياة اليهودية شرق أوروبا في القرن التاسع عشر.

وعقب مذابح أوكرانيا مباشرة، بزغت الحركات اليهودية الماشيحانية، مثل حركة شابتاي زفي[٥]. كذلك كانت للحركة الإحيائية اليهودية الحسيدية أصولها التي ترجع

إلى تلك الفترة (Abramsky et al. 1986: 5) . كما بدأت هجرة جديدة، ولو أنها محدودة، تجاه الغرب ، خاصة حينما بدا أن الاقتصاد التجارى اليهودى يمرُّ بعملية إحياء .

التحرر اليهودى فى غرب أوروپا

وقد تجلى الاحتقان الذى عانته حركة الإصلاح الدينى فى الحروب الدينية فى الداخل وفيما بين البلاد فى جميع أنحاء القارة . وكان الغضب العارم ضد السامية على كلا الجانبين [الپروتستانت والكاثوليك] قد خمد وبدأت تظهر على السطح مبادرات مستقلة لإعادة الاعتبار لليهود . وفى بوهيميا بحلول سنة ١٥٧٧م . وفى براج بصفة خاصة، أعيد الاعتبار لليهود وحافظت الجماعات على نموها . وقد عكس هذا جزءًا من التراث «البوهيمى»، المتشكك فى اليقين الداخلى لكل من الپروتستانتية والكاثوليكية (Israel 1985: 40)، ولكنه عكس أيضًا دور براج فى نظام التجارة العالمى المتغير، وأهمية الحرف اليهودية فى صنعة المجوهرات والفضة والذهب . وفى غضون أربعين سنة، صارت براج أكبر مركز يهودى حضرى فى أوروپا المسيحية خارج روما .

كانت المواقف ضد اليهود فى حال من الفوضى العارمة . والبندقية ترمز إلى هذا . فمن ناحية، كان الجيتو فى مدينة البندقية محاطًا بالأسوار العالية، وكانت البوابات تغلق من الغروب إلى الفجر، حتى تتأكد الكنيسة والدولة من أنه لا يوجد اتصال بين اليهود والمسيحيين فى المساء أو فى الليل ! واليهودى الذى يضبط خارج الجيتو ليلاً دونما تصريح خاص كان يتم القبض عليه . ومن ناحية أخرى، كان مجلس التجارة البندقى فى سبعينيات القرن السادس عشر يصرُّ على أنه لايمكن الاستغناء عن اليهود فى الاقتصاد الإقليمى، ولم تكن هناك مطلقًا أية مسائل تتعلق بطرد اليهود (Israel 1985: 57) . وبنهاية القرن السابع عشر، كان هناك قدر معتبر من اشتغال اليهود فى تجارة المدينة فى الأقمشة، والغلال، وزيت الزيتون ـ على الرغم من التحريم الرسمى لحيازة اليهود للحوانيت والاشتغال بتجارة التجزئة (Israel 1985: 174-5) .

وفى أماكن أخرى بإيطاليا، اعترف دوق ساڤوى باليهود سنة ١٦٥٢م «على أنهم

مبتكرون يقدمون حرفًا جديدة» . وقد تضمنت هذه الحرف صناعة التبغ ، وصناعة الصابون والشمع ، بل وحتى تلميع المرجان الأحمر المستخرج من سواحل ناپولى وتونس (Israel 1985: 180) .

كان ذلك أيضًا الوقت الذى تمكن فيه ولى العهد البروسى الأمير فردريك أن يتزوج من ابنة كوسمان جومپيرز «اليهودى العامل فى بلاطه» (Israel 1985: 144) .

ونقص المساحة يحول بيننا وبين الدراسة المتأنية للظاهرة غير العادية ، ظاهرة «يهودى البلاط» . ويكتب جوناثان إسرائيل أن عصر يهودى البلاط ١٦٥٠ ـ ١٧١٣م . كان علامة على «ذروة النفوذ اليهود فى أوروپا بداية العصر الحديث» (1985: 123) . كانت إحدى مهامهم الرئيسية تتمثل فى عملهم الواسع فى امداد الجيش أثناء حرب الثلاثين سنة . كما كانت مهاراتهم المصرفية أساسية أيضًا بالنسبة للأمراء الألمان المستبدين ، على الأقل بالنسبة للفترة التى كانت هناك سيطرة يهودية على أسواق تجارة الذهب والفضة وغيرها من المعادن فى وسط أوروپا (Israel 1985: 132) . وبدأت المجهودات لدمج النخبة المالية اليهودية ، على الأقل مع الطبقات الوسطى التجارية البازغة فى الاقتصاديات الرأسمالية الباكرة فى غرب أوروپا . وكما هو الحال اليوم ، كان لا بد للأصوات الارستقراطية أن تساعد فى العملية . وحالة سليمان دى ميدينا حالة ذات مغزى، فهوهولندى كان منشغلاً بأسواق الألماس والسبائك الإنجليزية، كما كان موردًا منتظمًا للخبز والعربات للقوات الإنجليزية فى الخارج. وفى سنة ١٧٠٠م، صار ميدينا أول يهودى يُرَسّم فارسًا فى انجلترا (Israel 1985: 130).

كان الدور التجارى قد تم إحياؤه ؛ لأن العالم الغربى عمومًا كان يجرب فرصًا غير مسبوقة . ولكن الاقتصاد الرأسمالى الجديد كان يُركز باطراد على الصناعة أكثر من التجارة :

«لقد تبنت الدول الأوروپية آنذاك سياسات حمائية بشكل شامل ، وركزت على تحسين الأنشطة الصناعية بدلا من تجارة المسافات الطويلة» (Israel 1985: 248) .

وقد برهن هذا على كونه أمرًا مصيريًا بالنسبة للجماعات التجارية اليهودية التى انزلقت فى منحنى التدهور طويل المدى . وكان السؤال آنذاك هو ، هل يمكن دمج الجماعات اليهودية فى المجتمعات الأوسع؟ .

وإذ كانت هذه الجماعات اليهودية ما تزال محل ازدراء كبير من العالم الخارجى، كما كانت حبيسة شبكة من القيود القانونية، زاد اهتمام اليهود الإصلاحيين بها، وببنائها الاقتصادى والدينى. وكان هؤلاء رجالاً من أبناء العائلات الثرية، بدأوا القيام بحملات لصالح جماعاتهم من أجل ما نسميه اليوم حقوق الإنسان أو الحقوق المدنية. وكان الإصلاح سلاحًا ذا حدين. فقد كان يعنى العتق الكامل على المستوى المدنى، والقانونى والسياسى - ولم يكن أقلها أن جميع الوظائف والمهن كانت متاحة أمام اليهود. ولكنه كان يعنى أيضًا الإصلاح الداخلى داخل الجماعة. وكان البناء التجارى القديم، الذى يشبه البناء الربانى للتعاليم اليومية التى لا تحصى بخصوص السلوك الشخصى، كان يمثل إحراجًا ومفارقة. ففى الذروة، هناك نخبة ثرية يهودية صغيرة، وفى القاعدة عدد متزايد من الشحاذين، كان:

«يشبه الهرم، كانت الطبقة الوسطى تتألف من المتعاملين فى المعادن من فرانكفورت، وهامبورج، وبراج، وكانت قاعدته مكونة من آلاف الباعة الجائلين اليهود الفقراء الذين كانوا يجوبون مدن وسط أوروپا وقراها، يشترون المعادن والعملات القديمة التى يغذون بها الچيتوات الكبرى» (Israel 1985: 132).

وقد كره موسى مندلسون، الإصلاحى اليهودى البارز فى القرن الثامن عشر هذا:

«لقد أدرك مندلسون أن مجتمع الأغيار قد شكل صورته عن اليهود. . فى معارض التجارة. . واليهود الفقراء يعلقون بضاعتهم للعرض هناك ويقومون بمساومات مرهقة، ويثيرون اشمئزاز المسيحيين بعاداتهم وسلوكياتهم الغريبة. . كان مستعدًا للاعتراف بأن هناك جشعًا موجودًا لا يرتوى بين «العامة الرعاع» على الرغم من أنه يقترح أن المسيحيين ربما كانوا مسؤلين عن هذا» (Meyer 1976: 27).

لقد كان مندلسون نتاجًا لعصر التنوير. وقد توقع مطالب الثورة الفرنسية. وكان من دعاة الاندماج، أى أنه طلب الاحترام لليهودية الإصلاحية فى مجتمعات أوروپا الغربية حيث يجب أن يحظى اليهود بكامل حقوق المواطنة. وكل الحركات الإصلاحية اليهودية، ودعاة الاندماج الذين يقودهم مندلسون، والاشتراكيون والصهاينة الذين جاءوا فيما بعد، وافقوا على أن دور التجار اليهود الكلاسيكيين، الذين وصفهم أحد الكتاب بأنهم «قائمة أسعار تمشى على قدمين» (Kahan 1986: 24). يجب تحويله.

وفى الفصل السادس سوف نرى الشد والجذب بين دعاة الاندماج والاشتراكيين والصهاينة حول كيفية تحقيق هذا. بيد أن الجميع وافقوا على أهمية «تعليم شايلوك».

اليهودى الذى كتب عنه شكسبير

كان ديريك پنسلار، الكاتب اليهودى الحديث، هو الذى وضع المسألة على هذا النحو، ولا شك أنها كانت سخرية مبهجة. ولكن إذا ما كان هناك تراث مثير للمتاعب من أحد أعظم الكتاب فى الفن العالمى والأدب العالمى فيما يتعلق بفهمنا «للمسألة اليهودية»، فلا شك أن هذا هو شايلوك الذى صوره شكسپير.

شايلوك هو الرمز التاريخى والثقافى لمعاداة السامية، وهو يغوص فى أعماق الوعى الشعبى رمزًا لليهودى باعتباره المحتال الذى يسرق أموال الآخرين. وكما يذكرنا إسحاق دويتشر، فإن النازيين تمسكوا بهذا «وكبروه حتى وصل إلى الأبعاد الضخمة التى لا تصدق، ورفعوه دومًا أمام عيون الجماهير. وكان كثير منهم يبتهجون برؤية شايلوك منقادًا إلى غرفة الغاز» (Deutscher 1968: 150-1). ومع هذا فإن التأثير الهائل لمسرحية شكسپير هو أعمق كثيرًا من النمط الباقى للمرابى الذى يطلب «رطل اللحم» من جسد أنطونيو، تاجر البندقية، الذى فشل فى أن يرد له دينه. فى لحظة حرجة، جعل شكسپير شايلوك يقدم دفاعًا حارًا عن يهوديته، تحديًا للإهانات المسيحية، تحول إلى دعوة للإنسانية المشتركة:

«لقد أهاننى أنطونيو.. وضحك على خسائرى، وسخر من أرباحى، واحتقر أمتى، وأحبط صفقاتى، وثبط أصدقائى، وحرض أعدائى ـ وما هو سببه؟ إننى يهودى. ألا يمتلك اليهودى عينيين؟ أليس لليهودى يدان، أعضاء، أبعاد، حواس، مشاعر عواطف؟.. ألسنا نتأثر حرًا وبردًا بنفس الصيف ونفس الشتاء مثل المسيحيين؟ إذا ما كنتم تنخسوننا ألا تدمى أجسادنا؟.... (The Merchant of Venice, 3-i, The Arden Shakespeare 1955: 73).

والمقدمة التى تحملها طبعة آردن للمسرحية، وهى طبعة يوصى بها للمدارس بشدة، تهتم بأن الخطبة تعطى أحيانا انطباعًا على جمهور المسرح لدرجة أنهم ينسون أنها كلام صادر عن الشخصية الشريرة فى المسرحية (1955: 11). وبطبيعة الحال، فإن المسرحية

منحازة إلى جانب أنطونيو بشكل سافر، ومن الواضح أنه الشخصية الشريفة والتى وقع فى حقه الخطأ. ومع هذا، فإن شكسپير قد بذر بذرة الشك فى خسة شايلوك. ويا لها من مجرد خطوة كبيرة بعيدًا عن المسرحية، لكى نرى أنطونيو باعتباره ممثلاً للمسيحية التى غرست ألف سكين فى اللحم اليهودى؟ ولا عجب أن اليهودى يقاتل ردًا على الهجوم.

إن قوة المسرحية هى قوة التناقض. والتناقض فى كل مكان. إننا قد نزدرى المرابى ونحتفى بالتاجر، ولكن اليهود كانوا تجارًا أيضًا فى البندقية قبل أن تفرض المدينة قيودًا عليهم، وتجعلهم يمارسون الربا. ثم غيرت المدينة فكرها كما رأينا. وكل مدينة فى أوروپا وضعت يهودها على نفس حال التأرجح والتلوى.

ويقبض دويتشر على هذا التناقض بشكل جميل... إذ إن انجلترا عند شكسپير سرعان ما ستعيد الاعتراف بالتاجر اليهودى: «سوف يلقى المسيحى البورجوازى نظرة أخرى على شايلوك ويرحب به أخًا له» (Deutscher 1968: 39).

اليهودى الذى رسمه رمبرانت

تسارع تحويل الحياة اليهودية فى أوروپا بفضل «العصر الذهبى» للجمهورية الهولندية فى القرن السابع عشر. فقد كان هذا الركن فى شمال غرب أوروپا قد بزغ من غمار الحروب الدينية فى القارة باعتبارها أكثر اقتصاد متقدم فى العالم وكذلك باعتباره أكثر المجتمعات المدنية تسامحًا.

وقد أسهم اليهود إسهامًا كبيرًا فى التجارة الاستعمارية المزدهرة وفى عمليات التصنيع: الألماس، والتبغ، والشيكولاته، وتكرير السكر. (Israel 1985: 179). ونرى أيضا بروز ظاهرة حديثة للغاية، «البروليتارى» اليهودى، أو العامل فى مصانع التبغ الهولندية ومعامل تصنيع الألماس. وبدأ شىء غريب آخر يحدث. ففى بعض الأحياء على الأقل صار اليهود محبوبين.

وفى قاعة العرض الوطنية بلندن، فى مواجهة ميدان الطرف الأغر، وكما سنرى، على مسيرة عشرين دقيقة من تمثال أوليفر كرومويل فى ميدان البرلمان، ثمة لوحة مرسومة من العهد القديم رسمها الفنان الهولندى رمبرانت عنوانها عيد بيلشاصر:

يصور القماش المرسوم الأثرى مشهداً مخموراً من العهد القديم من سفر دانيال. وثمة يد خفية تكتب رسالة مشفرة بحروف عبرية. بيلشاصر آخر ملوك بابل، وضيوفه الفاسقين يغشاهم الرعب. وقد تم استدعاء دانيال لحل هذا اللغز. ويخبر دانيال بيلشاصر، ابن نبوخذ نصر، الذى كان قد نهب معبد القدس، أنها يدى الرب الذى هاله اضطهاد اليهود، والذى سوف يقسم مملكة بيلشاصر فيما بين الميديين والفرس» (Zell 2002: 59-60).

ومؤرخو الفن مقتنعون الآن، أن منسًّا بن إسرائيل، الربى البارز فى جمهورية هولندا، ساعد رمبرانت فى بناء الرسالة بالحروف العبرية. والتعاون الوثيق بين الرجلين معروف تمامًا، وكان شكلاً نمطيًا لحركة أوسع من الحوار والمصالحة بين المسيحيين واليهود، وهى ما نسميه الآن «محبة السامية ـ Philosemitism».

ومحبة السامية ليست عكس معاداة السامية. ولكن من المؤكد أنها تنطوى على الموافقة على اليهود، على الرغم من أنها تلوح بالأمل فى أن يعتنق اليهود المسيحية. كما أنها عكست الدمار المستمر الذى ألحقته حركة الإصلاح الدينى بالمسيحية. وعلى حد تعبير إسرائيل: «لأولئك الذين تملؤهم الشكوك حول المزاعم واللاهوت الرسمى لمعظم الكنائس، كان اليهود، بمثابة حبل إنقاذ ثمين، وبمثابة خيط يقود إلى جوهر الوحى المقدس..» (Israel 1985: 228). ومحبة السامية، كما يوضح، قد مثلت مرحلة انتقالية تسبق عصر التنوير» (Israel 1985: 228).

وقد عاش رمبرانت معظم سنين حياته فى قلب الحى اليهودى بأمستردام، خلف معبد الربى منسًّا بن إسرائيل مباشرة. ومن بين مائتى صورة رسمها لذكور، عرف حوالى خمسها بأنها ليهود، وهى نسبة مئوية عالية لافتة للنظر لأن اليهود كانوا يشكلون ما يزيد قليلاً على واحد بالمائة من سكان المدنية. وحتى فى تصاويره للمسيح، كان حريصًا على أن يؤكد ملامح يسوع اليهودية. يستحوذ فن رمبرانت على «التضامن فى الرسم» من «داخل» عقل وجسد موضوعه. (Molyneux 2001: 73-5). ويبدو رمبرانت، حتى وإن كان مختفيًا بعمق خلف حجب الغموض الدينى، وكأنه وضع فنه لخدمة كسر الحواجز بين المسيحى واليهودى.

كان الراباى (الربى) منسًّا بن إسرائيل هو الذى قاد المفاوضات مع كرومويل للسعى

إلى إعادة اليهود إلى انجلترا . وتم التأكيد على الأرباح المالية التى ستعود على الاقتصاد وكذلك على المضامين الدينية الصوفية . كانت الحرب الأهلية الإنجليزية قد خلقت بيئة خصبة للحماسة الألفية . وكانت كثير من المجموعات الپروتستانتية ، بما فى ذلك الپيوريتانز ، مهتمة بشكل واضح بالدور الخاص الذى سوف يلعبه اليهود فى تحقيق التوقعات المسيحانية (Zell 2002: 92) .

بعد ذلك بقرنين من الزمان ، سوف يخرج من انجلترا تحت حكم الملكة ڤيكتوريا رئيس وزراء مشهور سيكون هو التجسيد الحقيقى ، على الرغم من أنه مرتبط بالأرض بصرامة ومن هذه الأرض ، لكل تلك الجهود الباكرة للمصالحة بين المسيحية واليهودية . وعلى الرغم من أن بنيامين دزرائيلى كان قد تم تعميده مسيحيًا پروتستانتيًا ، فإنه بقى مأخوذًا بميراثه اليهودى . وإذ وصف المسيحية بأنها «اليهودية بعد أن اكتملت» ؛ فإنه كان يسره أن يصف نفسه بأنه «صفحة مفقودة بين العهد القديم والعهد الجديد» (Johnson 1993: 324) .

كذلك كانت الجمهورية الهولندية علامة على طريق يهودى مختلف تمامًا نحو العالم الحديث . فثمة تاجر يهودى من أمستردام أدار ظهره لكل من الدين وحياة التجارة . كان اسمه باروخ سپينوزا ، وكتب فلسفة عكست أصداء تراجع كل من اليهودية والمسيحية عند فجر العالم الجديد . كان سپينوزا واحدًا من أعظم مفكرى عصر التنوير . وربما يمكن القول إنه فصل الدين عن الدولة والسياسة والاقتصاد ، قد بدأ معه . كذلك كان هو أول من سيسميهم دويتشر «اليهود غير اليهود» ، وهم المنشقون أو الهراطقة اليهود :

«تعالوا فوق اليهود ولكنهم ينتمون إلى تراث يهودى ، وكانوا استثناء من حيث إنهم بوصفهم يهودا كانوا على مناطق الحدود بين عدة حضارات . . ونضجت عقولهم حيث كانت أكثر التأثيرات الثقافية تنوعًا تتقاطع مع بعضها البعض ويخصب كل منها الآخر . . كان هذا هو ما ساعدهم على أن يصعدوا فوق أزمانهم . . ويتطلعون عقليًا فى آفاق جديدة متسعة وبعيدًا فى المستقبل» (Deutscher 1968: 26-7) .

كان كارل ماركس ، وهو يهودى آخر غير يهودى ، واحدًا من أعظم الزعماء فى النضال من أجل الديمقراطية فى أوروپا القرن التاسع عشر (Nimtz 2000: 7) . حفزته الشعارات التى أطلقتها الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م . وعندما انضم إليه جبرائيل

ريسر، قائد حركة تحرير اليهود فى ألمانيا، رمى ماركس بثقله وراء مطالب ريسر:

«يؤكد السيد ريسر بشكل صحيح على معنى رغبة اليهود فى إنسانيتهم الحرة عندما طالب، بين أمور أخرى، بحرية الحركة والإقامة والسفر وكسب العيش إلخ. هذه التجليات «للإنسانية الحرة» تم الاعتراف بها صراحة كما هى فى الإعلان الفرنسى لحقوق الإنسان..» (Droper 1977: 127).

وقد ضمن ظهور الديمقراطية فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية هذه الحقوق لليهود فى العصور الحديثة.

لقد برهن «الغرب»، وأمريكا خصوصًا، الذى يضم أكبر جمهرة من السكان اليهود فى العالم، على كونه مغناطيسًا يجتذب ملايين اليهود الذين هاجروا، عند نهاية القرن التاسع عشر، هربًا فى الغالب من ظروف الفقر المدقع فى أوروبا الشرقية. وقد برهن هؤلاء اليهود على أنهم أنجح الأقليات العرقية فى ظروف توافر أى معايير لتكافؤ الفرص والحراك الاجتماعى.

وربما يصف معظم اليهود أنفسهم اليوم بعقلانية أنهم ينتمون إلى الطبقات الوسطى المهنية ويفخرون عن حق بإسهاماتهم الكثيرة البارزة فى الفن، والعلوم، والتعليم والطب، والصحافة، والسياسة والتجارة. وقصة النجاح هذه قد برهنت على أنها ممكنة ليس فقط بسبب المرونة المطلوبة لحماية استقلالهم الدينى، ولكن أيضًا بسبب «الشخصية التجارية والحرفية لليهودية، ميراث ماض تاريخى طويل». (Leon 1970: 236). تطور فى السياق الحضرى لحضارات الشرق الأوسط وأوروبا. نعم كانت هناك معاناة، بيد أن هذا يحكى لنا فقط جزءًا من الأداء العبقرى فى المجالات الاقتصادية والفكرية غير العادى، الذى تطور على مدى قرون عديدة. وآمل فى أن يكون هذا الفصل قد قدم القليل لضبط الميزان.

وأخيرًا ربما يثور اعتراض لا يمكن إنكاره، أنه حيثما انكسرت الديمقراطية، مثلما حدث فى ألمانيا النازية، عادت معاداة اليهود مصحوبة بانتقام رهيب يفوق التصور وسوف نتأمل الفترة النازية فيما بعد، ولكننا سوف نتحول أيضًا لنرى كيف أن المشاعر المعادية لليهود، تزداد تأججًا حينما ينكر اليهود الديمقراطية على الآخرين فى الأرض التى يزعمون أنها ملك لهم وحدهم.

الفصل الرابع

«نحن» اليهود، «هم» العرب (١): رسالة من معبد يهودى بالقاهرة منذ ألف سنة

أجبرت الصهيونية العرب واليهود على الافتراق بطريقة تسير عكس اتجاه التاريخ الطويل للحضارة العربية الإسلامية. وهذا جانب مهم يُساء فهمه فى الجدل ضد الصهيونية سوف نتناوله مرة أخرى فى الفصل العاشر. وهذا الفصل سوف يفحص العلاقات العربية ـ اليهودية فى ذروة الحضارة الإسلامية، فيما بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر تقريبًا. وسوف يدرس الفصل الأخير هذه العلاقات فى الفترة الحديثة، باعتبارها الخلفية لفهم الكيفية التى يمكن بها تحقيق المصالحة العربية اليهودية. ويتحدى الفصلان الأسطورة الصهيونية الأصولية القائلة بأن العرب واليهود مختلفون (بما يعنى ضمنًا فى العادة أن العرب هم الأدنى) بالقدر الذى لا يجعل من الممكن أن يتعايشوا سويًا.

كانت أغلبية اليهود تعيش فى البلاد العربية حتى خمسمائة سنة مضت. وفى إسرائيل اليوم، ترجع أصول ما يزيد على مليون مواطن يهودى إلى البلاد المسلمة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وهناك عدد صغير ولكنه مهم من هؤلاء اليهود ـ بعضهم يصفون أنفسهم بأنهم يهود عرب، مصممون على تسجيل الحال بشكل صريح. وهنا جزء من شهادة تتسم بفصاحة خاصة:

«إن حكايتى الشخصية تتساءل عن المعارضة ـ المرتكزة على أوروبا ـ بين العرب واليهود، وخاصة إنكار الأصوات العربية اليهودية (السفرديم) إننى يهودية عربية، أو بمزيد من التحديد، أنا امرأة إسرائيلية عراقية أعيش وأكتب وأتعلم فى الولايات المتحدة. ومعظم أفراد عائلتى ولدوا وتربوا فى بغداد. . وعندما واجهت جدتى

المجتمع الإسرائيلى للمرة الأولى فى الخمسينيات، كانت مقتنعة أن الناس الذين ينظرون ويتكلمون ويأكلون بشكل مختلف جدًا - اليهود الأوروپيين - كانوا بالفعل مسيحيين أوروپيين - لأن جيلها كان مرتبطًا ارتباطًا لا ينفصم بالشرق أوسطية. وكان على جدتى التى ما تزال تعيش فى إسرائيل، وما تزال تتحدث إلى حد كبير باللغة العربية، أن تتعلم الحديث عن «نحن» باعتبارنا اليهود، «وهم» العرب. وبالنسبة لسكان الشرق الأوسط، كان التمييز الفاعل باستمرار هو «مسلم»، و«يهودى»، و«مسيحى»، وليس العرب فى مواجهة اليهود. وكان الافتراض هو أن «العروبة» تشير إلى ثقافة عامة مشتركة وإلى لغة عامة مشتركة، على الرغم من الاختلافات الدينية. فإذا ذهبت إلى معابدنا حتى فى نيويورك، أو مونتريال، أو لندن، سوف يدهشك أن تسمع نغمة موسيقية، يظن من لا يعرفها أنها قادمة من أحد المساجد. وبالنسبة لعائلاتنا التى كانت تعيش فى بلاد النهرين، منذ الأسر البابلى على أقل تقدير، والتى تعربت على مدى آلاف السنين، التى تم ترحيلها إلى إسرائيل منذ خمسة وأربعين عامًا بشكل مباغت، لكى تجبر فجأة على اتخاذ هوية يهودية أوروپية متجانسة قائمة على أساس تجارب فى روسيا وپولندا وألمانيا، كان ذلك تدريبًا على تدمير الذات. هذه الازدواجية قادت الكثير من اليهود الشرقيين (واسمنا فى إسرائيل الذى يشير إلى بلادنا الآسيوية والأفريقية الأصلية بصفة عامة هو مزراحى أو مزراخى) إلى حالات الشيزوفرانيا العميقة والدفينة. وباعتبارنا يهودًا عراقيين، مع احتفاظنا بهوية جماعية، اندمجنا عموما فى البلاد وتوافقنا معها تمامًا، بحيث شكلنا جزءًا لا يمكن الاستغناء عنه من حياتها الاجتماعية والثقافية. وإذ تعربنا تمامًا، كنا نستخدم اللغة العربية حتى فى الترانيم والاحتفالات الدينية. وقد ولدت الاتجاهات الليبرالية والعلمانية فى القرن العشرين ارتباطًا أشد قوة لليهود العراقيين بالثقافة العربية، مما دفع باليهود إلى ساحة نشيطة للغاية فى الحياة العامة والحياة الثقافية. .

«وحتى قسمات وجوهنا تخوننا، بحيث تؤدى إلى نزعة استعمارية داخلية، أو سوء الإدراك المادى. ذلك أن نساء السفرديم الشرقيات غالبًا ما يصبغن شعورهن السوداء بلون أشقر، على حين تعرض الرجال أكثر من مرة للقبض عليهم أو ضربهم عندما يظن الناس خطأ أنهم فلسطينيون. وما كان بالنسبة للمهاجرين الأشكناز من روسيا

وپولندا «عالية» (صعودًا) اجتماعيًا، كان بالنسبة لليهود السفرديم الشرقيين «يريدا» (هبوطًا).

Ella Haliba Shohat, Proffessor of Cultural Studies and Women's Studies, City University of New York.

والپروفيسورة شوحات عضوة فى جمعية مزراحى للفنانين والكتاب العالمية. وموقعهم على شبكة الإنترنت ملىء بالشهادات المماثلة. ويتضمن أيضًا «قائمة بقاء سفرديم»، وهى قائمة يوصى بقراءتها، ترقى إلى التحدى الذى يمثل مجابهة شاملة للصهيونية ومفاهيمها عن الهوية اليهودية. والكتاب الذى نوصى - بشدة - أن يُقرأ، هو ذلك الكتاب الرائع المكون من خمسة مجلدات بعنوان:

A Mediterranean Society: The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza by shelomo D. Goitein.

«يعيد جويتين، بقدر المهابة التى يوفرها البحث العلمى، بناء عالم جماعات اليهود العرب فى شرق المتوسط بدقة متناهية وألمعية أخاذة. إذ لم يحدث من قبل، ولن يحدث من بعد، أن تم إلقاء الضوء على عالمهم بمثل هذا الكمال: وهو أحد أعظم مآثر البحث العلمى فى هذا القرن، أو أى قرن غيره» (http/www-ivri-nasawi.org).

تقديم أوراق الجنيزا

سوف يتم تكريس بقية هذا الفصل لدراسات الپروفيسور جويتين[1]: ولكن أولاً بعض الملاحظات التمهيدية وعرض للخطوط العريضة للسياق التاريخى.

كانت جنيزا القاهرة غرفة أو مكانًا للتخزين، مليئة بالوثائق، فى معبد يهودى بالقاهرة يرجع إلى القرن الحادى عشر، والجنيزا كلمة عبرية، شبيهة بالكلمة العربية «جنازة»، وكلتاهما مشتقتان من الكلمة الفارسية «جانى» التى تحمل معنى مخزن أو كنز. وعلى مدى مئات السنين، دخلت الوثائق غياهب النسيان، وتركت فى غرفة، محجوبة عن الرؤية، حتى اكتشافها أواخر القرن التاسع عشر.

ويصفها جويتين بأنها «مخزن للكتابات المهملة»، أودعها تجار وباحثون وحرفيون

وغيرهم من اليهود. ومهما كانت هذه الأوراق خطيرة، أو مهما كانت تفاهتها، فإنهم كتبوا اسم الرب عليها. وكان معنى هذا أنه فى عقول الناس «أن هذه الأوراق بعد أن تؤدى الغرض منها، لا يجب تدميرها (Goitein 1999: 1:1). وهكذا احتفظت الجنيزا بسجل تاريخى فريد:

«ومع الصياغة بكلمات منتقاة بعناية والأعمال التى تم تنفيذها بعظمة، يجد المرء ملاحظات مكتوبة بتسرع، وتقارير أو رسائل مدونة بسرعة وإيجاز، بخط لا يكاد يقرأ وبلغة حافلة بالأخطاء. وعلى أية حال، فإن أوجه القصور فى الجنيزا تشكل تفردها ومجدها. إنها مرآة حقيقية للحياة، غالبًا ما تشوبها الشقوق والبقع، ولكن مداها واسع جدًا وتعكس كل جانب فى المجتمع الذى أفرزها أصلا». (Goitein 1999:1-9).

كانت الجماعات اليهودية فى تلك الفترة جزءاً لا يتجزأ من ثقافة إسلامية فى إمبراطورية حققت الرفاهية بشكل خارق للعادة. وكما لاحظ المؤرخ العربى الحديث ألبرت حوارنى، فإنها امتدت:

«عبر الحوضين العظيمين فى العالم المتمدن، حوض البحر المتوسط وحوض المحيط الهندى. وصارت حركة الجيوش والتجار والعلماء والحجاج بينهما أكثر سهولة، وكذلك حركة أفكارهم وأساليبهم وتقنياتهم. . الحكومات القومية، المدن الكبيرة، والتجارة العالمية والريف المزدهر، فكان كل منها يحافظ على الأحوال التى تضمن وجود الآخر». (Hourani 1991: 43).

وقد أكد برنارد لويس، وهو كاتب حديث يكتب عن الإسلام، ومفكر يوجه إليه النقد أحيانًا بسبب رؤيته للإسلام من خلال منظار الثقافة الغربية المشوش(٢)، بقوة ما أسماه «تعايش» العرب واليهود فى تلك الفترة فى التاريخ الإسلامى. وهو يصف تراثًا يهوديًا إسلاميًا ناجحًا «إطار ثقافى مرجعى مشترك جعل من الممكن وجود درجة. . . من التعاون نادرة نسبيًا فى تاريخ الشتات اليهودى» (Lewis 1984: 78). و(يقتبس لويس تفسيراً محتملاً من جويتين لتدهور التسامح الإسلامى: وهو تدهور المجتمع البورجوازى الجنينى إلى شكل من أشكال الإقطاع العسكرى (Lewis 1984: 57).

وثمة مقدمة مدهشة للجنيزا ــ بعضها تاريخ هدام، بعضها كتابات رحالة، وبعضها

تاريخ محقق ـ كتبها الهندى أميتاب خوش. ففى كتابه الذى يحمل عنوان «فى أرض قديمة ـ In an Antique Land» يسعى خوش إلى البحث عن عبد هندى لتاجر يهودى تونسى، هو بن إبراهام بن ييچو، الذى عاش فى مانجالور، وهو ميناء على الشاطئ الجنوبى الغربى للهند، منذ حوالى ألف سنة مضت. وخطاب الجنيزا الذى ألهب الخيال الباحث لدى خوش، كتبه تاجر مسلم صديق لبن ييچو. وهو خلف بن إسحاق، الذى كان يتخذ من عدن قاعدة له «ذلك الميناء الذى يقعد مثل ذبابة على قمع، فى نفس النقطة التى ينفتح فيها المضيق الضيق للبحر الأحمر على المحيط الهندى» (Ghosh 1992: 13).

ويعكس كتاب خوش بأمانة روح الجنيزا من حيث إنه لا يوجد شئ مثلما يبدو للوهلة الأولى. إذ إن بن ييچو ليس مجرد تاجر، وإنما هو أيضًا خبير خطوط متميز، وعالم وشاعر (Ghosh 1992: 19)، وفقًا لخطاب آخر من خلف، فإن عبد بن ييچو الهندى، الذى يسميه خوش بوما، يتحول لكى يصير «وكيل أعمال وعضواً محترمًا فى منزل بن ييچو» (Ghosh 1992: 18). وهذا خلط غريب فى عيوننا المعاصرة، تزداد غرابته من احتمال أن يكون بوما قد اعتنق اليهودية وأن بوما وبن ييچو وربما خلف أيضًا كانوا يتشاطرون الانبهار بتراث التصوف فى الإسلام. واستكشاف خوش لهذه المواضيع (1992: 259-63) يخرج من نطاق هذا الفصل، على الرغم من أن الجنيزا تلقى ضوءاً مدهشًا على تأثير الصوفية على اليهودية فى العصور الوسطى بالقاهرة على ما سنرى.

من الواضح أن هناك تاريخًا غاية فى الخصوصية عن هذه الفترة، ينتظر من يكشف عنه النقاب. وفى الوقت نفسه، كانت الجنيزا قد بدأت تلهم خيال الروائى، عند كل من سالمان رشدى وطارق على، وآخرين غيرهم من استخدموا جو الجنيزا فى كتاباتهم.

الجنيزا والإسلام واقتصاد التجار

حولت الدراسة الثاقبة التى قام بها جويتين لأوراق الجنيزا هذا الباحث إلى حجة فى الاقتصاد العربى الإسلامى بدون قصد. وتقتبس چانيت أبو لغد فى كتابها الذى نشرته

جامعة أكسفورد ـ والحائز على جائزة دولية ـ والذى يحمل عنوان :

«Before European Hegemony (The World System AD 1250-1350» تستعير ملاحظات جويتين عن نقطة شديدة الحساسية، وهى كيفية ربط الإسلام نفسه بالاقتصاد التجارى المزدهر فى قلب الإمبراطورية.

فقد رفع الإسلام مكانة التاجر فى شبه الجزيرة العربية، وصادق أخلاقيًا على إسهاماتهم فى المجتمع. وكتب جويتين : «يعتبر دخل التاجر الشريف فى الأدب الدينى الإسلامى مثالاً نمطيًا للحلال، لأن كسبه لا يثير اعتراضات دينية. وبالإضافة إلى هذا، كان التاجر ـ على وجه الخصوص ـ قادرًا على أداء الواجبات المفروضة على المسلم (الصلاة ودراسة الكتب الدينية)» (Abu - Lughod 1989:217).

كان الحج إلى مكة منذ بدايته الأولى مرتبطًا بالتجارة العظمى بين القارات، وبقى كذلك طوال العصور الوسطى. وكانت الرغبة الماثلة للحاج المسلم: «حج مقبول وذنب مغفور وبضاعة رائجة» (Goitein 1999 1:55).

وهذه هى أيضًا الفترة التى تطورت فيها الشريعة [الإسلامية] كمدخل تقدمى للعدل والقواعد التى تحكم السلوك الشخصى والسلوك فى مجال الأعمال. وكما كان هارمان قد لاحظ، يكاد يكون مستحيلاً أن نعترف بهذا الآن، إذا ما أخذنا فى الاعتبار الإساءة التى أهيلت على الشريعة [الإسلامية] اليوم فى الغرب. بيد أنها كانت متقدمة تمامًا فى نظام القيم عما لدى الإمبراطوريات الإقطاعية الزراعية المسيحية التى كانت تنافسها. ويقتبس هارمان دراسة علمية عن الإسلام تعترف بما فيه من «توقعات بالمساواة من الحركة النسبية. . . مما أدى للحافظ على استقلاله الذاتى فى مواجهة الإمبراطوريات الزراعية» (Harman 1999: 130).

كان الاقتصاد التجارى فى الشرق الأوسط والشرق الأقصى يتطلب نظام تخزين للبضائع بالغ التعقيد، ونظامًا للصيرفة والائتمان يتسم بكل خصائص أنواع المشاركة، وهو ما طوره بالفعل (Abu-Lughod 1989: 222-30)، وهو ما أكدته وثائق الجنيزا. وقد تطلب وجود قيم وقواعد للعمل تحظى بموافقة واتفاق على مستوى العالم. وإذا ما أخذنا مثالاً واحدًا فقط من أمثلة عديدة أوردتها چانيت أبو لغد، فإن المصرفيين

الأوروبيين لم يطوروا «صك تبادل» مناسبًا حتى القرن الرابع عشر. ومع ذلك، فإن السابقة التى ابتدعها الفرس، وهى السفتاچه، كانت مستخدمة على مدى عدة قرون فى الشرق الأوسط. ويكتب جويتين: «كانت السفتاچه تصدر وتكتب على أيدى مصرفيين معروفين جيداً، أو ممثلى التجار كقاعدة عامة، وكان هناك رسم يتم تحصيله لقاء إصدارها، وبعد تقديم جزاء يومى يجب دفعه عند أى تأخير فى الدفع» (Abu-Lughod 1989: 223-4).

وثمة سؤال مبهر، يشكل الأساس الذى يقوم عليه كتاب چانيت أبو لغد يقول: لماذا لم يتطور هذا النظام التجارى إلى نظام رأسمالى مكتمل الملامح بحيث يستحوذ على أوروپا الغربية؟. وعلى الرغم من أننا لا يمكن الاستجابة لهذا الإغراء بالعودة إلى الوراء لدراسة هذا السؤال، فإننا نوافق على مقولتها بأن تأثيره على تطور اقتصاد أوروپا الغربية لم يحظ بما يستحقه من التقدير ومن الدراسة. والحقيقة أنه على الرغم من أن الاستثمار على نطاق كبير كان نادراً، فقد كان هناك مع هذا كمية كبيرة من البضائع «المصنعة» فى مصر، وليست منتجة فى مصانع كبيرة وإنما فى ورش صغيرة (Abu-Lughod 1989: 230-1). وهناك كان العمال يمتلكون أدواتهم الخاصة وغالبًا ما كانوا يمزجون بين أنشطة التصنيع وأنشطة البيع، والتى كانت يمكن بالمصادفة أن تطمس الفرق بين الحرفى والتاجر. ومن بين الصناعات فى القاهرة التى يضع جويتين قائمة بها، هناك ورش سبك المعادن وصناعة المشغولات المعدنية، بما فى ذلك المشغولات العسكرية، والزجاج والفخار، ودباغة الجلود وصناعة المشغولات الجلدية وجلود الرق (للكتابة)، والورق، وتجليد الكتب، وأعمال البناء والتشييد. وبالإضافة إلى هذا، كانت توجد مطابخ [معامل] لتكرير السكر أو صناعة الورق. وعادة ما كانت تلك مملوكة للسلاطين وتستخدم أعداداً كبيرة نسبيًا من العمال. وكانت صناعة النسيج وتوزيعه هى «الصناعة» السائدة.

ولا غرو أن المعز لدين الله الفاطمى، أول حكام الأسرة الفاطمية فى القرن العاشر الميلادى، الذى بنى القاهرة، قد أعلن أن المدينة:

«مجد الإسلام ومركز تجارة العالم.. لقد غطت على بغداد.. وتصل إليها فواكه الشام

والمغرب فى كل الفصـول، وما يزال المسافرون يفـدون إليها.. من البلاد الشرقـية، والسفن من شبه الجزيرة ،ومن بلاد الروم...» (Abu-Lugod 1989: 225).

ولا غرو أيضا أن الجيوش الصليبية الأوروبية الغازية نظرت إليها بعيون ملؤها الحسد.

صلاح الدين والحملات الصليبية

قسمت الفترة التى تغطيها وثائق الجنيزا بشكل عام بين سلالتين حاكمتين، هما: الفاطميون (تأسست أسرتهم الحاكمة فى مصر سنة ٩٦٩م)، والأيوبيون (انتهى حكمهم فى مصر سنة ١٢٥٠م). وثمة تاريخ فارق هو سنة ١١٦٨م، عندما ساعد صلاح الدين فى إنقاذ القاهرة من الصليبيين. ويصفه جويتين، بأنه أعظم قائد عبقرى فى تلك الحقبة. وقد أشاد به يهود ذلك الزمان باعتباره المنقذ لهم، قورش الجديد (Armstrong1996:298). **وعندما استولى الصليبيون على القدس، ذبحوا جميع اليهود والمسلمين فى المدينة. وطرد صلاح الدين الصليبيين، وحرر القدس ودعا اليهود للعودة إليها.**

والرمزية التى يحملها هذا الحادث الجليل يتردد صداها عبر القرون ليصلنا ولا يتطلب أى تعليق إضافى. إنها تحية مناسبة لروح الجنيزا التى نفض عنها جويتين الغبار.

ولنعد الآن إلى دراسة أكثر تفصيلاً لليهود فى العالم العربى الإسلامى كما تصورهم وثائق الجنيزا.

«العولمة»

ثمة مؤشر باكر على تسامح الفاطميين، وعلى روح [ذلك] العصر بالتأكيد، ينعكس فى سيرة حياة يعقوب بن كلس. فقد كان يعقوب بن كلس تاجراً يهوديًا من العراق عاش فترة بمدينة الرملة فى فلسطين، قبل أن ينتقل إلى مصر. وأصبح ممثل التجار فى القاهرة واستحوذ على انتباه الحكام الفاطميين. وكانوا حريصين على توظيف مواهبه فى خدمة الحكومة وتم تعيينه وزيراً. وكان على يعقوب بن كلس أن يعتنق الإسلام حتى يتم قبوله، ولكن أوضح أن الديانة لا ينبغى أن تكون عقبة فى

التعيينات بالمناصب الحكومية . وبصفته وزيراً كسب سمعة فى توظيف كل من اليهود والمسيحيين «فى أعلى المناصب» (Goitein: 1999 1:34)(*) .

وقراءة جويتين تدفع حتماً بكلمة حديثة لتفرض نفسها على الذهن . وربما لم يكن هو على ألفة بهذه الكلمة الحديثة جداً ، لأنه مات فى ثمانينيات القرن العشرين ، على الرغم من أنه كان سيعترف على الفور بالفكرة التى تدل عليها الكلمة : وهى كلمة العولمة . وهى ليست عالمية حقاً بطبيعة الحال(**) . ولكن «دولية» الناس والبضائع التى كانوا يصنعونها ويتاجرون بها ، يحمل شبهاً غير منكور بما يجرى اليوم [من عولمة] .

تأمل اثنين من اليهود يمثلان نمطين شائعين فى الجنيزا ، تاجر تونسى ومُنَجِّد أثاث فارسى فى القاهرة .

فى الخطاب المكتوب سنة ١٠٨٥م ، والذى أودع ضمن وثائق جنيزا القاهرة يحكى التونسى عن بيع لأحد الأوروپيين فى ميناء بحرى فلسطينى لصفقة من الصبغة الأرجوانية ، التى كانت من البضائع الرائجة فى ذلك الوقت . ويحكى عدد من التجار ـ منهم هذا التاجر ـ عن الأرباح الممتازة التى يمكن جنيها من التعامل مع الأوروپيين الذين كانوا يفتقرون إلى المهارات التجارية التى يتمتع بها نظراؤهم فى عالم البحر المتوسط . (6-45 :1 1999) .

أما المنجِّد القادم من طبرستان ، التى يصفها جويتين بأنها الإقليم الفارسى الجميل جنوب بحر قزوين ، فكانت شهرتها ذائعة فى جميع أرجاء الإمبراطورية ، لدرجة أن الإقليم أعطى اسمه لذلك الطراز الخاص من التنجيد . وكان يتم إعادة إنتاجه على نطاق واسع فى مصر لدرجة أن الإصرار على التنجيد الطبرستانى الأصلى كان ينص عليه صراحة فى عقود الزواج التى تم اكتشافها فى وثائق الجنيزا . ولكن هناك غموضاً مثيراً فى حقوق الملكية الفكرية يمكن أن يكون مماثلاً لتدريب عقلية قانونية فى القرن الحادى والعشرين . متى يكون الطبرستانى ليس لحافًا طبرستانيًا؟ يبدو أن بعض المنجدين من

(*) رتب ابن كلس دروساً فى الفقه الإسلامى وحسن إسلامه بشهادة المؤرخين المعاصرين ، ومن ناحية أخرى ، فإن العصر الفاطمى اشتهر بأنه العصر الذهبى لأهل الذمة من اليهود والنصارى الذين نعموا بمعاملة غير مسبوقة ، وتقلدوا أعلى الوظائف بعد وفاة ابن كلس بسنوات طويلة ـ المترجم .

(**) أى لم تكن عالمية ، لأنها لم تصل لبقية العالم فى ذلك الوقت ، كاليابان شرقاً والأمريكتين غرباً ـ المترجم .

اليهود الفرس والمسلمين، قد اكتسبوا مهاراتهم فى طبرستان ثم هاجروا صوب الغرب. وهو ما يمكن أن تؤيده حقيقة أن كثيراً من الناس فى مصر وتونس كانت لهم أسماء فارسية (Goitein 1999 I: 50).

غالبًا ما يكون هناك خط يكاد يكون إعلانًا من جويتين يلقى الضوء غير العادى على العلاقات الاقتصادية الدولية بالغة التعقيد فيما بين أوروپا والشرق الأوسط، وبين المسيحيين والمسلمين واليهود، أغنياء وفقراء. ونحن نريد معرفة المزيد؛ بيد أنه ليس هناك المزيد. ولدينا حقيقة واحدة موثقة، وهى إشارة عابرة فى خطاب أو وثيقة أعمال. وهكذا نعرف أنه منذ حوالى ١٠٠٠ سنة مضت كان التجار المسلمون يستوردون الجبن والتى كانت هى مصدر الپروتين لفقراء المصريين من أوروپا (1999 I: 46).

ونعرف أيضًا أن العالم الإسلامى كان يأخذ أحد المبادئ على أنه أمر مسلم به، وهو مبدأ يزعمون اليوم أنه مبدأ ليبرالى حديث، على الرغم من أنه لم يكن موضع ممارسة أبدًا فى العصر الحديث ـ ومؤداه أن التجارة الحرة يجب أن تكون مصحوبة بحرية الحركة والتنقل للناس، مهما كان عرقهم أو لونهم. ويجب على السياسيين المحدثين أن يولوا عناية فائقة للمواقف الإسلامية من الهجرة، وهى مواقف تبدو أكثر تحضراً إذا ما قورنت بكثير من مواقفنا الآن.

وبينما احتشدت الحملات الصليبية للانطلاق، كانت هناك هجرة يهودية من أوروپا المسيحية، خاصة فرنسا، إلى العالم الإسلامى الذى لم يفرض أى قيود عليهم:

«لم يتم العثور فى أى مكان على إشارة بأن الحكومة المصرية عرقلت هذا الفيض من البشر القادم من بلاد كان حكامها، وكما أظهرت أحداث ١٢١٩ و١٢٤٩م، ينوون غزو مصر نفسها» (1999 I: 67).

والواقع أن العالم منذ ألف سنة مضت كان مقلوبًا رأسًا على عقب. وكانت هذه أيضًا حال الجماعة اليهودية نفسها. إذ كان المهاجر اليهودى الأوروپى الفقير بحاجة إلى مساعدة مالية من الجماعة اليهودية فى القاهرة كما تشير سجلات الجنيزا. وعلى النقيض، كان اليهود اليمنيون من التجار والحرفيين والعلماء بالمدينة يسجلون فى القوائم باعتبارهم مساهمين فى الخزانة العامة للجماعة. (1999 I: 57). ومن سوء

الحظ أن السخرية التى تسترعى انتباه القارئ اليهودى الناقد المعاصر، لايمكن أن نستكشفها هنا.

وتتخطى حرية السفر التى كانت من المسلمات الديانات الثلاث: «فإذا ما قرأ المرء خطابات الجنيزا ينسى أنه كانت هناك حدود سياسية موجودة على الإطلاق» (60 :1999 I). ولم يكن المسافرون بدوافع اقتصادية هم المسافرين الوحيدين بأى حال. ويصف جويتين ظاهرة «العالم المتجول» وحرية البحث على الأقل داخل حدود الأديان. وهكذا نسمع عن قاض يهودى من صقلية سافر إلى مصر وفلسطين وأخيرًا إلى بغداد، حيث درس المزامير مع أفضل عالم هناك. وهناك مزمور حير الاثنين معًا، ومن ثم اقتربا من رئيس الكنيسة النسطورية. ويلاحظ جويتين كيف أنه لم يكن من المتوقع اكتشاف «تعاون مثل هذا... فى بغداد منذ تسعمائة وخمسين سنة مضت» (52 :1999 I).

ويبدو أن الكتب والأفكار، والمعارف، والأذواق كانت تنتقل على نطاق واسع أيضًا.

«فيماينس، المدينة الرومانية القديمة على ضفاف نهر الراين، كان من الممكن أن تجد أهم أنواع التوابل الأكثر أهمية والمستوردة من الهند والشرق الأقصى، وأن تجد كذلك رجلاً يمكنه أن يترجم كتابًا عن تعاليم إنشاد ترانيم الكتاب المقدس من اللغة العربية إلى اللغة العبرية ـ ولم يكن ذلك يمثل شيئًا خارقًا بأى حال» (64 :1999 I).

بيد أن مثل هذا التبادل للأفكار كان يمكن أيضًا أن يحض على الخوف وعدم التسامح. وهكذا نقرأ عن أن اليهود الفرنسيين أحرقوا كتبًا لابن ميمون، أشهر فيلسوف يهودى فى العالم الإسلامى (64 :1999 I).

كان علماء الدين اليهود يسافرون على نطاق واسع للحصول على وظائف سواء فى مراكز التعليم المشهورة فى القاهرة، أو القدس أو بغداد، أو للعمل كمدرسين، أو قضاة، أو زعماء دينيين فى المدن والقرى بجميع أنحاء الإمبراطورية. «ولم نجد مثالاً واحدًا على تدخل الحكومة» (66 :1999 I).

وبطبيعة الحال، فإن الكوارث، والحرب الصليبية بوجه خاص، والانتفاضات التى

خلقتها السلالات الحاكمة المسلمة، والتى كانت تسىء إلى المسلمين من كافة الاتجاهات بقدر ما تسىء إلى غير المسلمين (وهو ما سوف نعود إليه فيما بعد)، كلها كانت من أسباب تحركات الشعوب.

وعمومًا، كانت مثل هذه الحركية تؤخذ أمرًا مسلمًا به، باعتبارها وسيلة لحل المشكلات. «إذ إن تغيير السكن يجلب الحظ». ونقرأ فى وثائق الجنيزا عن المغنى الأعمى الذى كان يفضل الشحاذة وهو فى طريقه إلى مكان ما بدلاً من البقاء فى المنزل. وأخيرًا، كان هناك دائمًا سبب آخر لترك الوطن، على الرغم من كونه سببًا يحمل مخاطرة الاتهام بالجنس. ولكننى آمل أن تكون دعابة جويتين هنا مقبولة باعتبارها سببًا لكى لا نفرض رقابتنا على هذا المثال غير العادى للتعايش بين الرجال المسلمين واليهود:

«وبقدر ما يبدو الأمر فظًا، فإنه يجب التسليم بأن الهرب بعيدًا عن الزوجة بقدر الإمكان كانت ممارسة تتم كثيرًا بين الناس الذين تقدمهم وثائق الجنيزا، مثلما كان يفعل الأزواج فى حكايات ألف ليلة وليلة» (1999 I: 58).

وعلى أية حال، فإنه على الرغم من أن كل هذه الأمثلة الدالة على ما يصفه جويتين «بالكوزموپوليتانية» (العالمية)؛ فإنه يصرُّ على أن ما يسميه «الوطنية المحلية» (1999 I: 64) كانت مهمة أيضًا بنفس القدر للناس الذين تتحدث عنهم الجنيزا (1999.1:58).

«الوطن»

وهنا نأتى إلى واحد من أكثر الموضوعات سحرًا فى كل الموضوعات التى تضمها وثائق الجنيزا. فمن الواضح ـ دونما أى ظل من الشك ـ أن الشعب اليهودى فى الحضارة العربية الإسلامية، كما تقدمه وثائق الجنيزا، أغلبية اليهود آنذاك، الناس الذين حملوا التراث الدينى اليهودى من العصور التى يتحدث عنها الكتاب المقدس إلى اليوم الحالى، لهم مفهومهم الخاص، المحدد للغاية، عن «أرض الوطن» الذى يتناقض بشكل حاد مع المجالات الدائرة فى العصور الحديثة.

ويشعر المرء أن جويتين مدرك للتناقض. وعلى الرغم من أنه لم يكن ناقدًا سياسيًا

حديثًا، فإنه مهموم بالعلاقة بين الجماعات اليهودية فى الأراضى العربية الإسلامية و«أرض الوطن» وهويعود إلى الموضوع فى مناسبات ثلاث فى المجلدات الخمسة. وهو يصف «الطبيعة الهشة تمامًا» للدليل (40 :4 1999). وهو يركب المجادلات المعقدة بالأدلة القانونية لكى يقنع القارئ بأن يبدأ التفكير فى مفاهيم مثل «أرض الوطن» و«الأمة» بطريقة مختلفة تمامًا. وهو أساسًا يسألنا أن نطرح الصياغات الحديثة وأن نعيد التفكير مرة أخرى بعقلية اليهودى الذى تصوره الجنيزا. وهو لا يقول ذلك، ولكن يبدو أن الصيغ الحديثة لا ينبغى أن تؤخذ على أنها أكثر «تقدمية». وعلى العكس، يمكن المجادلة بشكل معقول بأن المفاهيم العربية الإسلامية واليهودية فى العصور الوسطى عن «الأمة» و«أرض الوطن» هى مفاهيم متقدمة عن مفاهيمنا.

ولننضم إلى جويتين وهو يقدم هذه الأفكار. وبينما القضية هى أن الإسلام يعتبر المسيحية واليهودية غير قادرتين على الوصول للحقيقة الدينية الكاملة، وهو ما يعنى أن التفرقة الدينية كانت موجودة باستمرار، على الأقل فى الفترة التى نناقشها، فإن هذا الموضوع نادرًا ما كانت له أية أهمية. حقًا كان على غير المسلمين أن يدفعوا ضريبة الجزية، بيد أن هذا كان مقبولاً باعتباره عبئًا حتميًا. وقد خلق قدرًا من التوتر أقل كثيرًا مما يمكن أن يتوقعه العقل الحديث. لقد كان جدلاً مع سلطات جباية الضريبة، ولكنك لم تكن لتلوم جارك المسلم، أو زميل الحرفة المسلم، أو شريكك المسلم فى العمل التجارى. وهنا نصل إلى التمييز بين «الأمة»[٣]، و«الوطن». إذ كانت الجماعات المسلمة والمسيحية واليهودية تشكل كل منها أمة منفردة، وكانت تشرف على معظم جوانب السلوك اليومى، بالمعنى الشخصى والدينى والقانونى: و«كانت جذور ذلك تتمثل فى المفهوم القائل بأن القانون شخصى وليس مرتبطًا بالأرض. وكان يتم الحكم على الفرد حسب شريعة جماعته الدينية، أو حتى مذهبه الدينى، وليس حسب قانون المنطقة التى تصادف وجوده فيها» (66 :I 1999). ويذهب جويتين إلى حد القول بأنه باستثناء بعض التشريعات المحلية «لم تكن لدى الدول قوانين»: «لأن سعى يهود إسپانيا أو فرنسا للحصول على «قرارات المحكمة العليا» فى القدس أو بغداد، أو فى القاهرة مع ابن ميمون وخلفائه فيما بعد، كان هو الأمر الطبيعى والعادى».

ولكن الجماعات الدينية المختلفة كانت تشترك فى وطن ما. و«بينما كان طبيعيًا

التعامل بشكل مختلف مع أتباع الديانة المختلفة، كان مما يدعو إلى الثورة أن تتم التفرقة ضدهم على أساس أنهم من المقيمين الدائمين فى نفس البلاد» (2:274 1999).
ويشرح جويتين هذا بتقديم ما يسميه توضحيًا «جميلاً» فى فقرة من خطاب كتبه قاض يهودى من برقة، فى شرق ليبيا، يعيش بالإسكندرية، إلى صديق فى القاهرة. وكان قصده أن ينضم إلى صديقه للقيام برحلة حج إلى بيت المقدس، ولكن الطريق لم يكن آمنا، والشتاء كان باردًا، «وكان قاضينا يحنٍّ إلى وطنه بشكل واضح». وغلب عليه الإغراء بأن يذهب إلى برقة بدلاً من ذلك. وفى خطابه يصف كيف أنه كان قد دفع فعلاً الرسوم عن نفسه وعن بضائعه فى قافلة كانت خارجة فى اليوم نفسه، وكان اليهودى الوحيد. وفى الخطاب، يصف كيف أن المسافرين الآخرين، ومعظمهم من أبناء برقة «وعدونى بالمعاملة المحترمة فى أماكن استخدام المياه ومراعاة السبت وما أشبه ذلك». ويعلق جويتين بأنه بعيدًا عن ثقته فى الرب، فإن حقيقة أنه كان يسافر بصحبة «بنى وطنه» هى التى منحت هذا اليهودى الوحيد الشعور بأنه سيكون آمنا (2:274 1999).

وبعد ذلك بقليل فى نفس الجزء، يلاحظ جويتين كيف أن الاتجاه الحتمى للاستبعاد فى أية ديانة، بسبب زعمه أنها وجدت الطريق الوحيد إلى الله، قد انهار «عندما يختلط الناس من أتباع الديانات المختلفة ببعضهم البعض اختلاطًا شديدًا». ويكتشفون «أن الجمهورية الخفية للناس المهذبين تمتد خارج الديانة والحزب والعرق..» هذه «الجمهورية الخفية» لا يجب رؤيتها باعتبارها تفلسفًا متسامحًا من لدن جويتين. على العكس، فإن جملته التالية مباشرة توضح أنه يضع تعميمات خرج بها من دراسة استمرت عشرات السنين لوثائق الجنيزا. فقد صادف خطابين مهمين فقط، أحدهما من مسلم والآخر من مسيحى واقتبس منهما، على التوالى:

«إن الحقيقة المدهشة فيما يتعلق بالجنيزا هى أن الاقتباسات مثل الاقتباسين اللذين قدمتهما نادرة للغاية. والحقيقة أننى حتى الآن لم أصادف خطابات أخرى من نفس النمط، ولا نجد فى أى مكان آخر أن المسيحيين والمسلمين يلعنون كجماعة، أو حتى يدور الكلام عنهم بما ينتقص من قدرهم». (276 :2 1999).

وفى المجلد السابق كان جويتين قد اقتبس مثلا عربيًا يوضح نفس النقطة. والواقع أن الفقرة تستحق أن نوردها كاملة:

فى تلك الفترة، كان اليهود يخالطون جيرانهم فى حرية، ومن ثم لم يكن ممكنًا أن يختلفوا عنهم كثيراً. لأنه كما يقول المثل العربى، الناس أقرب نسبًا لمعاصريهم من أجدادهم. ويبدو معقولاً أن الطبيب اليهودى فى القرن الثانى عشر، كان يعمل بمستشفى حكومى فى القاهرة أو فى حلب، كان من معظم الجوانب ممثلاً لمهنة الطب فى زمانه عامة، على حين كان صانع الزجاج اليهودى، أو نسَّاج الحرير، أو المشتغل بالمعادن، يستخدم نفس التقنيات ويشغل نفس المكانة الاجتماعية التى يشغلها رفاقه من العمال المسيحيين والمسلمين. والمساعدة المتبادلة، التى عبرت عنها القروض الصغيرة، تشهد عليها الجنيزا بأنها كانت سائدة بين أبناء الديانات المختلفة ولكن فى المهن نفسها. (1999 I: 71).

كان المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون متقاربين جداً من بعضهم البعض، وبدرجة أبعد كثيراً مما كان يمكن للمرء أن يفترضه اعتماداً على مصادرنا الأدبية (289 :2 1999). ونادراً ما يرد ذكر «الأحياء اليهودية» فى وثائق الجنيزا. والعلاقات الحميمة بين أتباع الديانات المختلفة، لا سيما فى القاهرة القديمة، يمكن البرهنة عليها من خلال الحقيقة القائلة بأن البيوت والدكاكين كانت مملوكة مشاركة بين أبناء الجماعات الدينية المختلفة (292 :2 1999). وفى القدس أيضا نقرأ عن منزل أو مجمع سكنى (حوالى سنة ١٠٤٠م) حيث كانت بعض الغرف مملوكة لشخص مسلم والبعض الآخر مملوكة ليهودى. وطبعًا كان يمكن أن تثار الشكوك والمصاعب بسهولة. هل يمكنك أن تشارك فى نفس البئر؟ لقد كانت النساء المسلمات تحتجبن بطريقة لم تكن تطبق على النساء اليهوديات. وكان لابد من وضع ترتيبات خاصة لضمان الخصوصية فى المكان. ولا شك فى أن الكثير من الترتيبات غير الرسمية كانت تتخذ. ولكن إذا ما كان هناك ما يدعو للشك، فقد كان بوسعك أن تشكو للسلطات الدينية المختصة.

وقد وافق ابن ميمون ـ شرعيًا ـ على التساؤل التالى الخاص بالشراكة بين مسلم ويهودى فى الورش، التى كانت إحداها لصياغة الذهب، وكانت الأخرى لصناعة الزجاج «ماذا يقول سيدنا، لقد اتفقوا فيما بينهم، على أن المكاسب التى تتحقق يوم الجمعة تكون لليهود ومكاسب يوم السبت تكون للمسلمين» (296 :2 1999). والواقع أن السلطات اليهودية هددت نجاراً يهوديًا بالضرب بالسياط حينما حاول أن يكسب من عماله المسلمين الذين يصنعون الأبواب يوم السبت (297 :2 1999).

وعاد جويتين إلى فكرة «الوطن» فى مجلد لاحق، ليصفه بأنه يعنى المدينة الوطن أو مدينة بقدر ما هى «وطن». وتبدو هذه ترجمة أفضل. إذ إنه يقدم التمييز المثير التالى: الوطن يعنى بلداً «وكانت البلاد مركبات سياسية غالبًا ما تغير حدودها وشخصياتها، أما المدن فكانت هى وحدات الحياة» (42 :4 1999). ومن الواضح أن القومية كانت ما تزال غير متخيلة. وما يتحدث عنه جويتين هو الإرتباط العاطفى بمسقط رأس المرء أو المكان الذى عشت فيه سنوات عديدة والعائلة المباشرة أو الممتدة وشبكة الأصدقاء والجيران وزملاء العمل مهما كانت ديانتهم.

بيد أن هذا يحمل مضامين دينية تتقاطع مع ثنائية (الأمة/ الوطن). فهذه شعوب دينية تحتاج إلى مباركة إلهية فى كل نواحى حياتهم. وثمة جملة فى الكتاب المقدس تقول عن مدينة القدس ما معناه الدعاء بأن يديمها الله إلى الأبد. ولكن جويتين عثر على خطاب فى الجنيزا يدعو فيه كاتبه بهذه البركة نفسها للقاهرة.

وهناك عبارة أخرى فى الكتاب المقدس «ميراث آبائى»، ربما يتخيل المرء أنها كانت مقصورة على مدينة القدس. وعلى العكس، عثر جويتين على حجاج يهود يكتبون الرسائل، وهم يقيمون بشكل مؤقت فى القدس، ومع ذلك يكتبون عن ذلك الميراث بطريقة غير متوقعة: «ندعو خالق الدنيا إلى أن يجمع شملنا فى فرح عندما أعود برعايته إلى وطنى وميراث أبائى». هذا ما يكتبه حاج يهودى فى القدس لصديق أو قريب له فى مراكش وطنه» (63 :1 1999).

ويصف جويتين بركات أخرى مرتبطة بالمدن والبلدات. ثم يطور المناقشة بالقول إنه فى القرون اللاحقة، صار من الشائع بالنسبة لمن يكتبون الخطابات من اليهود أن يدعوا بالبركة للجماعة وليس للمدينة. هذا التغير «كان انعكاسًا لتدهور العلاقات بين مختلف الجماعات الدينية» (2:42 1999). والمغزى واضح، وهو يمكن أن يحرك العواطف حتى فى أكثر العقول حداثة وعلمانية. وفى الفترة التى تغطيها وثائق الجنيزا كان كثير من اليهود على استعداد لأن يسألوا الرب البركة لجيرانهم المسلمين والمسيحيين.

ويصف جويتين كيف كان «الحنين إلى الوطن» موضوعًا عظيمًا أيضًا فى الشعر العربى القديم. إذ كان راسخًا فى الثقافة، بغض النظر عن الدين. ويستخدم كاتبو خطابات الجنيزا الكلمة العربية «بلديا» (بلدياتى) لوصف مشاعرهم واهتمامهم بسكان المدينة التى يعيش المرء بها. وهناك موظف يهودى مرموق من المغرب يكتب للسلطات اليهودية المصرية عن تاجر مسلم جاره تم اغتياله فى الطريق إلى اليمن، ويعلق بقوله: «لقد كان بلدينا وأنا قلق بشأنه بصفة خاصة» (2:45 1999).

ويختتم جويتين هذا القسم بتأنق ورمزية كبيرة. فهو يوضح المشابهات بين الملاحظات على حياة المدينة فى التلمود، المصدر الحيوى للشروح اليهودية للتوراة، وما كتبه الشعرانى، الصوفى المسلم الكبير الذى يشكر الله على «الخروج»، ببركة النبى من الريف إلى القاهرة(*) إن الرجل الذى يظهر فى الجنيزا كان كائنًا اجتماعيًا بشكل ظاهر: يجسد حكمة الشرق الأوسط القديمة «الصحبة الطيبة أو الموت» (4:42 1999).

التوترات الدينية

هل كان الشعور المعادى لليهود موجودًا طوال تلك الفترة كلها؟ نعم كان موجودًا، وفى الجنيزا كلمة خاصة بهذا هى كلمة «سينعوث» أى الكراهية. وعلى أية حال «فإن الظاهرة لم ترد الإشارة إليها فى أى مكان على أنها عامة؛ ويرد ذكرها فى كل مرة مرتبطة بجماعات معينة، أو مدن معينة، أو شخص محدد» (278 :2 1999). وكانت هناك أدلة كثيرة عليها فى الإسكندرية ولكن لم يرد دليل عليها فى أى مكان بالقاهرة. وكان يفترض أن أبرز توضيح للخلاف الدينى هو فرض ارتداء علامة من لون مغاير أو حزام أو عمامة ذات لون محدد مختلف. وهناك إشارات لا تحصى موجودة فى المصادر الأدبية العربية. وعلى أية حال، لم يكن جويتين قادرًا على أن يجد إشارة واحدة إلى هذا فى وثائق الجنيزا، على الرغم من الاهتمام المستمر بالملابس. وقد توصل إلى استنتاج أن هذه القاعدة كانت قد أسقطت أو تم تجاهلها على الأقل. (286 :2 1999).

(*) عاش الشعرانى بعد الفترة التى تغطيها الجنيزا بثلاثة قرون ـ المترجم.

كانت المنطقة الوحيدة التى يصطدم فيها الإسلام مع الديانات الأخرى صدامًا مريرًا هى مسألة التحول من دين لآخر. وكان يمكن النظر إلى الجزية باعتبارها تشجيعًا على اعتناق الإسلام. ويؤكد جويتين هذا القلق الذى سببته الجزية للناس الذين تتحدث عنهم وثائق الجنيزا.

«بينما كانت التطلعات إلى الوظائف الحكومية الكبرى فى الدوائر العليا بمثابة حافز لاعتناق الإسلام، ربما كان اعتناق الجماهير الإسلام فى الطبقات الدنيا ناتجًا بشكل جزئى عن العبء غير المحتمل للجزية»(*) (3-392 :2 1999).

ولم يجد جويتين دليلاً على اعتناق جماهير اليهود للإسلام فى تلك الفترة بالذات، ولكن «قسمًا مهمًا جدًا من الجماهير غير المسلمة كان بالقطع غير قادر على دفع الجزية وغالبًا ما كانوا يعانون الإهانة والحرمان بسببها». وفى الفترة اللاحقة أدت المضايقات الدينية الممزوجة بتلك الضغوط الاقتصادية بالتأكيد إلى اعتناق أعداد كبيرة الإسلام.

كان التحول إلى الإسلام مسألة خطيرة للغاية. فالمسلم المرتد يواجه عقوبة الإعدام. ومع هذا فإن موسى بن ميمون فضل صراحة أن يعود إلى اليهودية(**). وتحتوى وثائق الجنيزا على خطابين منه أن اثنين ارتدا حديثًا عن الإسلام واضطرا إلى الهجرة خوفًا على حياتهما. ومما يلفت النظر أن معظم من اعتنقوا اليهودية ممن ذكرتهم أوراق الجنيزا من المسيحيين الأوروپيين (304 :2 1999).

على أنه من الحماقة وسيكون تضليلا أن نتجاهل هذا الجانب الكئيب والأكثر إثارة للمشكلات فى حياة اليهود فى المجتمع الإسلامى فى العصور الوسطى، فإن التوازن البادى فى وثائق الجنيزا إيجابى إلى أبعد الحدود.

(*) الجزية لها ثلاث درجات، مع إعفاء غير القادرين والنساء والأطفال منها، ولم تكن تشكل عبئًا على اليهود والمسيحيين. ومن ناحية أخرى، فإن يهود أوروپا، آنذاك، كانوا يدفعون ضرائب باهظة ويتعرضون لمصادرات كثيرة ولم يحدث أن كانت أعداد كبيرة منهم تتحول إلى المسيحية. وهناك مسألة أشارت إليها المصادر التاريخية كثيرًا؛ وهى أن اعتناق بعض كبار اليهود الدين الإسلامى كان يتبعه على الفور اعتناق عدد كبير من عامة اليهود للإسلام ـ المترجم.

(**) اعتنق موسى بن ميمون الإسلام طمعًا فى المنصب الذى حظى به فى بلاط صلاح الدين الأيوبى، وعندما اكتشف أنه لم يكن مسلمًا حقًا سمح له السلطان بالعودة إلى دينه الأصلى دونما عقاب، ولم يكن فى الأمر شجاعة من موسى بن ميمون حسبما يوحى جويتين ـ المترجم.

وثمة معيار فريد ليس لمجرد النجاح اليهودى، ولكن للإسهام الخاص جدًا فى الحضارة العربية الإسلامية فى تلك الفترة، نجده فى المشاركة اليهودية الفعالة فى مهنة الطب.

والمراسلات الخاصة التى تحفظها وثائق الجنيزا «تزخر بالإشارات إلى المشورة الطبية التى كان الناس يسعون إليها وغالبًا ما كانوا يدفعون فيها آخر ما يملكون». وفى أوراق الجنيزا . . . «نجد طبيبًا يهوديًا، وغالبًا أكثرمن واحد، فى كثير من المدن الصغيرة أو القرى الصغيرة، ومن حين لآخر يرد ذكر الزملاء المسيحيين والمسلمين كذلك». (1999 2: 241).

وتشكو سجلات الشرطة فى القرن الثالث عشر من أن الكثير من المدن لا يوجد بها سوى أطباء من المسيحيين أو اليهود(*). كما أن الإسهامات المسيحية واليهودية فى النصوص الطبية العربية كانت خارجة عن أى تناسب مع أعدادهم. وكان لدى أول خليفة فاطمى يحكم مصر والبلاد المجاورة طبيب يهودى هو موسى بن العازر. وكان موسى يهوديًا إيطاليًا أسره الفاتحون المسلمون ثم أخذوه إلى تونس، وقد طور «تآليف مدهشة صنعت الأعاجيب» فى تونس. (243 :2 1999). وكان ناجحًا جدًا لدرجة أنه كان قادرًا على تطوير عائلة من الأطباء الذين توارثوا المهنة، إذ إن اثنين من أبنائه، وواحدًا من أحفاده خدموا الخلفاء. ويصف جويتين كيف أن الجماعات اليهودية ذاتها كانت لها قيادات من الأطباء.

وأشهر طبيب يهودى وزعيم لجماعته كان موسى بن ميمون، الذى كان طبيبًا لصلاح الدين. وجويتين فى رهبة من ابنه إبراهام الذى كان أيضا طبيبًا للخليفة (وثمة ملاحظة فى الجنيزا من طبيب مسلم يمتدح مهارته الطبية الممتازة) بحيث يكتب سيرته فى صورة تفصيلية.

(*) على الرغم من تخصصى فى هذه الفترة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فإننى لم أسمع أن هناك «سجلات للشرطة»، فضلاً عن أن طبيعة هذه المؤسسة وطريقة عملها فى تلك الفترة لم تكن ذات مهام ثابتة بحيث يكون لها سجلات وكانت مهامها مرتبطة بالوالى أحيانًا، وبالمحتسب أحيانًا أخرى، وبصاحب الشرطة فى أحيان ثالثة. وفى كل الأحوال كانت مسئولة عن الأمن والنظام العام، على حين كان الطب والمستشفيات خارج مسئوليات الدولة وكان ممولاً من خلال الأوقاف ـ المترجم.

كان إبراهام شخصية معقدة إلى حد كبير. ويكتب جويتين أنه كان يناضل من أجل «كل شيء جدير بالثناء» فى مجتمع الجنيزا. فمن ناحية كان متعمقًا فى اليهودية من كل الجوانب «وكان نموذجًا للاستقامة المتعلمة» (245 :2 1999). ومن ناحية أخرى، «كان شديد الاعجاب بالمتصوفة المسلمين، وذهب إلى حد القول أن بعضهم كانوا أجدر بأن يكونوا من أتباع أنبياء بنى إسرائيل من كثير من يهود هذا اليوم». (278 :2 1999). وكان أيضًا مخلصًا للعلم مع مقاربة متحمسة للدين» (243 :5 1999).

وبينما كان انبهار إبراهام بالصوفية والتصوف، واستعداده لإعلان مثل هذا الإعلان المثير للغضب، يبعث على الاهتمام، فإن إيمانه العميق بالعلم، والمبدأ الذى ينادى به، هو الذى يهمنا أكثر من غيره فى النهاية:

كان الأطباء فى عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى هم حملة المشاعل فى مجال المعرفة العلمانية، وهم المدافعون المحترفون عن الفلسفة والعلم. وبينما كان المشرعون يدرسون الشرائع المقدسة لدياناتهم ويطبقونها، ومن ثم كانوا محدودين بالنظرة التى تحكم مهنتهم، كان الأطباء تلاميذ الإغريق، وباعتبارهم ورثة تراث عالمى شكلوا أخوة روحية علت فوق حواجز الدين واللغة والبلاد.

وربما لم يكن دافعهم النبيل باعتبارهم حملة العلم كافيًا لأن يضفى على مهنة الطب هالة المهابة الاجتماعية التى حظيت بها فى الفترة التى يدرسها هذا الكتاب. لأن الهم الرئيسى للرجل فى تلك الأيام كان الدين، ومن ثم كان الامتياز فى هذا المجال هو الذى يُشرِّف أكثر من غيره. بيد أن الطبيب كانت له ميزة أخرى. إذ كان كل طبيب متميز تقريبًا عضوًا أيضًا فى حاشية خليفة أو سلطان أو وزير أو قائد أو والٍ. كان يشارك فى مجد عظماء دنياه دون أن يكون متورطًا فى جرائمهم وأساليبهم الكريهة فى القهر.

لماذا كان حكام العصور الوسطى - والكثير منهم عسكريون ذوو تعليم عسكرى ضئيل - يهتمون بجذب هذا العدد الكبير من الأطباء فى بلاطهم؟ والإجابة هى أن أولئك الجنود الغلاظ لم يكونوا قادرين على الهروب من روح عصرهم. ففى تلك العصور كان الإيمان الهائل بالكتب، وبالكتب القديمة على وجه الخصوص، سائدًا،

وكان الأطباء هم الذين يعرفون الكتب. وكلما زاد عدد الأطباء المحيطين زادت المعرفة المتاحة، وتحسنت آفاق استخدامها بشكل مفيد (241 :2 1999).

«حتى أولئك الجنود الغلاظ لم يتمكنوا من الهروب من عصرهم..».

ومن الجدير بنا أن نتذكر - ونحن نختتم هذا الفصل - أن روح العصر كانت تضرب بجذورها فى الثورة الإسلامية التى كانت قد جرت قبل عدة قرون. ويذهل المرء من التشابه بين ملاحظات جويتين المبنية على أساس استغراقه فى وثائق الجنيزا وفخره الضمنى بإسهام اليهودية، وملاحظات المؤرخ العربى ألبرت حورانى الذى يدرج كتابه المعنون History of the Arab Peoples ضمن قائمة الكتب التى توصى جمعية اليهود العرب من الفنانين والكتاب بقراءتها.

ويكتب حورانى، وهو يناقش الترجمة من الفلسفة اليونانية إلى العربية ويعلق على تأثير المؤثرات الإيرانية والهندية:

«ربما كانت الدوافع.. عملية جزئيًا؛ إذ كانت المهارة الطبية مطلوبة، كما كان يمكن للسيطرة على القوى الطبيعية أن تجلب القوة والنجاح. وعلى أية حال كان هناك أيضًا فضول عقلى وفكرى أوسع نطاقًا، كما عبرت عنه كلمات الكندى (٨٠١ - ٨٦٦) وهو مفكر يبدأ معه فعليًا تاريخ الفلسفة الإسلامية:

لا يجب أن نخجل من الاعتراف بالحقيقة أيًا كان مصدرها، حتى لو جاءت إلينا من الأجيال السابقة ومن أقوام غرباء، فليس هناك أغلى من الحقيقة ذاتها لدى من ينشدها» (Hourani 1999 1:76-7).

***

الفصل الخامس

«أرض بلا شعب..»

وفقًا لأسطورة صهيونية قوية، كانت فلسطين «أرضًا بلا شعب»، ومن هناك كانت مناسبة بصفة خاصة «لشعب بلا أرض»؛ لا سيما عندما استطاعوا أن يزعموا أنها «أرض أجدادهم». وسوف نناقش فى الفصل التالى ما إذا كان اليهود «شعبًا بلا أرض» حقًا.

وهذا الفصل حول الفلاحين الفلسطينيين الذين عاشوا على مدى القرون فى هذه الأرض الخاوية. فهل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ هل كان الصهاينة يكذبون ببساطة؟ هل كان الناس موجودين وغير موجودين فى الوقت نفسه على نحو ما؟. هذا ما يقوله رئيس وزراء إسرائيل شمعون بيريز زعيم حزب العمل سنة ١٩٨٦م:

«إن الأرض التى جاء إليها المستوطنون اليهود، وهى فعلاً الأرض المقدسة، كانت جرداء وغير جاذبة؛ أرض كانت قد تركت خرابًا مليئة بالمستنقعات والملاريا، تفتقر إلى الموارد الطبيعية.وفى الأرض نفسها عاش قوم آخرون، قوم أهملوا الأرض ولكنهم عاشوا عليها. والواقع أن العودة إلى صهيون كانت مصحوبة بعنف لا يتوقف فى صدام مع السكان العرب القليلين..» (Said 1988: 5).

حسنًا، نعم كان هناك أناس يعيشون هناك، قوم بلا اسم، وعددهم «صغير» وقد «أهملوا» الأرض على أية حال.

وفى الكونجرس الصهيونى الثانى، الذى عقد سنة ١٨٩٨م، فى مدينة بازل فى سويسرا، سُمعت قصة أخرى مختلفة مؤداها أنه كان هناك ٦٥٠ ألف عربى يعيشون على الأجزاء الأكثر خصوبة من «أرضنا» (Gilbert 1998: 17).

والحقيقة، كانت هناك فى السنوات الأخيرة بعض التقارير الأكثر أمانة كتبها عدد

قليل من الذين يمثلون التيار الرئيسى فى الصهيونية . وواحد من أكثرهم إثارة للاهتمام هو نائب عمدة القدس السابق، ميرون بنڤنستى، الذى يكشف كتابه Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land Since 1948 (2000) . عن التلاعب الأيديولوچى الفظ الذى مارسه صانعو الخرائط الصهاينة ودورهم فى التعمية على قرى الفلاحين الفلسطينيين . فقد كان أبوه واحدًا منهم، وكان بنڤنستى يصاحبه وهوصبى فى مهمته لعمل الخرائط . وتستمر التجربة تلاحقه وقد صورها بشكل جيد فى كتابه :

«أتذكر المرة الأولى التى شعرت فيها بمأساة الفلسطينيين تخترق درعى الصهيونى . فبعد حرب سنة ١٩٤٨م بخمس سنوات . . . وأنا أقيس المياه الجوفية، ذهبت للتفتيش على بئر قرية رانا، بالقرب من بيت چبرين، وتذكرت المكان من رحلة قمت بها مع والدى، وقد صدمنى الخراب ـ كانت المنازل الخاوية ما تزال شاخصة، شبح قرية كانت تنبض بالحياة من قبل . جلست وظهرى مسند إلى حوض المياه القديم وتساءلت أين كان القرويون؟ وماذا كانت مشاعرهم؟» .

وكان مقيضًا لبنڤنستى أن يكتشف الإجابة بعد خمسة عشر عامًا بعد الاحتلال الإسرائيلى للقدس سنة ١٩٦٧م . فقد زار معسكرًا للاجئين بالقرب من المدينة وقابل أحد الناجين من رانا :

«فجأة رأيت أمام عينى جغرافية طفولتى . . ولم أستطع مشاركتهم الإحساس بالخسارة، ولكن استطعت مشاركتهم الحنين العميق إلى موطنهم ممزوجًا بالألم من جراء خسارة الأرض والإحساس المزعج بالذنب، لأن انتصارى كان مصيبة عليهم» .

وسأل نفسه السؤال النهائى الذى يجب على كل صهيونى أن يطرحه: «هل حولنا الصراع من أجل البقاء إلى عملية تطهير عرقى، بحيث نرسل الناس إلى المنفى لأننا نريد أن ننهب أرضهم؟» (Benvenisti 2000: 3) .

البحث عبثًا عن الفلاح الفلسطينى

لقد وضع بيريز كلمة «إهمال» بدلاً من كلمة «فراغ» . وهما ليسا نفس الشىء،

ولكن عادة يخدمان نفس الغرض فى تبرير السلوك الصهيونى . كان الأمر يبدو كما لو أن الأرض كانت خاوية لأن العدد «الصغير» من الناس هناك قد «أهملوها» . والصهيونية سوف تستعيد الشعب اليهودى مثلما استعادت الأرض . وقد لعب بن جوريون على موضوعات مماثلة . كانت الأرض «حبيسة» على مدى ألفى سنة وكان العرب «مخربين» (انظر الفصل الأول) . ولكن على أية حال ، فإن كلمة « يهمل» حافزة لمناقشة أوسع . إنها تقودنا إلى مفهوم أوروپا (ومفهوم الصهيونية كجزء من الأيديولوچية الأوروپية) عن الشرق الأوسط عند منعطف القرن العشرين ، وهو مفهوم تم تلخيصه على نحو ألمعى فى كلمة وكتاب على السواء : وهو كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد - أى انبهار أوروپا - بـ «المشرق» ، والرغبة فى السيطرة عليه ، وهو الشرق الأوسط ، والشرق الأقصى الذى أسبغت عليه الإثارة بصفة خاصة لأنه كان دائمًا ممزوجًا بتوابل الخطر .

إن «جوهر الاستشراق هو التمييز المتأصل بين التفوق الغربى والدونية الشرقية» (Said 1995: 42) .

وإحدى مزاعم النزعة الاستشراقية الأشد تأثيرًا هى أن المجتمعات «الشرقية» حتى على الرغم من أنها تحفظ ميراثًا ثقافيًا مدهشًا ، قد صار جامدًا على مرِّ القرون ، و«أهمل» ، وغير قادر بصفة خاصة على التوافق مع نبضات التحديث الغربى .

ومعظم الشرق الأوسط ، بما فيه فلسطين ، منذ بواكير القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين ، كان جزءًا من بناء سياسى اقتصادى ودينى ، عرف باسم الدولة العثمانية ، التى كانت تسيطر على هذا البناء من عاصمتها استانبول .

ويكاد مصطلح عثمانى أن يكون مرادفًا للاستشراق . ومع كل هذا فإن الإمبراطورية العثمانية هى التى جاءت بالإسلام إلى داخل أراضى وسط أوروپا . ومن المؤكد أنها كانت «خطرًا» ، و«تهديدًا للحضارة المسيحية» ولكنها كانت على الدوام «مبهرة» . وكان المسرح فى انجلترا عصر النهضة مفتونًا بالحكايات من ميادين المعارك الأوروپية عن المعارك بين العثمانيين المسلمين والمسيحيين . ((Said 1995: 61) . وبعد ذلك بعدة قرون ، كانت أوروپا تستمتع «بالتدهور» الواضح للعثمانيين (Said 1995: 207) ،

وجاء فرسان على خيولهم البيضاء، بالمعنى الحرفى أحيانًا، لإنقاذ الشعوب الخاضعة للإمبراطورية العثمانية. وهكذا منحنا الشطر الباكر من القرن العشرين الحكايات الرومانسية عن عميل المخابرات العسكرية البريطانية، لورنس العرب، الذى يقود العرب فى نضالهم ضد القهر العثمانى، وهى رواية استشراقية كلاسيكية لا وجود لها فى الواقع. وبطبيعة الحال، كان البريطانيون، وليس الصهاينة، هم الذين «حرروا» فلسطين «الأرض المقدسة» من العثمانيين.

وسرعان ما اكتشفت المقاومة القومية العربية ضد السيطرة البريطانية والفرنسية على أراضيهم الاسم السياسى المناسب للاستشراق الأوروبى: وهو الاستعمار والإمبريالية. ومع هذا فإن القوميين العرب كانوا يشاركون قاهريهم الجدد شيئًا ما، وهو الرغبة فى التحديث. وبطبيعة الحال كان الفرق هو أن الزعامة العربية البازغة على المستوى السياسى كانت تريد أن تفرض السيطرة على عمليات التحديث وتشكل مصيرها الخاص، وهو أمر مفهوم.

وعلى أية حال، فعندما يتعلق الأمر بفهم تاريخهم الخاص، وهوأمر مهم لبناء حركة مقاومة شعبية، كان القوميون العرب أحيانًا يقعون دونما قصد فى حبائل المفهوم الاستشراقى عن ماضيهم. وعداوتهم التى يمكن أن تفهم أسبابها تجاه قرون من الحكم العثمانى، كانت تقنعهم أحيانًا بالاعتراف بالصورة الاستشراقية عن الإهمال والجمود، وبأن يروا أنفسهم، أو بالأحرى الأجيال التى سبقتهم باعتبارهم ضحايا سلبيين وقعوا فى فخ التدهور العثمانى (Poppe 1999: 18)[1]. وهذا ما جعل من الممكن إضفاء مصداقية على مقولة «إهمال الأرض»، والتى يمكن أن تبدو مماثلة لمقولة «التدهور تحت الحكم العثمانى».

ومن المؤكد، على الرغم من قرن مقاومة الفلاحين الفلسطينيين للصهيونية، فإننا ما ما زلنا نعرف قدرًا أقل مما يجب عن تاريخ الفلاح الفلسطينى، الذى كان بالتأكيد فاعلاً قويًا ومؤثرًا فى مصالحه الخاصة بالمنطقة قبل وصول الصهاينة. وما زالت معلوماتنا أقل كثيرًا مما يجب عن كيفية نجاح الفلاحين فى زراعة الأرض وكيف كانوا على استعداد للتعامل مع ضغوط التحديث. وعلى أية حال، فإن هذا كله بدأ يتغير فى السنوات

الأخيرة. وبدأ جيل جديد من المؤرخين الفلسطينيين فى تناول المشكلة. وثمة إسهام متميز بشكل خاص يتمثل فى كتاب بشارة دومانى بعنوان Rediscovering Palestine، والذى يمثل جوهر هذا الفصل. وجد هذا المؤرخ الفلسطينى البارز صوتًا يعبر عن الفلاحين الفلسطينيين فى القرن التاسع عشر، وأتاح لهم أن يبرزوا بعد قرن من الإهانات التى وصمتهم ظلمًا بأنهم كانوا خارج التاريخ[٢].

إعادة اكتشاف فلاحى فلسطين

العنوان الفرعى لكتاب دومانى هو «التجار والفلاحون فى جبل نابلس ١٧٠٠ ـ ١٩٠٠م». ومدينة نابلس القديمة، والمنطقة الخلفية لها ككتلة واحدة كانت تشكل وحدة منفصلة تُعرف باسم جبل نابلس على مدى عدة قرون. وكانت تشكل بنية تحتية قوية فيما سيصبح معروفًا باسم فلسطين الحديثة. ويجادل دومانى عن قناعة بأن تتبع تاريخ فلسطين فى الفترة السابقة على المستوطنات الصهيونية من خلال جبل نابلس أمر أبعد تأثيرًا بكثير من محاولة رؤيتها من خلال عيون القدس، على الرغم من أننا سوف نحتاج إلى دراسة ألقدس فى هذا الفصل فيما بعد:

«أثناء القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر، كانت مدينة نابلس المركز الرئيسى للتجارة والصناعة فى فلسطين. كما أنها كانت تعول عشرات من القرى الواقعة فى وسط مناطق التلال التى كانت تمتد من الجليل إلى الخليل وكانت سكنًا لأكبر مجتمعات الفلاحين وأكثر استقرارًا منذ العصور القديمة» (Doumani 1995: 1).

وبمعنى أوسع، كانت هناك بحلول منتصف القرن التاسع عشر، حوالى ثلاثمائة قرية تدير وجوهها شطر نابلس، وهى مساحة معتبرة. وكانت هذه القرى تمتد بطول السهل الساحلى من حيفا إلى يافا فى الغرب، إلى عجلون والبلقاء وراء نهر الأردن فى الشرق، وكذلك محور يمتد من الشمال إلى الجنوب من الجليل إلى تلال الرملة والبيرة (Doumani 1995: 30). وكان هذا يتضمن مرج ابن عامر (والذى يُعرف فى إسراذيل بوادى إسرائيل).

«أكثر السهول خصوبة فى فلسطين كلها، فى المنطقة الخلفية لجنين التى اشتهرت

بمحصولاتها الوفيرة من الحبوب، وكذلك بجودة التبغ الذى تزرعه والبطيخ والقطن. وكانت لهذا الوادى الفسيح أيضا أهمية استراتيجية: فقد كان يشكل أوسع ممر يربط الساحل بالداخل ويتفرع عنه واحد من طرق التجارة الرئيسية إلى دمشق. وعلى ترابه جرت معارك شهيرة عديدة، منذ عصر الفراعنة إلى . . . صلاح الدين و . . ضربته الحاسمة التى أنزلها بالجيوش الصليبية» (Doumani 1995: 31).

وفى القرن التاسع عشر صار السهل، وبلدة السوق القديمة به وهى الناصرة، بؤرة الصراع المسلح بين العشائر الحاكمة من جبل نابلس والجليل (Doumani 1995: 31, 41-2) وفى القرن التاسع عشر، صارت متمركزة بأيدى الكبار ملاك الأراضى الذين كانوا ينتجون كميات كثيرة من الغلال للسوق العالمى. وسوف نتناول بالتفصيل فى هذا الفصل الضغوط على صغار الملاك من الفلاحين لكى يسمحوا بحدوث هذه العملية. وقد برهنت إحدى عمليات شراء الأراضى الكبيرة بوجه خاص فى هذا السهل، والتى قامت بها عائلة تجارية مسيحية لبنانية من أصول يونانية هى عائلة سورروق، على أنها كارثة لا ترد على جميع الطبقات الاجتماعية فى فلسطين، لأنه فيما بعد، تمت إعادة بيع الأرض إلى المستوطنين الصهاينة (Doumani 1995: 270n. 54).

وفكرة أن المدينة تحقق استقرار القرى، «الجبل» فى جبل نابلس، تساعدنا على فهم مجتمع قوى، مستمر، وقائم على أساس إقليمى مكون من التجار والفلاحين ويتغذى على القدرة الإنتاجية للأرض. وقد تحول أيضًا ليكون قاعدة إنطلاق ناجحة فى قيادة الاستجابة للتحديات لسوق المنتجات الزراعية للفلاحين والتى فرضها تدخل الغرب الأوروبى.

وقد أدى توقيع معاهدة ١٨٣٨م للتجارة الحرة بين انجلترا وتركيا، والتى أعقبتها «التنظيمات»، وهى برنامج الإصلاح السياسى والإدارى والمالى للإمبراطورية العثمانية، إلى تسارع تأثير الضغوط الأوروبية الغربية (Doumani 1995: 106). بيد أن الفلاحين الفلسطينيين برهنوا على أنهم لا يخشون شيئًا من التجارة الحرة:

«فى الربع الثالث من القرن التاسع عشر، تولدت فوائض زراعية كبيرة حيث كانت المنتجات الفلسطينية من القمح، والشعير، والسمسم وزيت الزيتون، والصابون

والقطن تباع فى السوق العالمى. وعند هذه المرحلة زادت الصادرات عن الواردات من البضائع الأوروبية المصنعة آليا» (Doumani 1995: 4).

وقد استولت القدرة الإنتاجية لجبل نابلس، وكذلك جماله المذهل، على خيال زوار المنطقة من الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى، إلى الشباب الإنجليز الباحثين عن المغامرة فى القرن التاسع عشر:

«كانت تقع بين جبلين شديدى الانحدار فى واد ضيق ولكنه غزير النبات ويحيط بها حزام عريض من الغابات الصغيرة، ومزارع الكَروم، وبساتين الفاكهة، وعدد من أشجار النخيل المتناثرة. هذه هى مدينة نابلس القديمة التى طالما وصفت بأنها تشبه «قصرًا فى حديقة» على حد تعبير شمس الدين الأنصارى فى القرن الرابع عشر.

والسر هو الماء ـ السبب الأساسى فى أن نابلس كانت قادرة على أن تعول عددًا كبيرًا من السكان ونطاقًا واسعًا من مؤسسات الصناعة. فقد تم حفر قنوات لحمل مياه عيونها الاثنتين والعشرين المتدفقة لكى تصب فى الفسقيات العامة بالمدينة، وأفنية المساجد، والحدائق، ومعامل دباغة الجلود، ومعامل الصباغة والفَخَّار، وكذلك البيوت الخاصة للأثرياء. كذلك كانت المياه تحمل إلى الوادى الذى يمتد طوله ١٢٢٠ متر لتسير فى قنوات مائية تجاه الغرب.

كانت تغذى قنوات الرى وتدير الأحجار المستديرة الضخمة لمطاحن الغلال. وفى حرارة الصيف كانت المياه المتبخرة تشكل غلالة زرقاء رقيقة من الضباب تغلف المدينة وتزيد من سحرها.

ولا يمكن المبالغة فى جمالها.. وعناقيد البيوت ذات الأسقف البيضاء المستكينة فى أحضان كتل من الأشجار، والزيتون، والنخيل والبرتقال، والمشمش، وكثير غيرها مما يضفى تنوعًا على سجادة المشهد بكل ظلال اللون الأخضر.. وكل شىء طازج وأخضر، وناعم، ويجسد صورة، مع الخضرة والظلال والماء فى كل مكان.. وثمة ضباب أزرق رقيق منبثق من العيون ومنافذ البخار.

هذا ما كتبه تريسترام (H.B. Tristram, London 1881-2). وعبارة «دمشق الصغيرة»، التى يستخدمها سكان نابلس باستمرار لوصف مدينتهم، تلخص المشهد، والإحساس وجوهر المدينة» (Doumani 1995: 22).

ويوافق المبجل چون ميلز على هذه العبارات العاطفية المتوهجة: «والسكان فخورون بها للغاية، ويظنون أنه لا يوجد مكان فى العالم يضاهيها» (Doumani 1995: 21) كان ميلز فى مهمة خاصة فى نابلس. فقد أتى إليها للبحث فى أمر جماعة صغيرة من السامرة، هم بالفعل الوحيدون ممن بقى من الناس الذين يزعمون أنهم ينحدرون من نسل السامرة الذين تحدث عنهم الكتاب المقدس. وأحد الجبال المنحدرة التى تطل على نابلس والذى يسميه الكتاب المقدس جبل شيكيم (Benvenisti 2000: 13)، هو جبل جرزيم، المركز الروحى للسامرة. ويبدو أن السامرة قد بقوا جزءًا من جماعة نابلس على مدى ما يزيد على ٢٠٠٠ سنة. وفى القرن التاسع عشر كان لهم الحى الخاص بهم هناك. وكانت قلة منهم تعمل كتبة أو محاسبين فى الحكومة، وكان منهم واحد أو اثنان من التجار الأثرياء، ولكن معظمهم كانوا فقراء نسبيًا من تجار التجزئة أو من الحرفيين. (Doumani 1995: 23).

كانت هناك أيضًا جماعة مسيحية صغيرة، وكذلك وُجدت جماعة يهودية صغيرة العدد فى نابلس فيما مضى، وهو ما يدل عليه ذلك الطريق الصغير الذى اتخذ شكل الدرج قرب السوق المركزى، وكان يسمى «درج اليهود» (Doumani 1995: 267n. 22).

ألم يتم تبرير ذلك القدر القليل من التساهل الاستشراقى هنا، وإن يكن معكوسًا؟ لأن من المؤكد أن هناك سخرية فى أن قلب فلسطين أواخر العصور الوسطى وبواكير العصور الحديثة كان فى نابلس، فى ظل الجبل السامرى العظيم، الذى كان منذ ألفى سنة مضت المركز الروحى «للإسرائيليين» المنشقين، الذين نفاهم الأحبار اليهود فى القدس (انظر الفصلين الأول والثانى). وهنا ثمة اتساق شعرى، إن لم يكن تاريخيًا، على الأقل. وكم كان مناسبًا أن يعتبر السامريون الموجودون فى نابلس الآن أنفسهم فلسطينيين وليسوا إسرائيليين[٣].

المقاومة المسلحة من جبل النار

كان لجبل نابلس، وما يزال، اسم آخر هو «جبل النار». وهو اسم يشهد على ولاء إقليمى حار وعلى حماسة السكان المحليين واستعدادهم لحمل السلاح لحماية أسلوب حياتهم.

فى سنة ١٧٩٨م جاء نابوليون بونابرت إلى القاهرة، وقصد غزو فلسطين. وكتب الشيخ يوسف جرار، «متسلم» ناحية جنين قصيدة يحض فيها زملاءه من زعماء جبل نابلس على الاتحاد تحت راية واحدة ضد القوات الفرنسية. وعلى الرغم من أن الشيخ جرار كان يطيع الأوامر الصادرة إليه من أعلى، فإن التزاماته الحقيقية كانت محلية حسبما عبَّر عنه فى دعوته للبيوت والعائلات فى الحضر والعشائر فى الريف:

يا بيت طوقان سلّوا سيوفكم(*)

وامتطوا خيولكم الغالية

يا بيت غر، أيها النمور القوية، قووا صفوفكم الباسلة

عبئ رجالك يا محمد عثمان

واجلب الخيل من كل النواحى

وأنت يا أحمد القاسم، أيها الأسد الجسور

تصدر الصفوف المتقدمة

«ولم يحدث مرة واحدة أن ذكرت القصيدة فى أبياتها الواحد والعشرين الحكم العثمانى، مما يدل على أنه لم تكن هناك الحاجة إلى حماية الإمبراطورية أو المجد. . فى خدمة السلطان هى الدافع» (Doumani 1995: 17). لقد كان الشيخ جرار ابنًا لإحدى تلك العائلات المحلية الحاكمة. وكان على العثمانيين أن يعتمدوا عليهم للحفاظ على حكمهم، ولكن هذا كان يعنى أيضًا أن التوترات مع هياكل السلطة الأعلى فى الإمبراطورية لم تكن أبدًا بعيدة عن السطح. وتكشف القصيدة عن افتراض أن العائلات الحاكمة كان بوسعها تعبئة الميليشيات المسلحة من الفلاحين المحليين. وعلى الرغم من أن هذه الروابط ستترهل بمرور الزمن، فإن تقاليد الفلاحين فى الدفاع المسلح عن مناطقهم سوف تتعمق، بما يحمله ذلك من مضامين خطيرة بالنسبة للقوى الحاكمة فى القرن العشرين: أى بريطانيا وإسرائيل.

ولقد لعب جبل النار دورًا رئيسيًا سنة ١٨٣٤م ضد القوات المصرية الغازية.

(*) هذه ترجمة اجتهادية؛ لأننى لم أعثر على نص القصيدة باللغة العربية ـ المترجم.

وفى ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م ضد الحكم البريطانى .

وفى الانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلى والتى تفجرت فى سنة ١٩٨٧م (Doumani 1995: 22) .

نقل المحصول إلى السوق: الفلاحون والتجار

كانت نابلس، مدينة، بيد أنها كانت مدينة فلاحين :

«إذ كانت إيقاعات الحياة فيها تعكس التقويم لجماعة الفلاحين. فالحركة الناشطة المزدحمة لأطنان الزيت التى توضع فى الآبار تحت الأرض فى المبانى الضخمة لمصانع الصابون بعد جنى محصول الزيتون فى الخريف، مثلاً، لم يكن يفوقها سوى جمع القطن الخام الذى كان يصل إلى المدينة لكى يتم حلجه وغزله فى الصيف. لم يكن ثمة خط حاد يفصل بين المدينة والريف. فقد كانت نابلس تشبه بطريقة ما قرية كبيرة جداً. فعند شروق الشمس، كان كثير من النابلسيين يعبرون بوابات المدينة لكى يعملوا فى مزارع الزيتون والكروم والبساتين التى كانت تغطى المنحدرات التى تشبه الشرفات، وكذلك فى الحقول، ومزارع الخضروات، وطواحين الغلال التى كانت متناثرة خلال الوادى. وفى اتجاه معاكس، كان فيض من الفلاحين يصبُّون فى المدينة لكى يبيعوا بضائعهم ولكى يبحثوا عن ملابس الزفاف، وأدوات العمل، وأوانى الطبخ، والأرز، والقهوة والعديد من الأشياء الأخرى. . وكان كثير منهم يبقون بالمدينة أيامًا قليلة. . لكى يصيروا أكثر اعتياداً على. . . مئات الدكاكين. . والأسواق المغطاة لتجار المنسوجات. . والجوامع المركزية الخمسة. . والحصون الكبيرة التى تشبه إلى حد كبير المجمعات للأسرات الحضرية الحاكمة، آل نمر، وآل طوقان، وآل عبد الهادى» (Doumani 1995: 26-7) .

وفى الأراضى التى تشكل ظهير نابلس كان الفلاحون قد تعلموا على مدى آلاف السنين أن يستفيدوا من كل ملمح طبوغرافى فى الأرض. فقد كانت الحقول تزرع بالغلال والخضروات، وكانت التلال تمهد على شكل مصاطب وتزرع الأشجار، أما الأرض الصخرية الأكثر ارتفاعًا فكانت تستخدم للرعى. وحتى العقود الأخيرة من

الحكم العثمانى، كان معظم الفلاحين من صغار الملاك، على الرغم من أن حقوقهم القانونية فى الأرض بقيت غير واضحة[٤].

وقد عاش الفلاحون فى مناطق التلال فى جماعات قروية متقاربة كانت تختلف من حيث الحجم ما بين عشرات قليلة إلى مئات قليلة من السكان. وكانت معظم القرى تتكون من عشيرتين إلى أربع عشائر فى المتوسط وبعض العائلات الممتدة. وكان أساس التضامن الجماعى هو تنظيم المجتمع الفلاحى فى عشائر (حمولة، حمولات): وهى جماعات سلالية يعتقد أنها تنحدر من جد مشترك. وكان نظام العشيرة (الحمولة) يوفر شبكة أمان كانت تساند العائلات المفردة فى أوقات الشدة، وكان مناسبًا تمامًا لتقلبات الأطوار فى أقاليم التلال ذات التربة الخفيفة والتى تعتمد الزراعة فيها على ماء المطر (Doumani 1995: 26, 28). وكانت قوانين السلوك تحسم بنظام متعمق الجذور من الممارسات العرفية، كانت تحدد الحقوق والمسئوليات. ولأنها كانت انعكاسًا لجذور بدوية، فإن هذه الأعراف اختلفت كثيرًا عن الشريعة الإسلامية التى كانت هى السائدة فى المراكز الحضرية. وبعبارة أخرى، فإنه حتى مع حلول القرن التاسع عشر، كان هناك قدر كبير من الاستقلال الذاتى لدى الفلاحين فى الأمور القانونية والأخلاقية والشخصية والمالية القائمة على أساس عشائرى.

ومع هذا، مهما كان فخرهم باستقلالهم، فإن الفلاحين وعشائرهم كانوا بحاجة إلى تجار الحضر لكى يطرحوا منتجاتهم فيما وراء الأسواق المحلية. وقد أوضح الفصل الرابع الممارسة القديمة التى استمرت على مر القرون للأنشطة التى يقوم بها التجار العرب فى جميع أنحاء عالم البحر المتوسط. وفى القرن التاسع عشر ظهر سوق جديد يتوسع بسرعة فى أوروبا. فقد كان لدى التجار المعرفة التى يحتاج إليها الفلاحون وبطبيعة الحال كان لدى الفلاحين المنتجات التى كان التجار يطلبونها. وكانت العلاقات بين التجار والفلاحين مرعية بعناية. وكان على التجار بناء الثقة، وهنا كانت القيم الدينية مهمة. كانت شبكات العمل هذه غير رسمية، إذ لم تصدق عليها الدولة العثمانية، وغالبًا ما كان التجار يقدمون القروض الائتمانية. وقد كان «الشرف» بوصفه قيمة إسلامية، هو الذى يتعزز، وكان يمكن بناؤه فى المواقف تجاه عدم الوفاء بالديون. فقد كان يمكن لكل من الجانبين أن يناور حول الدين، وغالبًا ما كان يحدث

هذا . ولكن التاجر لم يكن يستطيع أن يتحمل مغبة السقوط إلى درجة الخزى مع عشيرة ريفية كان قد أمضى معها سنوات هو وعائلته، ربما كانت أجيالاً، وهو يبنى علاقات طيبة . ويوضح دومانى هذا بمناقشته عن زيجات الفلاحين .

كانت الزيجات، وما تزال، مهمة بشكل لا يصدق فى حياة الفلاحين بالقرى . وشراء ثوب الزفاف وغيره من الهدايا كان يمثل مناسبة لزيارة المدينة . ويبدو أن احتفال الزفاف كان يبدأ بالزيارة، حيث كان الفلاحون يصلون فى صورة عظيمة : يغنون ويرقصون ويحملون الهدايا (Doumani 1995: 84) وكانوا يمكثون عدة أيام فى بيت التاجر الذى يعتزمون شراء معظم احتياجاتهم منه . وكانت مسألة مبدأ أخلاقى، كما كانت تشى بممارسة تجارية، لأن التاجر وعائلته كان عليهم إظهار دلائل الكرم والصداقة . وكان يمكن للائتمان أن يمتد بحسب توقيت الزواج وعلاقته بالمحصول .

وكان الطقس الذى يحيط بعملية جمع الديون راسخًا فى الثقافة المحلية . وكانت المنازعات بشأن مستوى الدين شائعة ؛ فقد كان جامع الديون، وهو غالبًا فلاح يعمل بأجر لحساب التاجر، يُرسل إلى الريف . وكانت نقطة شرف لجامع الديون أن يلقى معاملة محترمة . وكانت تقاليد الضيافة الفلاحية يعنى أنه كان يستطيع أن يبقى فى غرفة خاصة فى مربع القرية ويتم تزويده بالطعام والشراب . ولم يكن هذا يمنع الفلاحين من ممارسة تكتيكات ماهرة في المراوغة . وبينما كانت للتاجر فى النهاية قوة أكبر، كان الفلاح وعشيرته هم السادة المتنفذين فى ممارسة الضغوط «لإعادة جدولة» الديون . وعلى أية حال، كان للحداثة أن تقلب هذا الميزان الحساس بين المدينة والريف .

الزيتون هو الوثيقة المادية للتاريخ

هكذا كتب مراقب بريطانى ثاقب البصيرة فى منتصف القرن التاسع عشر (Doumani 1995: 178) . وقد صارت شجرة الزيتون العتيقة تستخدم رمزيًا، ليس بصفتها رمزًا وطنيًا فحسب بالنسبة للفلسطينيين، تذكرهم بزمن لم يكونوا فيه لاجئين أو مضطهدين تحت الحكم الاستعمارى، وإنما باعتبارهم فلاحين أحرارًا يعيشون على ثمار الأرض، ولكن أيضًا باعتبارها رمزًا ماليًا بالمعنى الحرفى للكلمة . هذه الثمرة النبيلة هى التى أدت إلى وصول الرأسمالية، والعلاقات فيما بين الطبقات الاجتماعية الحديثة، إلى داخل القرية الفلسطينية فى القرن التاسع عشر(٥) .

وهنا مستخرج من خطاب كتبه محمد بك عبد الهادى، رئيس المجلس الاستشارى بنابلس، إلى حاكم القدس سنة ١٨٥١م:

«لقد نقلت إلى المجلس أمركم الكريم متضمنًا التماس أهل قرية چابا.. الذى يتهمون فيه شيوخ قريتهم بإجبارهم على توقيع للسندات عن هذه السنة بمقدار ١٢٠٠ إناء من الزيت، وللسنة القادمة ١٤٠٠ إناء...» (Doumani 1995: 146).

وقد أوضح عبد الهادى بك، فى شرحه وتفسيره للسندات المستحقة للحكومة، أن تلك كانت ممارسة معتادة بين أهل القرى.. أن يبيعوا محصولهم القادم من زيت الزيتون مقدمًا بأسعار منخفضة من خلال عقد (سلَم)(*) مقابل مبلغ الضرائب المستحقة على قريتهم (Doumani 1995: 147).

والآن يعرض دومانى المهارات الشرعية الماكرة فى كسر هذه الوثائق غير العادية التى كانت تصل إلى المحاكم الإسلامية فى فلسطين تحت الحكم العثمانى. وهو أيضًا جعل من نفسه خبيرًا فى استخدام عقود «السلَم» لإقراض الأموال فى تغيير صفتها، وهو الأمر الذى كان يحكم العلاقات بين الفلاحين والتجار، وفى بعض الأحيان بين قرى الفلاحين بأسرها وسلطات جباية الضرائب فى هذه الفترة.

كان عقد «السلَم» عبارة عن قرض نقدى لأحد الفلاحين يقدمه أحد التجار مقابل حقه فى أخذ محصول ما، عادة ما كان محصول زيت الزيتون، بغض النظر عما يدره المحصول فى المستقبل، والأحوال الجوية.. إلخ. وكان يمكن أيضًا تأجيل دفع الضرائب أو يُعاد التفاوض بشأنها على نفس الأساس، حيث يتم ترتيب الأمر بشأن المبلغ الذى سيتم دفعه على هيئة كميات من زيت الزيتون فى تاريخ لاحق. ومن الواضح، أن هذا النظام كان عرضة لسوء الاستغلال. إذ إن تجار الزيت المحليين الذين بدأوا السيطرة على مجلس المدينة، كانوا يجمعون الضرائب أيضًا لصالح الدولة العثمانية! وربما كان الاتفاق يتضمن أيضًا رسوم فائدة خفية. وكان عدم الوفاء بالدين يمكن أن يؤدى بالفلاح إلى تسليم أرضه مرغمًا، أو حقوقه فى الأرض، إلى أحد التجار. ويبدو أن التجارة «المستقبلية» في تبادل الأسهم العالمية فى زمننا كانت لها سوابق مدهشة.

(*) بيع السلَم، هو أن يقبض البائع الثمن مقدمًا، ويُسلم البضاعة آجلا ـ المترجم.

هذه المجادلات تمت بشكل كامل فى الفصل الذى عقده دومانى تحت عنوان «الاقتصاد السياسى لزيت الزيتون»، وهو ما يصر على أنه أمر أساسى لفهم الاقتصاد الفلسطينى فى تلك الفترة. وهو فصل ممتاز ويكاد يكون من الصعب أن نوفيه حقه هنا. ومع ذلك يجب أن نحاول تقديم الخطوط العريضة الأساسية لكى نوضح السرعة التى كان على الاقتصاد الفلسطينى الفلاحى أن يتوافق بها مع العالم المتغير بسرعة.

وبطبيعة الحال، فإن الالتماس المقدم من الفلاحين المربوطين بأغلال الديون ليس أمراً جديداً. إذ إننا نجد هذه العلاقات الاستغلالية على الأرض تضرب بجذورها العميقة فى العصور التاريخية القديمة. بيد أن المثير هنا هو الطريقة التى صارت بها هذه العقود لإقراض الأموال، والصراعات التى كانت تتولد عنها، أدوات ووسائل للتحديث.

وإذا عدنا إلى خطاب الحاكم: فإن فكرة أن الفلاحين يستطيعون أن يقدموا التماساً إلى الوالى كانت جديدة بحد ذاتها. فعلى مدى أجيال كان الفلاحون يتجاهلون محاكم المدن. إذ كانوا معتادين على حسم المنازعات من خلال قوة عشائرهم الريفية. والآن يتجاهلون عشائرهم، ويتجاوزون المجلس الأعلى فى نابلس ورئيسه (تاجر الزيت) عبد الهادى الذى كان يعتمد على شيوخ القرية فى جباية الضرائب، وذهبوا إلى القدس بحثاً عن العدالة.

كذلك أدى الاقتصاد الجديد إلى تقسيم العشائر. إذ أن التماسهم هاجم زعماء عشائرهم لأنهم خدعوهم، وهو ما يشى بتغيير أساسى جرى آنذاك. فقد كان زعماء العشائر- سواء عن وعى أم لا - يتوقعون تشكيل ما يسميه دومانى طبقة وسطى ريفية. وكانوا يحتذون خطى تجار المدن من حيث إنهم رأوا فى عقود إقرض الأموال آلية لتكوين مبالغ للربح الشخصى وللاستثمار على السواء. وفى الوقت نفسه كان فلاحو القرية مضطرين إلى تنظيم أنفسهم بشكل مستقل لحماية مصالحهم، بالالتماس السلمى أولاً، ثم يتبعه فى حالة الضرورة، كما سنرى، أساليب أكثر عدوانية. كما أخرجت القرى أيضاً نفراً من الناس سيكونون هم المتعهدين ممن لم يكونوا زعماء عشائر. وبعبارة أخرى، فإن الاختلافات بين الطبقات الاجتماعية فى عدة مستويات كانت تتبلور فى الريف.

وقصة عبد الرحمن، وهو فلاح من نابلس من قرية «عقربة»، تستدعى الكثير من هذه الموضوعات. فقد وقَّع على عقد «سلَم» مع تاجر مسيحى من يافا سنة ١٨٥١م، الذى كان على صلة بالسوق الأوروبية المتوسعة فى استيراد السمسم الفلسطينى. وكان المقاول الفلاح يسافر إلى يافا لعقد الصفقة مع التاجر، متجاوزًا الكبار فى القرية وتجار نابلس أيضًا.

هذا التطور لم يكن فريدًا بأى حال، وهو يقوض الكثير من الدراسات التى تستمر فى رؤية الفلاحين الفلسطينيين «أثناء الفترة العثمانية يعيشون فى قرى منعزلة لا يشتغلون سوى بالزراعة التى تقيم أودهم.. فقد كان كثير من الفلاحين الفلسطينيين متوافقين بشكل حاد مع متغيرات الطلب العالمى وتصرفوا وفقًا لها» (Doumani 1995: 141). وثمة أمثلة أخرى تتضمن شركات أعمال أقامها الفلاحون، تتقاطع خطوطها خلال القرى، والعشائر، بل الخطوط الدينية، وتضع تسهيلات عقود «السلَم» فى منح القروض أمام الفلاحين المحليين الآخرين (Doumani 1995: 167).

والعقد الذى وقعه عبد الرحمن مثير بشكل خاص لأنه يحمل ملامح متناقضة. فقد احتوى على حافزين: فقد كان يغطى تكاليف النقل من القرية إلى ميناء على البحر المتوسط، كما تضمن ترتيبًا لاقتسام الربح: «كان من الممكن أن يؤدى عقد «السلام» إلى تشجيع التجارة، ويساعد على مواجهة الحاجات إلى رأس المال المحلى، ويزيد الاستثمارات فى الإنتاج الزراعى، ويحسن النمو الاقتصادى بل يفيد كلاً من الطرفين» (Doumani 1995: 152).

ومن ناحية أخرى، فإن هذه العقود، بما فيها هذا العقد، كانت تحمل دائمًا إمكانية تدمير معيشة الفلاح لصالح التاجر فى حالة عدم الوفاء بالدين. وهذا هو ما حدث بالضبط لعبد الرحمن، الذى أرغم على بيع أرضه للتاجر المسيحى عندما لم يستطع الوفاء بما يخصه من العقد. (Doumani 1995: 163).

هكذا سهلت العقود للرأسمالية بطريقة كلاسيكية. فقد كان بوسع التجار الحصول على المحاصيل المحلية للأسواق العالمية المتنامية مع مكافأة أنه فى حالة عدم الوفاء بالدين يمكنهم السيطرة على الأراضى الزراعية داخل فلسطين. وكانت هناك أقلية من الفلاحين استطاعوا أن يلعبوا اللعبة أيضًا ولم يكونوا هم الخاسرين دومًا. لأنه من

الواضح أن تجارة التصدير الجديدة قد جلبت ثروات طائلة لبعض القرى الفلسطينية، وهو ما يبدو أنه أزعج القنصل البريطانى فى القدس. وفى سنة ١٨٥٦م. أرسل تقريراً إلى لندن مؤداه أن القرويين كانوا يصدرون الغلال «ويقبضون بجشع على النقود فى مقابل هذا». وبعد ذلك بسنتين، يبدو أن الأرباح كانت تساعد الفلاحين على «شراء الأسلحة وتزيين نسائهم» (Schotch 1982: 12).

الصراع الطبقى

بمنتصف القرن التاسع عشر، كان تجار الزيت فى نابلس قد راكموا ما يكفى من الأرباح من الفلاحين بما يتيح لهم القيام بتوسع كبير فى مصانع الصابون القائمة على أساس زيت الزيتون بالمدينة. وقد صارت أنجح صناعة محلية فى المنطقة، كما صارت صناعة لا تواجه أية منافسة أوروبية. ومن سوء الحظ أن المجال لا يسمح سوى بمناقشة مختصرة للغاية.

كانت للصابون النابلسى شهرة فى كافة أرجاء عالم البحر المتوسط، وهى شهرة ترجع إلى القرن الرابع عشر، وعلى مدى عدة عقود فى القرن العشرين، سوف يكتشف الفلسطينيون، كما حدث بالنسبة لبرتقال يافا، طريقة جديدة ستكون شهرة هذا المنتج مدوية فى عالم أوسع، وذلك عندما قام رجال الأعمال اليهود بتسويق الصابون الذى صنعوه فى مستوطناتهم على أنه فى نفس جودة الصابون النابلسى (Doumani 1995: 185).

ويضع دومانى ضمن كتابه أوصافًا بالرسم لمصانع الصابون بنابلس. وهى إحدى الخصائص المذهلة التى تقوض نمطية الاستشراق الكلاسيكى بتصوير البدو على أنهم قوم يعيشون فى الصحراوات النائية ويمارسون السلب والنهب. فإلى جانب الفلاحين الذين يسلمون زيت الزيتون إلى الآبار الكبيرة تحت الأرض فى المصانع، برهن البدو على أنهم «عامل حيوى فى الإنتاج». فقد كانوا يجمعون سنويّا نبات الحرض، ثم يحرقونه ويحملون منه على الجمال ثلاثة آلاف حمل من رماده الذى يسمى «القلو» إلى نابلس. وفى المقابل كانوا يحصلون على النقود والأرز، والتبغ والسكر والصابون والبُن. (Doumani 1995: 204).

وقد نشبت صراعات مريرة للسيطرة على مصانع الصابون عندما حلّ تجار الزيت ـ الذين كونوا ثرواتهم حديثًا من جراء عقود السلام ـ محل العائلات الحاكمة القديمة. وفى الوقت نفسه، أصر الموظفون العثمانيون على فرض نظام ضريبى أشد وطأة. وقد تمرد أصحاب مصانع الصابون. وإذ استخدموا قاعدتهم المتمثلة فى مجلس مدينة نابلس الذى كانوا يسيطرون عليه، ونظموا إضرابًا ضد الضريبة سنة ١٨٥٣م. . «وكان أكثر ما يثير اعتراض هؤلاء التجار هو محاولة الحكومة العثمانية أن . . تقتطع من أساسهم المادى دون أن تقدم أية حماية حقيقية ضد الهيمنة الأوروبية» (Doumani 1995: 231). لقد كانت هناك بورجوازية فلسطينية جنينية تستعرض عضلاتها ضد التدخل الخارجى.

ولا نعرف ما إذا كان الفلاحون قد ساندوا الإضراب ضد الضريبة أم لا، لأنهم استاءوا لدرجة عظيمة من أن تجار الزيت كانوا يثرون على حسابهم بواسطة عقود «السلَم». وقبل سنة من الإضراب الضريبى، كان على مجلس مدينة نابلس أن يشرح للسلطات العثمانية فى القدس السبب فى أنهم سجنوا بعض الناس فى قرية عسيرة كانوا قد قصفوا مندوب أحد تجار الزيت بالأحجار وكسروا سيفه ومسدسه (Doumani 1995: 173).

«ويمكن للمرء أن يقول إنه من الناحية السياسية. كان للتوتر المتصاعد بعض الخصائص التى تميز الصراع الطبقى (Doumani 1995: 180). وقد لخص الفلاحون من سكان قرية «تلوظه» الأمر كله فى أغنية ساخرة تقول:

«الله أكبر عندما يتجمع التجار [على أرض القرية]. .

وتعلو أصوات جامعى الديون

وينصت المرابون لأصوات الأغنام العائدة، ثم يقفزون مع أصحابهم من الشرطة، يبحثون عن ضحية يجزون صوفها. .

الله أكبر عندما يحيى أهل القرية موسم زيت الزيتون المبارك والثرى. يذهبون إلى سوق المدينة لشراء مؤونتهم. ولكن الدائن يطلب حقه، أو يتجدد الديْن بفائدة

مـضـاعـفـة. . والـروح الفـقـيـرة عليـهـا الخـضـوع والله أكـبـر أكـبـر. . . (*) (Doumani 1995: 94).

أول عمدة للقدس
توضيح الهوية الفلسطينية

متى تبلورت فلسطين هوية وطنية فى عقول الناس الذين عاشوا فيها؟ حتى الآن كنا مشغولين بمناقشة تحديث المجتمع الذى كان جزءًا من الإمبراطورية العثمانية. وفى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بدأ المفكرون الفلسطينيون الحضريون من أصحاب العقلية المستقلة وذوى الخلفيات التقليدية، يظهرون فى البناء السياسى والإدارى للإمبراطورية. وفى هذا الخصوص ترشدنا المسيرة الوظيفية ليوسف ضياء (Khalidi 1997: 69-76)[٦].

وُلد يوسف ضياء سنة ١٨٤٢م، وهو أحد خمسة أبناء لموظف محلى كبير بالمحكمة الشرعية الإسلامية فى القدس، وكان من ذلك الجيل من العرب المأخوذين والملتهبين بنفس القدر بالتقدم الذى بدا غير قابل للتوقف لكل الأشياء الأوروبية. وكان الشىء الوحيد لمقاومة الأوروبى هو أن تفهمه أولاً حسبما استنتج يوسف فى نهاية المطاف. وبدأ برنامجًا للتعليم الأوروبى، وتعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية. واستكمل تعليمه فى استانبول، حيث لفت نظر رجال حركة الإصلاح التركية «تنظيمات»، وهم من رجال الدولة الذين شجعوا طموحاته السياسية. وكانت عملية إعادة التنظيم العثمانية تتضمن ترقية الحكم البلدى المحلى. وكان معنى هذا أن يوسف ضياء، بمرور الوقت، كان قادرًا على السعى للتعيين فى وظيفة أول عمدة لبيت المقدس. وفى هذا المنصب أظهر جدارته وقدراته الفذة على التحديث بالمساعدة فى بدء بناء أول طريق للعربات من القدس إلى يافا، وكذلك تحسين إمدادات المياه فى المدينة. وفى سنة ١٨٧٧م، تم انتخابه فى البرلمان العثمانى.

(*) من المؤسف أننى لا أعرف نص هذه الأغنية الشعبية والتى تبدو جميلة فى لغتها الأصيلة، ومن المؤسف أيضا أن هذه الترجمة أفقدتها جمالها الحقيقى واعتذر للقارئ لأننى لم أستطع الوصول إلى النص الأصلى ـ المترجم.

ولم يكن هذا سوى ازدهار قصير العمر للديمقراطية فى الإمبراطورية العثمانية. وفى سنة ١٨٧٨م، أوقف السلطان البرلمان وفرض الحكم الفردى المباشر. ومع هذا كان يوسف قد ترك بصمته باعتباره رجل دولة ديمقراطيًا ثوريًا. ووصفه أحد الدبلوماسيين الأمريكيين باعتباره «الخطيب الأول وأقدر مجادل بالبرلمان». وربطه دبلوماسى آخر بصورة «جمهورى فرنسى». ولا شك فى أنه كان مصدر إزعاج للسلطان. لقد كان يوسف ضمن عدة نواب عرب حرموا لفترة وجيزة من دخول استانبول واعتبروا «غاية فى الخطورة».

ثم وضعته السلطات العثمانية تحت المراقبة الدقيقة، وبدأ يتخذ اتجاهًا أكاديميًا، وصار أستاذًا للغة العربية فى ڤيينا، ونشر الشعر العربى الجاهلى وكتب قاموسًا عربيًا ـ كرديًا ـ وكانت طموحاته السياسية فى ذلك الحين قد أحبطت، ولكن من الواضح أنه كان قد أمسك تمامًا بما سيصبح الأچندة السياسية الفلسطينية فى القرن العشرين.

فقد استعاض يوسف عن الحظر المفروض على أنشطته السياسية بالمراسلات الممتدة مع الشخصيات العامة والعلماء من أوروبا والشرق الأوسط. وفى سنة ١٨٩٩م، ومن خلال الحاخام اليهودى الرئيسى فى فرنسا، اتصل بتيودور هرتزل، المنظر الرئيسى للحركة الصهيونية. وحذر هرتزل من أن فلسطين «كثيفة السكان من غير اليهود ويقدسها ٣٩٠ مليون مسيحى و٣٠٠ مليون مسلم». وسأل: «بأى حق يطلب اليهود فلسطين لأنفسهم؟» إن الثروة لا يمكن أن تشترى فلسطين «التى لا يمكن الاستيلاء عليها سوى بقوة المدافع والسفن الحربية».

حرب الفلاحين على المستوطنين الصهاينة فى فلسطين

لا بد أن يوسف ضياء، كان قد عرف أن اشتباكات الفلاحين مع المستوطنين الصهاينة قد بدأت بالفعل. ففى معركة بتاخ ـ تيڤا، التى وقعت سنة ١٨٨٦م، تدخلت القوات العثمانية وقبضت على الكثير من الفلاحين، بعد قتل مستوطن يهودى وجرح عدد آخر من المستوطنين فى هجوم من القرية العربية المجاورة. وكان مثار غضب الفلاحين أنهم اعتبروا أن أرضهم قد بيعت للمستوطنين بعد أن كانوا قد سلموها للمرابين فى يافا وللسلطات المحلية. وبالنسبة للفلسطينيين فإن القرن العشرين بدأ فى بتاخ ـ تيڤا (Khalidi 1997: 96-115).

ومن الأمـور ذات الدلالة أن هرتزل لـم يذكر أبداً العـرب ولو مرة واحـدة فى كتـابه الأشهـر «الدولة اليهودية»، كـما لو كانوا غـير موجـودين. بيد أن كاتبًـا يهوديًا شهـيراً، «أحاد ــ هاعام»، اعـترف بعد زيارة استمرت ثلاثة أشـهر لفلسطين فى سنة ١٨٩١م أنه كان «من الصـعب أن تجد حـقولاً غيـر مزروعة» بأيدى الفـلاحين العـرب. وأضاف أنه كانت هناك أرض ليـست مملوكة لأحد، وهى الكثبـان الرملية والجبال الصـخرية، يمكن أن تسـتزرع بأشـجـار الفاكـهة، ولـكنها كـانت بحـاجة إلى العـمل الشـاق، والتنظيف والاستصلاح» (Khalidi 1997: 96-115).

وهو ما يجىء بنا إلى قصة برتقال يافا الشهير. وقد زعم الصهاينة على مدى زمن طويل أن برتقال يافا برتقالهم، وأنه نتيجة لاستصلاح الأرض «وتحويل الصحراء إلى أرض خضراء». ولكن الحقائق تحكى لنا قصة مختلفة.

لقد كان «العمل الشاق» الذى قام به العرب هو الذى حول التربة الرملية، وجهزها لزراعة الحمضيات فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. كذلك تم تجفيف أراضى البرك والمستنقعات. وكانت النتائج مذهلة وساعدت على تحويل بؤرة الاقتصاد بعيداً عن جبل نابلس. وقـد أدى اسـتخـدام الملاحـة البـخاريـة إلى وصول هذا المحـصـول التصديرى ـ الذى كان سنة ١٨٨٠م، ينمو فى حوالى خمسمائة حديقة موالح فى منطقة يافا ـ إلى السـوق العالمية. وأدى المزيد من التوسع أنه فى سنة ١٩١٣م، كـان يتم تصدير ما لا يقل عن ١,٦ مليون صندوق برتقال من يافا، مما جعله أهم محصول تصديرى فى فلسطين.

وفى تلك الأثناء كان يحدث تطور مشؤم فى المستوطنات الصهيونية بمنطقة الجليل. ففى سنة ١٩٠٧م سمحت السلطات العثمانية للمستوطنين بتسليح أنفسهم والدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات المتزايدة التى كان يشنها الفلاحون الذين جُردوا من أراضيهم. وتم تكون منظمة يهودية سرية «بار جيورا» رفعت شعار «العمل العبرى»، وأدت إلى ظهور منظمة شبه عسكرية «الهاشومير». وسوف ندرس المضامين السياسية العنصرية لشعار العمل العبرى بمزيد من الدقة فى الفصل التالى. وفى وقت لاحق فى القرن العشرين، وبعد خلق دولة إسرائيل بعدة سنوات. أوضح الجنرال ييجال آلون فى كتابه

«صنع جيش إسرائيل ـ The Making of Israel Army»، أن «الهاشومير» كان بمثابة السابقة التى احتذت بها القوات المسلحة الإسرائيلية .

وفى ذلك الحين كانت الاشتباكات بين الفلاحين والمستوطنين الصهاينة تصير أكثر تأثيرًا ، وعلانية ، وتم تسييسها بتدخل السياسيين العرب إلى جانب الفلاحين . وكان بيع أراضى قرية الفولة ، فى منتصف الطريق بين الناصرة وجنين فى سهل مرج ابن عامر الشهير ، إلى الصهاينة على يد نفس العائلة التجارية اللبنانية ، وهى عائلة سورروق التى ذكرناها من قبل ، سببًا فى وصول الأمور إلى ذروتها . فقد تم البيع هذه المرة إلى «الصندوق القومى اليهودى» (JNF) ، والذى كان مؤسسة جديدة من مؤسسات الحركة الصهيونية مكرسة لشراء الأراضى ، وكان يرأسه آرثر روبين ، صهيونيّا آخر كان يعرف جيدًا أنه لا يوجد مكان يمكن أن يكون «أرض بلا شعب» . وقد اعترف فيما بعد بأنه لم يكن هناك أى أرض قابلة للزراعة غير مأهولة بالسكان . وأنه باتباع أسلوب شراء الأراضى من الملاك الغائبين «كان علينا أن نزيح الفلاحين الذين كانوا يزرعون الأرض» .

كان الموظف الذى عينه العثمانيون للناصرة ، «شكرى العسلى» الذى كان ابنا لإحدى العائلات الدمشقية البارزة ، خطيبًا جماهيريًا شهيرًا وصحفيًا معروفًا . وقد رفض تسليم حجج الأرض إلى الملاك الجدد ، على الرغم من التعليمات الصادرة له من السلطات العثمانية . وقد استفاد العسلى من مساحة الحرية الكبيرة التى أتاحتها فى ذلك الحين فترة الإصلاحات الدستورية المتجددة وهاجم عملية البيع ، والصهيونية بشكل عام ، فى صحيفة دمشقية تحت اسم مستعار هو «صلاح الدين» . وتمت إعادة طباعة مقالاته فى صحف بيروت وحيفا . وعندما أرسلت هاشومير ثلاثين مسلحًا لاحتلال الأرض ، أمر العسلى القوات بطردهم . وعلى أية حال فإن رؤساءه سرعان ما أبطلوا أوامره وتم فرض البيع بالقوة . ومع هذا تصاعدت الأمور بشكل درامى وكثرت غارات الفلاحين المسلوبين على أرضهم المسلوبة ، وفى بعض الأحيان كانت هذه الهجمات دموية . وكان هناك مناخ أكثر سياسية آخذًا فى التطور . فقد تم ترشيح العسلى ممثلاً عن دمشق فى البرلمان العثمانى الذى أعيد إحياؤه ، وكان برنامجه «محاربة الصهيونية حتى آخر نقطة من الدماء» . وفاز بالمقعد وأدى انتصاره بالنواب العرب الآخرين وبالصحافة

العربية إلى الثناء على المقاومة الفلاحية ضد الصهيونية باعتبارها القضية الأثيرة لدى الشعب العربى.

وهكذا كانت هناك حركة تحرر سياسى من نمط جديد تتكون عندما استولى البريطانيون على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى. وكان من ثمار تلك حركة أنها:

«وحدت الفلاحين الذين حاولوا فى يأس أن يتشبثوا بأرضهم أو يردوا على المستوطنين الصهاينة بأسلوب عنيف إذا فقدوها... ومعهم المفكرون والأعيان فى الحضر... وفى سنة ١٩٣٥م، تحولت جنازة فى حيفا لأول شهيد علنى فى حركة المقاومة المسلحة وهو الشيخ السورى عز الدين القسَّام، الذى عاش وعمل على مدى خمسة عشر عامًا بين الفلاحين المعدمين، وكان قد هاجر إلى المناطق العشوائية فى حيفا، ومات فى معركة ضد القوات البريطانية ـ تحولت إلى مظاهرة عامة ضخمة. وقد أدى هذا بدوره إلى إطلاق شرارة الإضراب العام سنة ١٩٣٦م، وإلى اندلاع ثورة فلسطين العربية ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م. وعلى حد تعبير أفضل دراسة عن القسَّام... لقد ألهبت وفاته حماسة الشعب الفلسطينى» (Khalidi 1997: 114-15) لقد بلغ جبل النار سن الرشد.

***

الفصل السادس

« ... لشعب بلا أرض »

بحلول سنة ١٨٨٠م، كانت غالبية يهود العالم البالغ عددهم ثمانية ملايين تقريبًا تعيش فى شرق أوروبا، للأسباب التى شرحناها فى الفصل الثالث. وكان هناك حوالى أربعة ملايين يعيشون فى الأراضى التى حازتها الإمبراطورية القيصرية الروسية فى غمرة توسعها غربًا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. هذه المنطقة التى امتدت من ليتوانيا فى الشمال إلى البحر الأسود فى الجنوب، ومن پولندا فى الغرب إلى «روسيا البيضاء» وأوكرانيا فى الشرق، صارت معروفة **بأنها نطاق الاستيطان**.

أدت السياسات المعادية التى انتهجها القياصرة المتعاقبون إلى تركيز اليهود فى هذه المنطقة. وحسب أسطورة صهيونية ذائعة ومنتشرة جدًا، كان أولئك اليهود يشكلون «شعبًا بلا أرض».

استخدمت هذه الساحة بمثابة معمل تقطير شاسع لكل الاتجاهات الاجتماعية اليهودية البازغة ولكل الحركات السياسية اليهودية التى تحاول الظهور: الذوبان فى المجتمع، والهجرات الجماعية باتجاه الغرب ولا سيما أمريكا، والمشاركة اليهودية الضخمة فى الأحزاب الاشتراكية النامية بسرعة؛ ونمو الحركة الصهيونية. وثمة حدث يعلو على كل الأحداث الأخرى، يلوح فى الأفق بحتمية كئيبة مرعبة، سيكون بمثابة خميرة تهيج كل هذه الاتجاهات والحركات، بيد أن ذلك سيكون فى اتجاه مناقض: ذلك الحدث كان هو الثورة الروسية. فقد كانت الثورة الفرنسية التى وقعت سنة ١٧٨٩م. قد رفعت وعدًا بالتحرير النهائى والدائم لليهود فى أوروبا الغربية. كان اليهود أبعد من أن يكونوا شعبا بلا أرض، وإذا كان للوعد أن يتحقق، فإنهم سيكونون أصحاب حقوق متساوية، ومواطنين شرعيين لهم حقوق متساوية فى الأرض المستقرين عليها، والتى ولدوا على ترابها. وبطبيعة الحال، كانت نزعة العداء لليهود ما

تزال موجودة. ومع ذلك أحس أولئك اليهود بثقة جديدة وأمان جديد يضربان بجذورهما فى الدستور الديمقراطى أو التشريع البرلمانى. وعند نهاية القرن التاسع عشر، سوف تطرح الثورة الروسية نفس الوعد ليهود أوروبا الشرقية.

حقًا، استغرق الأمر عدة عقود لكى تظهر أول الموجات التى كانت متوقعة من جراء هذه الدراما التاريخية التى هزت العالم وتركت أثرها على منطقة الاستيطان. ومع هذا فإن التحديث والرأسمالية، وهما بمثابة محركات الثورة، على شكل حركة التصنيع، قد خلقا بداية بطيئة، ومعيبة فى منطقة تمركز اليهود بأوروبا الشرقية. ذلك أن آلافًا من اليهود الريفيين الفقراء والحرفيين المعدمين، وأصحاب الحانات السابقين، والتجار الصغار، والباعة الجائلين، والفقراء الذين يتحدث عنهم الفولكلور الألمانى اليهودى (اليديش Yiddish) (Deutscher 1968: 62)[1]، احتشدوا فى البلدان والمدن. وكان معنى المهارات الحرفية لدى اليهود والتى تراكمت خلال القرون فى تراث حرفى أن الحرفيين هم الذين تأقلموا بسهولة أكثر مع البيئة الحضرية. وناضل الباقون قدر طاقاتهم. بيد أن شيئًا واحدًا كان واضحًا: هو أن البنية التحتية الاقتصادية اليهودية فى شرق أوروبا العصور الوسطى كانت تختفى بسرعة.

ويلتقط المؤرخ الصهيونى داڤيد ڤيتال القصة (Vital 1975: 31-60). عند بداية القرن التاسع عشر، لم تكن هناك أية جماعة يهودية يزيد عدد أفرادها عن عشرة آلاف نسمة فى نطاق الاستيطان. وبنهاية القرن، كانت هناك أربعون جماعة يهودية يبلغ عددها الإجمالى مليون ونصف مليون نسمة، أى ثلث عدد السكان اليهود.

وفى حد ذاتها لم تكن عملية الهجرة الداخلية هذه لتؤدى إلى جعل السكان راديكاليين يسعون وراء تغيير جذرى. إذ إن هذه الجماعات المنكفئة على نفسها، المتماسكة، التى كانت لغة اليديش [هى لغة عرفتها الجماعات اليهودية بشرق أوروبا فى العصور الوسطى، وهى مزيج من الألمانية وبعض المفردات العبرانية] هى اللغة الأم لـ ٩٨٪ منها، قد تمكنت بشكل أو بآخر من إعادة بناء نفسها فى البيئة الحضرية. ولكن القياصرة فرضوا سياسة واحدة محددة وكريهة «غاصت فى أعماق الوعى الاجتماعى والسياسى بلهيبها»: وهى سياسة التجنيد الإجبارى.

فقد كان على اليهود أن يقدموا عـشرة شبان عن كل ألف من السكان اليهود للخدمة العسكرية فى الإمبراطورية، مقارنة بسبعة عن كل ألف من السكان غير اليهود. وبالنسبة لليـهود تم تخفـيض السن من ثمانـية عشـر عامًـا إلى إثنى عشـر عامًا. وكـان المجندون الأطفال والمراهقون يوضعـون فى مؤسسات إعدادية خاصة للـتدريب العسكرى، حيث كانوا يخضعـون لتعليم خاص كـان يتضمن بالنسبة للشـبان اليهود نظامًـا يجبرهم على قبول الديانة المسيـحية. وكانت لهذه السياسـة عاقبة واحدة غير مـقصودة على أية حال. ذلك أنها جهزت أقلية من اليهود للنضال المسلح ضد النظام نفسه.

كان التجنيد الإجبارى مكروها فى جميع أرجاء الإمبراطورية «كان مثل الموت ـ كان التـفكير فى الجندى بالبيت يـمزق قـلب المرء بلا فـائدة» على حد تعبير الروائى الروسى العظيم ليو تولستوى.

وقد أججت كراهية التجنيد الإجبارى السخط العام على القياصرة. وفى كل أنحاء الإمبراطورية، وبالنسبة لكل الناس والقوميات والطبـقات الاجتـماعيـة، بعيدًا عن عناصر الأرسـتقراطيـة المستقرة تمامًا، امتزجت بإدراك متزايد للحرية التى تم تحقيقها فى غرب أوروبا عقب الثورة الفرنسية. وعقدت آمال عظيمة على القيصر المصلح ألكسندر الثانى فى ستينيات القرن التاسع عشر.

وبدأت مُثُل حركة عتق اليهود فى أوروبا الغربيـة تستحوذ على خيال اليهود فى شرق أوروبا. وقد كتب أديب صغير ولكنه يمثل يهود شرق أوروبا بدافع منها:

استيقظى يا إسرائيل ويهودا، انهضوا

انفضوا الغبار، وافتحوا عيونكم على اتساعها

إن العدل ينمو، والحق هنا

لقد نسيت خطيئتكم، وليس ثمة ما تخشون (Vital 1975: 43)

ومن المثير أن هذا التعديل العلمانى للنثر الوارد فى الكتاب المقدس، والذى سرعان مـا يصير علامة مميزة للدعاية الصهيونية، تم وضعه أولاً فى خدمة حركة الاندماج فى المجتمع على غرار ما جرى فى غرب أوروبا. وقد تنبأ سير موسى مونتيفيورى زعيم

اليهود البريطانيين - بثقة - بإصلاح ديموقراطى ناجح سوف يحرر اليهود فى الإمبراطورية الروسية.

ولم يحدث هذا؛ إذ إن حماسة القيصر لإصلاح الإمبراطورية الروسية القائمة على ملكية الأرض فى العصور الوسطى كانت بطيئة أكثر من اللازم، كما أنها لم تكن متسقة فى نظر الحركة الديمقراطية الثورية البادئة فى الظهور. وفى سنة ١٨٨١م، تم اغتيال القيصر الكسندر.

كان الاغتيال نقطة تحول فى روسيا من جميع النواحى. إذ كان رمزًا لوجهة نظر الطبقة المثقفة المتنامية فى روسيا، والقائلة بأن الثورة هى الوسيلة الوحيدة لتحويل النظام القيصرى. وقد أدرك الكُتّاب العظام لتلك الفترة؛ تولستوى، وتشيكوف ودوستويفسكى حالة التوقع التى كانت تشكل تهديدًا وإثارة فى آن معًا. وأحس الحكام القياصرة بأن اللعبة على وشك أن تبدأ وجهزوا الأرض لأكبر رد فعل وهو الثورة المضادة.

المذابح

كان عام ١٨٨١م أيضًا هو العام الذى تضافرت فيه كل الآثار الاجتماعية طويلة المدى مثل الحركة التى أسيئ تدبيرها لتحرير الأقنان، والمجاعة، والبطالة الزراعية والصناعية.. لتضخم من حجم «جيش الحفاة» من الفلاحين الذين ضربهم الفقر والپروليتاريا المعدمة لا سيما فى جنوب روسيا.. وأراد النظام.. توجيه الطاقة المتفجرة فى الجماهير الهائجة من الفلاحين المضطربين الفقراء بعيدًا عن نفسه.

وفى الوقت نفسه.. كان الخوف من الفلاحين بشكل متزايد مع اتجاه لرؤيتهم، باعتبارهم خلاصة الناس، والنظر إليهم بصورة عاطفية للغاية.. وهو ما كان أشبه بنظرة الثوريين الشعبويين» (Vital 1975: 49 - 50).

كان الشعبويون الثوريون، «النارودنيك ـ Narodniks» هم أول من تحدوا الحكم الفردى. وكانت كوادرهم أساسًا من الطلاب، ومن ثم تبنوا استراتيچية تقوم على اغتيال الحكام مع منظور «الذهاب إلى الفلاحين» على أمل تعبئتهم من أجل الثورة. أما

النظام الذى كان قائمًا على أساس العدو الرئيسى للفلاحين، أى الأرستقراطية من ملاك الأراضى، فقد رأى أن هناك طريقة لتفكيك صفوف دعاة الثورة وإبعاد النار عن ملاك الأراضى، تمثلت فى توجيه الغضب والطاقة ضد اليهود (كذلك كان الشعبويون الثوريون يرون فى اليهود هدفًا مشروعًا لعداوة الفلاحين، ولكنهم سرعان ما غيروا موقفهم إلى موقف الإدانة من حيث المبدأ). (Frankel: 120).

«كان اليهود متناسبين مع الدور بشكل يدعو إلى الإعجاب. . . فقد كانوا مكروهين لا من الفلاحين وحدهم - والذين كانت علاقاتهم معهم فى الغالب على أساس وظيفة اليهود فى الاقتصاد عمومًا باعتبارهم تجارًا صغارًا، ووسطاء، وأصحاب حانات، ووكلاء ضياع ومرابين، ولكنهم كانوا يحظون أيضًا بكراهية مقيتة من أصحاب المناصب فى روسيا - أى رجال الإدارة والعسكريين، ورجال الكنيسة. . والقيصر نفسه» (Vital 1975: 51).

هنا إذن كانت تلك الثقافة السياسية الفاسدة لنظام حكم القياصرة وهو يعانى سكرات الموت. وهى الثقافة التى أطلقت عنان العصابات المائة السوداء من الجزارين السفاحين على اليهود، والتى سوف تزور فيما بعد وثيقة، كانت مفضلة لدى هتلر، وهى «پروتوكولات حكماء صهيون»، وهى الفنتازيا القيصرية الخيالية التى زعمت أن هناك «مؤامرة» يهودية لحكم العالم.

وبنهاية سنة ١٨٨١م، تعرضت ما يزيد على مائتى جماعة يهودية للهجوم من جانب عصابات الفلاحين وصغار المجرمين، على حين كانت الشرطة والجيش يغمضون عيونهم عما يحدث.

وعمومًا جرت المذابح وفق نموذج مشترك. فقد سجلت جريدة Le Temps الپاريسية مذبحة اتسمت بدموية خاصة حدثت فى مدينة بالتا فى جنوب روسيا أثناء عيد فصح اليهود فى أبريل سنة ١٨٨٢م:

«بدأ الشغب بعد الظهر؛ واستعد السكان اليهود للدفاع عن أنفسهم، على حين كانت السلطات البلدية قد فرقتهم بالقوات التى ضربتهم بكعوب البنادق. وفى صباح اليوم التالى، عاود ستمائة فلاح من الريف المجاور الهجوم وواصلوه دونما أية عوائق.

لقد كان مشهداً من النهب، والحرق العمد، والقتل، والاغتصاب، مما يجعل المرء يرتجف من الرعب . . . فقد جرح ٢١١ شخصاً وقتل تسعة، كما اغتصبت الفتيات . . وهدمت معظم المنازل» (Vital 1975: 52-3).

لقد كسرت المذابح مرة وإلى الأبد «نزعة الجمود والقدرية المتأصلة بعمق فى اليهود». (Vital 1975: 49). ذلك أن الذعر امتزج بالتصميم على إيجاد إجابات لكراهية اليهود الفتاكة على هذا النحو الخاص بجذورها المنظمة فى دفاع الحكام الروس عن امتيازاتهم الإقطاعية. لقد كانت تلك فى وقتها أزمة سياسية واضحة تتطلب حلولاً سياسية. ويرى ڤيتال (Vital 1975: 65). بدء تكوين الحركة الصهيونية وأصولها فى هذه الفترة. والواقع أن بقية كتاباته مكرسة لبيان كيف أن الحركة الصهيونية تطورت آنذاك.

ومع هذا، فإن حمى الهجرة، بحثًا عن أرض يمكن أن يتحقق فيها خلاص اليهود فى النهاية، لم تكن موجهة بالتأكيد صوب فلسطين، و كان ڤيتال هو أول من اعترف بهذا. وبدلاً من ذلك كانت أمريكا «التى اتخذت خاصية رمزية، توحى برحيل جديد، وحياة جديدة، وآفاق غير محدودة لم تفقدها على مدى سبعين سنة» (Vital 1975: 61-2). وتتحدث إحصاءات الهجرة عن نفسها. ففى عام ١٨٨٠م، كان هناك أقل من ربع مليون يهودى فى أمريكا. وبعد ذلك بخمسين سنة وصل العدد إلى خمسة ملايين تقريبًا، نتيجة الهجرة من أوروبا الشرقية مع النمو الطبيعى للسكان (Eban 1984: 260).

ولكن بطريقة ما حدث تطور أكثر أهمية بعد المذابح. ذلك أن معظم اليهود لم يهاجروا، أو لم يتمكنوا من الهجرة، واكتشف كثير منهم الآمال المتجددة لتحريرهم فى الأرض التى ولدوا عليها فى الحركة الثورية الصاعدة التى بدأت تكتسح الإمبراطورية الروسية طولاً وعرضًا. **وظهر الاشتراكيون، ولا سيما، العصبة الاشتراكية اليهودية، على سطح المشهد فى أوروبا الشرقية. وإذ غطت هذه الجماعة اليهودية الاشتراكية على الصهاينة «فى جاذبيتها الجماهيرية حتى سنة ١٩٠٥م على الأقل» كما يقول مندلسون** (Mendelsohn 1970: 6)، فإنها التزمت بحصة يهودية فى أراضى الاستيطان. وكانت خصمًا عنيفًا لا يهادن لمشروعات الهجرة الصهيونية إلى فلسطين. ومن المحزن أن

كتاب ڤيتال الذى يصل إلى حوالى أربعمائة صفحة عن أصول الحركة الصهيونية لا يخصص سوى صفحتين لهذه الجماعة.

تحرير الذات

لقد غيرت سنة ١٨٨١م الطريقة التى كان اليهود آنذاك يرون بها التحرير. ففى الماضى، كان الاعتماد على الآخرين ـ السلطة الحكومية وزعماء اليهود القائمين ـ يُرى باعتباره الآلية المناسبة لحماية المصالح اليهودية. وقد غيرت سنة ١٨٨١م هذا كله. فقد صار اليهود العاديون آنذاك معنيين بشكل مباشر، ونشطاء، فيما يتعلق بمصالحهم:

«كان لا بد من النضال لكى تصبح الممارسات السياسية اليهودية مستقلة ذاتيًا. وكان أكثر الشعارات تأثيراً قد برز من غمار الأزمة، والذى روج له وأعطاه شهرته پنسكر هو: **تحرير الذات**. إذ لم يعد الهدف هو التوافق مع البيئة وإنما خلق بيئة جديدة تمامًا... «ومفهوم التنظيم الجماهيرى... هو الذى ساد. وسياسات «الأحزاب» القومية من ناحية، والاشتراكية من ناحية أخرى، برزت باعتبارها وجهًا ثابتًا من الحياة اليهودية ـ الروسية». (Frankel 1981: 51)[٢].

وتعود جذور هذه الفكرة إلى انشغال الجماهير وتنظيمهم المطلوب للدفاع عن الجماعات اليهودية المحاصرة ضد مرتكبى المذابح. بيد أنها عكست أيضًا الطريقة التى كانت الحركة الثورية الروسية الأوسع قد بدأت آنذاك تتوغل فى الجماعات اليهودية. وبعيدًا تمامًا عن أن تحرير الذات كان شأنًا يهوديًا خالصًا، فإن تطوره كان مرتبطًا بعروة وثقى بالتوقعات المتزايدة بتحرير الذات فى المجتمع الأوسع.

كان من يحمل الفكرة الثورية إلى الجماعات اليهودية الفقيرة هو الطالب اليهودى الروسى من أبناء الطبقة الوسطى المندمجة فى المجتمع. وكان هذا تعديلاً واعيًا لمفهوم «السعى إلى الناس» الذى نادى به «النارودنيك ـ Narodniks».

أحد الطلاب، وهو الكاتب اليهودى، الذى عرف فيما بعد باسم «بن عامى» سجَّل التأثير الذى كان لهم على تجمعات المعابد فى أوديسا:

«إن الفكرة المجردة هى وجود أشخاص متعلمين، كانت الجماهير تفتخر بهم، ولكن أيضًا باعتبارهم بعيدين عن متناولهم، وكانوا يفكرون فيهم - هذا وحده رفع معنوياتهم من الحضيض، ورفع شعورهم بالكرامة الإنسانية ، ففى كل مكان، فعلا فى كل مكان، كان الشباب يقابلون بالامتنان الشامل وحده - والأهم من هذا - بالثقة المطلقة والوعد بعمل أى شىء سوف يقترحه الشباب . . . وحتى هذا اليوم أرى أمامى صورة رجل جليل فى حوالى السبعين من عمره . . . وضع يده على رأسى ليباركنى . . . ثم انفجر باكيًا» (Frankel 1981: 54) .

ولم يتخاذل هؤلاء الطلاب. فقد زودوا اللجان المشكَّلة حديثا للدفاع عن النفس بالتدريبات والبنادق .

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا لم يكن للمثقفين اليهود جمهور كبير من بين اليهود الفقراء فحسب، وإنما كان هذا الجمهور على استعداد للفعل استجابة للأفكار المطروحة عن التحرير. كذلك أفرز الشباب فى الجماعات الفقيرة زعماء جددًا مستعدين لتحدى الأساليب القديمة. وعلى أية حال، لم تكن المذابح وحدها هى التى حفزت النشاط الجماهيرى. إذ كان لعملية التمدن نفسها أثر درامى على الجماعات اليهودية. حيث غرست روحًا غير متوقعة من التمرد بين الجيل الجديد من العمال اليدويين اليهود فى شرق أوروپا.

كانت هناك سخرية حقيقية هنا. إذ إن الدوائر السياسية فى حركة التحرير اليهودية ربطت جذور معاداة الفلاحين لليهود بدور «الوسيط» الذى كان اليهود يلعبونه فى اقتصاد العصور الوسطى. وهكذا فإن باڤل أكسيلورد، وهو زعيم سياسى يهودى سيلعب دورًا رئيسيًا فى الحزب السياسى الثورى الروسى «المينشيڤيك - Mensheviks»، حدد علاقة بين المذابح المكثفة فى المناطق التى كان يعمل بها عدد غير مناسب من اليهود فى مهن لا إنتاجية. حتى صاحب الحانة الجائع، مثل والده، كان يعتبر مستغلاً للفلاحين، فقد لاحظ أكسيلورد أنه « . . مهما كانت حدة الفقر الذى تعانيه الجماهير اليهودية . . . تبقى الحقيقة التى تؤخذ برمتها . . . أن غير المنتج كان عبئًا على الطبقات الدنيا فى روسيا» (Frankel 1981: 105) . وقد كان أحد الحلول هو إقناع «العناصر غير المنتجة» بأن يصيروا عُمالاً يدويين. وقد تحول هذا إلى مثال شيوعى،

والواقع أن بعض المهاجرين اليهود انطلقوا إلى أمريكا لكى يقيموا كميونات زراعية (Frankel 1981: 55) . وكانت أصول استعمار فلسطين بهدف محدد هو إقامة مثل هذه الكميونات «الكيبوتز» ترجع إلى هذه الفترة.

ولكن آلافًا من اليهود صاروا عُمالاً يدويين، بما فيهم أصحاب الحانات المعدمون فيما سبق، وحتى هؤلاء المعروفون بكونهم «قوائم الأسعار الماشية» غير المحبوبة عندما وجدوا أنفسهم بلا بضاعة يبيعونها، وليس بدافع الاختيار الفكرى أو المثالية السياسية وإنما بسبب الضرورة والحاجة وحدها، قاموا بهذا التحول. فقد كانت تلك هى الطريقة الوحيدة لتجنب الموت جوعًا.

ولم يكن ذلك العمل اليدوى قادرًا على ضمان ما هو أكثر من سد الرمق. إذ كانت فترات التوظيف القصيرة تعقبها فترات بطالة طويلة «يجب أن نعيش ٥٢ أسبوعًا من عائد عمل عشرة أسابيع» هذا ما كان يردده الآلاف (Mendelsohn 1970: 13) . وقد وصف العمال الروس الأحوال فى المدن الجديدة فى بيلا روسيا وليتوانيا عند نهاية القرن التاسع عشر:

«كانت الأغلبية تعيش فى عتمة السراديب أو الأكواخ الحقيرة المتشابهة ذات الحوائط الرطبة والقاعات المبللة، وكانوا يحشرون سويًا فى جو قاهر مذهل. . عشرة أشخاص يعيشون فى حجرة. . وكان من الرفاهية أن تكون هناك حجرة لأسرة واحد من العمال». (Mendelson 1970: 13-14).

هكذا كانت ظروف المناطق الحضرية فى أوروبا الشرقية شنيعة. وفضلاً عن ذلك، كان الإبداع التكنولوجى بطيئًا بطريقة تبعث على الأسى، وكانت معظم أماكن العمل صغيرة لا تستخدم أكثر من خمسين شخصًا، وفى غالب الأحيان لم يكن عددهم يزيد عن حفنة قليلة. وهكذا كانت «صناعة النسيج» تستأجر النساجين من أجل أنوالهم الخشبية العتيقة. ويعملون ما بين ١٦ إلى ١٨ ساعة يوميًا فى أماكن مزدحمة بلا تهوية. وكان اليهود نادرًا ما يستخدمون فى المصانع الآلية التى كانت أحوالها أفضل. كذلك استُخدم اليهود للعمل اليدوى فى النجارة، وصناعة الأقفال، وصناعة الجوارب والملابس الداخلية، والدباغة، ومصانع التبغ والكبريت (التى كانت تستخدم أعدادًا كبيرة

من النساء والأطفال حتى سن السادسة)، وفى صناعة ألياف من الشعر، وهى صناعات لم يكن من شأنها أن تصير جوهر الاقتصاد الجديد والمجتمع الجديد فى الإمبراطورية الروسية. ومع هذا، فإن هؤلاء العمال اليهود كان عليهم أن يقوموا بمحاولة بارزة للتحرر الاقتصادى والاجتماعى والسياسى. وقد برهنوا على استعدادهم للقيام بعمل جماعى ضد هذه الظروف الشنيعة، وساعدوا على نشر فكرة الأضراب الجماعى باعتباره سلاحًا سياسيًا للتحرير، خارج نطاق صفوفهم[٣].

حركة إضراب العمال اليهود

لماذا لم يكن اليهود يُستخدمون فى المصانع المميكنة؟ لقد لعب العداء لليهود دورًا فى هذا بطبيعة الحال، ولكن السبب الرئيسى مدهش تمامًا:

«كان معظم أصحاب العمل (من اليهود وغير اليهود) يفضلون المسيحيين عن العمال اليهود؛ لأن المسيحيين كانوا محل ثقة أكثر. وحركة إضراب اليهود فى أوروبا الشرقية.. زرعت الرعب فى قلوب أرباب العمل. ففى سمورجون شرح صاحب مصنع يهودى الأمر: «اليهود عمال جيدون ولكنهم قادرون على تنظيم حركات التمرد.. ضد صاحب العمل، وضد النظام، وضد القيصر نفسه..» وقد اتفق المراقبون الاشتراكيون وغير الاشتراكيين معًا على أن أرباب العمل فى بياليستوك يخشون الإمكانية الثورية لدى العمال اليهود مما قادهم إلى تفضيل الاستقرار النسبى للقوة العاملة غير اليهودية» (Mendelsohn 11970: 22).

وكانت حركة إضراب العمال اليهود عبر شرق أوروپا، ولا سيما بيلا روسيا وليتوانيا، جديرة تمامًا بالشهرة التى تحققت لها:

«الحرفيون.. شكلوا الكوادر الأولى لتحريض العمال. وبالتدريج عندما تكاثرت الحركة وانتشرت، انجذب العمال الأكثر تخلفًا من مصانع السجائر والكبريت الكبيرة داخل موجة الاحتجاج (هنا المستوى الثقافى متدنى للغاية؛ إذ كانت أغلبية العاملين فى مصنع جرودنو الضخم من الأميين). وفى ڤيلنا حدث أول إضراب من عمال المصانع سنة ١٨٩٥م، بعد ثلاث سنوات من بداية هجوم الحرفيين. وقد كان الاضطراب الذى قام به عدة مئات من العمال فى مصنع السجائر أكبر مؤسسة فى

ڤيلنا، علامة على مرحلة جديدة فى تطور حركة عمال المدينة. لقد كانت فى الحقيقة المرة الأولى التى يتم فيها تحدى رجل صناعة رئيسى، وليس مالك حانوت صغير . . وفى بياليستوك تم تنظيم الفتيات العاملات فى مصنع السجائر بواسطة محرض من ڤيلنا، وهو رجل محنك من حركة مينسك.

انتشر الإضراب من الحوانيت إلى المصانع، ومن المراكز الكبيرة إلى المدن الصغيرة. وبصفة عامة كانت حركة العمال فى الجماعات الصغيرة تندلع شرارتها بوصول العمال من المدن المجاورة . . . ولأنهم كانوا أصحاب خبرة فى أساليب التحريض . . وفى ديسنا المدينة التى تقع فى إقليم ڤيلنا، طرحت فكرة صراع الطبقات من قبل عدد من عمال الغزل. وكانت حركة العمال فى إهومين قد اندلعت بتحريض من محرض جاء من مينسك مجهزاً بحقيبة مليئة بالكتابات غير القانونية، وفى دروهيكزين اندلعت الاضرابات الأولى بعد أن عقد عدد من اتحاد پينسك اجتماعًا فى المعبد اليهودى المحلى» (Mendelsohn 1970: 82-4).

لقد كان المحرضون على حركات الإضراب وقادتها جميعًا أعضاءً فى البوند، وهى العصبة التى امتدت بسرعة خلال تلك الفترة بحيث صارت حزبًا سياسيًا ثوريًا. والزعيم الصهيونى، حاييم وايزمان، الذى كتب سنة ١٩٠٣م، سلم بقوتها قائلاً: «إن أقسى نضال خضناه فى كل مكان ضد البوند . . . هذه الحركة تستهلك الكثير من الطاقة والبطولة . . . فالأولاد فى حال من التمرد الصريح ضد آبائهم» (Finkel 1984: 141). وقد كسبت حركة الإضراب للبوند مكانًا خاصًا، بيد أنه مثير للجدل، إلى جانب الأحزاب الثورية الرئيسية التى كانت تتحدى الإمبراطورية الروسية، الثوريون الاشتراكيون والمنشڤيك والبلشڤيك، وكذلك الأحزاب القومية. وقد أنتجت حركة البوند عدداً كبيراً من الكوادر الاشتراكية من أبناء الطبقة العاملة، الذين حمل الكثير منهم أفكارهم معهم إلى خارج البلاد عندما هاجروا، وكان لهم فيما بعد إسهامات مؤثرة فى انتشار الحركات الاشتراكية فى جميع أنحاء العالم الصناعى. وكانت حركة البوند تعتبر التعليم الاشتراكى مهمًا بقدر التحريض على الإضرابات ذات المراحل لتحسين الأجور وظروف العمل. وقد سُئل عمال الغزل بمدينة ميزريخ، وهم إحدى أكثر المجموعات تشدداً، من جانب صاحب العمل القلق عما سيفعلونه فى وقت

«فراغهم» بعد أن أجبروه على تخفيض ساعات العمل (إلى اثنتى عشرة ساعة يوميًا. وقد أطلعوه على الكتابات الاشتراكية التى أصدرتها حركة البوند وأجابوا «هذه توراتنا ـ سوف ندرسها فى وقت فراغنا»(Mendelsohn 1970: 86).

هذه الملاحظة ليست على سبيل المزاح والسخرية. ولم يكن أصحاب العمل اليهود وحدهم الذين تكدروا منها. إذ كان الحاخامات قلقين بشكل متزايد بشأن المانفيستو الشيوعى الذى حل محل التوراة، وفى بعض الأحيان فى الأماكن المستبعدة تمامًا:

«لقد تركت مئات عديدة من الشباب المدارس الدينية اليهودية، اليشيڤا، وانغمسوا فى العالم العلمانى البهيج. وقد انطوت هذه العملية على الابتعاد تمامًا عن الكثير من القيم الموروثة من عالم آبائهم، مثل تفضيل حياة الدراسة الدينية على غيرها... كانت حدة الشقاق والانفصال عن الماضى تتجلى بأكبر قدر من الحيوية عندما كان... طلاب اليشيڤا.. يتحولون عن وعى من مقعد الدراسة إلى طاولة العمل، وهناك يتعرضون لرسالة التحرير الاجتماعى التى تروجها حركة البوند بكل عيونهم وقلوبهم وعقولهم» (Medem 1979: 217 n 1).

هذه الفقرة من مذكرات ڤلاديمير ميديم، وكان أحد زعماء حركة بوند فى شرق أوروپا. ويشرح الپروفيسور سام بورتنوى فى تقديمه المذكرات نفسية العامل اليهودى الجديد «الذى خاض الصراع ضد نفسه وكسبها ـ صراع ضد سلبياته ومخاوفه»، وظهر آنذاك ثوريًا على استعداد لأن «يتنصل من نظام الخوف المؤسس» الذى كان يسود زعامة الجماعات اليهودية القديمة. (Medem 1979: 16).

وقد ترك لنا أحد أعضاء البوند، وهو آبى كاهان صورة حية عن الشاب ميديم نفسه، الذى كان من الثوريين الاشتراكيين اليهود، طالبًا أرستقراطيًا روسيًا شجاعًا من عائلة كانت قد اعتنقت المسيحية، وكان على استعداد دائم لمواجهة الموت بترحيله إلى سيبيريا، وتعلم اللغة اليديشية «بشكل جميل»، وهى لغة الفقراء اليهود، والتى كان اليهود الروس المندمجون يستبعدونها عادة على أنها «رطانة» غير مفهومة. (Medem 1979: 33 - 36).

ونلحق بميديم فى «البيرزها ـ Birzha»، و«هو الشارع الذى كان فى كل مدينة

محدداً لاجتماع المحرضين مع الجموع». وكانت هذه الجموع المزدحمة توفر غطاء يحمى من مراقبة البوليس على حين تؤسس الروابط «بالاتصال الجديد بورشة أو أخرى». وكانت هذه الشوارع «البيرزهات» تغص بالمئات من الأشخاص كل ليلة، وكلهم من نمط العمال الشباب. . والوجوه المألوفة للناشطين. . والناس الجدد المتلذذين بالنشوة الناجمة عن المرحلة الأولى فى تلقى التعاليم المدهشة الجديدة» .(Medem 1979: 159)

ويبين ميديم أيضًا الطريقة التى كانت الحركة الثورية تبدأ بها فى قلب نزعة معاداة السامية رأسًا على عقب. إذ كان قد درس بجامعة مينسك. وهناك إذا ما صدمهم تدخل أحد المعادين للسامية المعزولين، أمسك الطلبة الثوريون بهذا الشخص، وحاكموه على مدى يومين، أمام اجتماع شامل للجامعة بأسرها» (Medem 1979:108)

ويصف حادثا لافتًا للنظر فى مدينة ريجا سنة ١٩٠٥م عندما اندلعت الثورة فى النهاية. وقد اعتمد مصيرها على عمال السكة الحديد هناك، ولم يكونوا من اليهود بالتأكيد؛ لأن مشاركتهم فى الإضراب العام كانت حيوية تمامًا من الوجهة الإستراتيجية. وكانوا يصيحون بلفظ Zhid (وهو سب خاص باليهود) ضد الخطباء حتى أولئك الذين لم يكونوا يهوداً من بينهم. . بيد أن «مكسيم» الخطيب الممثل للبوند «وهو شاحب رفيع هزيل، له ذقن قاتمة اللون. . ليس من البروليتاريا المكدودة من غير اليهود» استطاع أن يكسبهم إلى جانبه. (Medem 1979: 430 n.6).

وبدا أن توقعات البوند على وشك أن تتحقق فى ثورة ١٩٠٥م. وباختصار ظهر وكأن المثل العليا للثورة الفرنسية سوف تحملها حركة عمالية اشتراكية متعددة الأعراق ومتعايشة دينيًا، بحيث تحقق التحرير للجميع، على حين كانت إمبراطورية القيصر تترنح، حتى وإن كان الثمن تضحيات جسيمة:

«فى الخامس من شهر يونيو وفى مدينة لودز (ثانية المدن الكبرى فى پولندا) تم إطلاق النار على مظاهرة، شارك فيها مؤيدو البوند والأحزاب الاشتراكية البولندية، وبعدها بيومين سار فى جنازة القتلى خمسون ألف شخص. وتمت الدعوة إلى إضراب عام. . . وفى تلك الليلة أقيمت المتاريس والحواجز فى الحى اليهودى وفى غيره من المناطق فى المدينة. . . وجرت معارك مريرة مع الخيالة طوال الليل وفى اليوم التالى.

ولقى المئات حتفهم، وكانت غالبيتهم من اليهود. وقد كتب مراسل الصحيفة الثورية الروسية، «إسكرا»:

«إننى لا أملك سوى التأكيد على الاحترام العظيم الذى كان. . . لودز المسيحى يكنه لليهود. إذ إن المسلك البطولى لليهود فى المصادمات مع البوليس والجيش قد أثار الإعجاب فى كل مكان. . . وثمة أساطير تنتشر عن معركة الأمس بين اليهود والقوزاق ـ وهى أساطير تصف اليهود بأنهم من نوع شمشون» (Frankel 1981: 147).

وقد لاحظت «ڤوسخود» الجريدة اليهودية ـ التى كانت تتسم عادة بالحذر والاعتدال ـ الاتجاه العام فى كل مكان بقولها: «لم يحدث من قبل أن كان السكان المسيحيون فى شرق أوروپا على هذا القدر من التضامن مع اليهود» (Frankel 1981: 147).

لقد آتت استعدادات السنوات الطوال التى قامت بها البوند واليهود الذين تصرفوا باعتبارهم أعضاء من الأحزاب الاشتراكية الروسية والپولندية ثمارها. وكانت الثورة قد اندلعت:

«ولقد رأت فيها قطاعات كبيرة من اليهود جزءًا من النظام الطبيعى للأشياء: الانتقام من خمسة وعشرين عامًا من الإهانة. وتحويل اليهود إلى ضحايا. والدخول المستحق منذ زمن طويل لروسيا فى أوروپا» (Frankel 1981: 141).

هزيمة الثورة: النضال من أجل روح العمال اليهود

على أية حال، فشلت الثورة. واندلعت موجة جديدة من المذابح بدأت فى أكتوبر ١٩٠٥م لتضع الحركة جماهيريًا فى موقف الدفاع عن نفسها. وقد عبر ليون تروتسكى[٤]، زعيم السوڤييت، أى المجلس الثورى للعمال فى بطرسبرج، الذى كان يسيطر عليه عمال المعادن المتشددون عن أهميتها بوضوح بقوله:

«لقد تحولت مائة مدينة وبلدة روسية إلى جحيم. كان ثمة حجاب من الدخان يحجب الشمس. والتهمت النيران شوارع بكاملها بما فيها من المنازل والسكان. لقد كان ذلك انتقام النظام القديم لما ناله من إذلال». (Trotsky 1972: 131).

وغرق البوند فى خضم الأزمة. فعلى يمينها كان زعماء الصهيونية من أمثال

فلاديمير چابوتنسكى يؤذونها بسبب انشغالها الشديد بالعمال اليهود، ورفض أخذ مسألة الحاجة لتوحيد كل الطبقات الاجتماعية داخل الجماعة اليهودية مأخذ الجد، وبسبب رفض رؤية «الأمة اليهودية» (Frankel 1981: 253). وعلى اليسار، جاء الطلب من العمال اليهود كافة لتوحيد البوند فى حزب واحد مع البولشڤيك والمنشڤيك. (Frankel 1981: 256)[٥].

كانت هذه مجادلة قديمة. وكانت من أكبر أسباب غضب لينين، لأنها كانت قد انشقت عن حزب ثورى موحد سنة ١٩٠٣م، على أساس أن البوند وحدها هى التى تستطيع أن تمثل العمال اليهود ولا يجب أن يمثلهم غيرها. لقد طلبت البوند لليهود الاستقلال الذاتى الثقافى الوطنى داخل سياق الثورة. ولكن ماذا كان هذا يعنى فى الحقيقة؟ لقد كان الاعتراف بلغة اليديش أمرًا مسلمًا به بالفعل من جانب البلاشفة (وبقدر أكبر من تسليم الصهاينة بذلك). ولكن ماذا عن الاعتراف بوطن يهودى؟ كان هذا يجعل البوند «تصيب الصهاينة بالدوار»، على حد تعبير الثورى چيورچى بليخانوف (Frankel 1981: 225). كان رأى لينين أن العمال اليهود ربما كانوا على قدر من التقدم يمكنهم من التغلب على حدود الوعى القومى. وأشار إلى نيويورك، حيث كان المهاجرون من العمال اليهود منشغلين إلى درجة كبيرة فى بناء اتحادات مهنية متعددة الأعراق وفى بناء الحركة الاشتراكية الأممية (Lenin 1972: 20, 27-33).

وفى سنة ١٩٠٣م، أدت هذه المجادلة إلى انقسام جاد فى مجلس البوند. . . فقد كانت القيادة فى وضع حرج تمامًا لدرجة أنها حذفت المناقشة من المضبطة (Medem 1979: 281).

وكان هناك عاملاً آخر لاحظه «الماركسى الصهيونى» بن بوروشوف. إذ لم يكن العمال اليهود قادرين على أن يقاتلوا وحدهم إلى الأبد. فمن ناحية، وفى ضوء عدد الإضرابات، أظهرت حركة الإضراب اليهودية فى شرق أوروبا كثافة أعظم من أى مكان آخر فى العالم. ومن ناحية أخرى، كانت إحصاءات الإضرابات مضللة إلى درجة كبيرة. فقد وقع معظمها فى أماكن عمل صغيرة، لدرجة أن إضراب ثلاثة حاكة فى مينسك كان يُعد مساويًا لإضراب قام به ثلاثة آلاف من عمال الصلب فى بيتسبرج

(Mendelsohn 1970: 85) . وقد خلص بوروشوف إلى نتيجة مؤداها الهجرة إلى فلسطين . وكان على لينين أن يدمج حركة العمال اليهود فى الحركة العمالية الأوسع وأن يجعل الحرب من أجل حقوق المساواة اليهودية ، والعداءلكل أشكال معاداة السامية ، جزءًا مندمجًا من البرنامج الثورى .

ومن المثير أنه حتى بن جوريون كان مجبرًا على الاعتراف بأن لينين والبلاشفة لم يكونوا قط يساومون فى عزمهم على تدمير معاداة السامية . لقد كانت إدارة لينين وحدها هى القادرة على جمع القوة اللازمة للدفاع عن اليهود ضد أعدائهم ، كما ذكر بن جوريون بعد ثورة ١٩١٧ (Teveth 1987: 232) .

بعد سنة ١٩٠٥م دارت المعركة بين البوند والصهاينة ، وعلى حد تعبير أحد الكُتاب : «من أجل كسب قلب كل شاب وفتاة يهودية وعقلها فى كل مدينة وفى كل قرية يهودية (شتيتل)» (Frankel 1981: 156) .

وكان معيار قياس تأثير السياسات الماركسية ، ومركزية العامل اليهودى كمقاتل ثورى ، هو الطريقة التى كانت بها الحركة الصهيونية نفسها مجبرة على أن تتواءم معها . وكان بن جوريون شاهدًا فريدًا .

عندما اندلعت ثورة ١٩٠٥م ، كان بن جوريون يعيش فى وارسو على بعد ستين كيلومترا من مدينته بلونسك . ووفقًا لشابتاى تيفيث ، كاتب سيرته المتعاطف معه ، كان بن جوريون يعتبر أولئك اليهود ، الذين رآهم فى طليعتها ، يضيعون حياتهم فى قضية لا أمل منها ، إذ كان يرى أن «الخلاص اليهودى لن يوجد سوى فى فلسطين . . . وربما تحرر الثورة روسيا وبولندا ولكنها لن تحرر اليهود» (Teveth 1978: 25-6) .

بيد أن بن جوريون فهم تأثير الأفكار الماركسية على الخيال الراديكالى للشباب اليهودى . ففى وارسو صادف الحزب «الصهيونى ـ الماركسى» ، وهو حزب «پوال زيون» الذى حاول تعديل الأفكار الماركسية لتلائم القضية الصهيونية . وشعر بن جوريون أنه مضطر إلى الانضمام إلى هذا الحزب حتى على الرغم من أنه لا يوافق على أفكاره (Teveth 1987: 30) . ولم يكن بوسع الصهاينة أن ينافسوا الأحزاب الثورية إلا باللعب حسب قواعد اللعبة لديهم ، وكان حزب پوال صهيون هو أداتهم المختارة . ومرَّ

بن جوريون بتجربة شخصية عن معنى هذا . فبينما كان بوارسو ، كانت البوند قد نظمت فرقًا دفاعية تحسبًا لهجوم ومذابح متوقعة فى پلونسك وعلم بها بن جوريون وتأثر بها للغاية . وعاد بن جوريون إلى موطنه وقد عقد العزم على هزيمة البوند . ووصف تيڤيث لما حدث بعد ذلك كان يمكن تطبيقه على أية قرية يهودية ، أو بلدة ، أو مدينة بشرق أوروبا .

وتحدى بن جوريون وحزب «پوال زيون» البوند فى مناقشة عامة فى المعبد اليهودى الكبير بالمدينة . وأرسلت البوند خطيبًا بارزًا . وأغلقت الحوانيت بهذه المناسبة «وبدافع الاحترام للمعبد وضعوا مسدساتهم على الطاولات» (Teveth 1987: 32) .

ويؤكد لنا تيڤيث أن بن جوريون كسب بسهولة المناقشة ، ولكن يبدو أن صحافة البوند اعتبرت هذا نوعًا من النصر فادح الثمن عندما قالوا إنه هدد بتوجيه بنادقه على أعضاء البوند . ومن المثير أيضًا أن بن جوريون شعر أنه مرغم على تدعيم قاعدته فى البلدة بتنظيم النقابات . (Teveth 1987: 33).

الانعكاس المتصدع: تأثير ١٩٠٥م على الحركة الصهيونية فى فلسطين

تأثر جيل بن جوريون من الشباب الصهيونى فى شرق أوروبا بتجربة ثورة ١٩٠٥م إلى درجة عميقة . إذ إنها وفرت كادرًا خاصًا للغاية ليقوم ببعثة الحركة الصهيونية إلى فلسطين . بل إن هناك من يجادل بأنه لم يكن ممكنا أن تقوم دولة يهودية :

«بدون تدخلهم فى اليشوف . . والجوهر الصلب داخل الشباب المهاجر ، الذين ربما لم يزد عددهم على مائتين أو ثلاثمائة ، كانوا مشحونين بدرجة استثنائية من الطاقة السياسية ـ وهى طاقة تستمد قوتها من التجربة الثورية الروسية ، من ناحية ، ومن مذهب الخلاص اليهودى من ناحية أخرى . . .

كانوا معادين للكهنة ، وغالبًا من الملحدين ، بيد أن رؤيتهم للعالم بقيت فى غالب الأحوال مسيحانية ـ شكلتها «الهدير» (أى تعليم الشباب واليشيڤا (أى المدارس الدينية ، وبالتربية الحيدية أو بارتباطهم العاطفى الدقيق بهرتزل ، باعتباره البشير بالخلاص الذى طال انتظاره ، فى نهاية الزمان . . .

أما أولئك الذين كان ارتباطهم بالصهيونية من بين الشباب المهاجر يضرب بجذوره في المفاهيم الاجتماعية ـ الثورية وحدها دون الخليط الإضافي بالأسطورة القومية، فإنهم نادراً ما كانوا يمكثون في البلاد قدر بن جوريون الباقين بنسبة ١٠٪ فقط» (Frankel 1981: 366-8).

وجرت محاولة لخلق إيديولوچية اشتراكية متماسكة من هذه الطريقة الغريبة التي أعطت بها الثورة الروسية الطاقة لما يمكن أن نسميه الحنين الديني لدى أقلية من الشباب اليهودي، لتكون أساسًا لقومية يهودية في فلسطين. وعلى الرغم من أن العمال اليهود اعتبروا من قبل البوند بمثابة العنصر الاجتماعي لعملية التحول في الحياة القومية اليهودية، فإن هذه الحجة أخذت بمعنى مختلفًا تمام الاختلاف عندما وضعت على أرض الحقائق في العالم العربي. إذ إن الأفكار الاشتراكية كانت تستسلم باستمرار للقومية اليهودية الكامنة في بؤرة التركيز الإيديولوچي على العمال اليهود(*).

وفي مؤتمر حزب پاول زيون (الماركسي / الصهيوني) الذي عقد في يافا سنة ١٩٠٦م، عارض بن جوريون بشدة الأقلية الماركسية الأكثر تشدداً، والذين اعتقدوا بسذاجة أن على الاشتراكيين اليهود أن يساندوا ويساعدوا العمال العرب في تنظيم اتحادات مهنية، بدلاً من النضال من أجل العمال اليهود وحدهم.

وكان لا بد لهذه الحجة من أن توضع بسرعة موضع الامتحان القاسي أثناء الإضراب احتجاجًا على الأجور المتدنية من جانب عمال مزارع البرتقال العرب من قرية بتاخ ـ تيقا. إذ حاولت نفس الأقلية الماركسية تنظيم حركة تضامن مع أولئك الذين اعتقدوا أنهم إخوانهم العرب في النضال. «وفي الحال قامت السلطات العثمانية والمستوطنون اليهود وزعماء العمال الصهاينة بإغلاق الصفوف أمام عمال مزارع البرتقال ـ وتم القبض على المضربين وتعذيبهم ولكنهم رفضوا أن يخونوا رفاقهم اليهود» (Weinstock 1979: 87)[٦].

ومن وجهة نظر الصهيونية، لم تكن المشكلة مع العمال العرب في بتاخ ـ تيقا ـ

(*) فهل كان الثوار اليهود يقودون الحركة الاشتراكية والشيوعية، بينما يعملون فعليًا لصالح القومية اليهودية والأرض الموعودة والشعب المختار؟ ـ المترجم.

أنهم قاموا بالإضراب فحسب، وإنما كانت المشكلة أنهم يشغلون وظائف فى «الاقتصاد اليهودى».وظهر شعار جديد مشئوم. لقد ظهر ليكون شعاراً اشتراكيًا ولكن فى الممارسة كان هو النقيض تمامًا للاشتراكية من حيث إنه كشف عن المشاعر المعادية للعرب على نحو مهلك، وهى المشاعر التى كانت وصمة على حركة اتحادات العمال الصهيونية، الهيستدروت. كان الشعار يقول «غزو العمل» (Weistock 1979: 133). وهو ما يعنى «غزو اليهود لوظائف العرب».

كان الهيستدروت على الدوام أكثر من مجرد اتحاد عمال. ففى الأيام الباكرة تحت حكم الانتداب البريطانى كان هو أكبر مستخدم بعد الحكومة:

«كانت هذه السياسة تميل إلى تجهيز الطبقة العاملة اليهودية النامية فى فلسطين ببنية تحتية اقتصادية لا يمكن الاستغناء عنها؛ إذ كانت تعاونياتها المنتجة توفر الوظائف للمهاجرين اليهود، كما أن شركات البيع لديه تضمن تسويق المنتجات الصهيونية. . . كان المعادل لشعار اتحاد العمال «العمالة اليهودية» هو شعار «الإنتاج اليهودى».

«كان الأپارتهيد الاقتصادى الصهيونى مكونا أصيلاً فى الهيستدروت... وكان على كل عضو أن يدفع ضريبتين إجباريتين:

(١) للعمال اليهود ـ ميزانيات لتنظيم فرق الإضراب من العمال ضد استخدام العمال العرب، إلخ.

(٢) للإنتاج اليهودى لتنظيم مقاطعة الإنتاج العربى[٧]... (Weistock 1979: 184).

وهكذا، فإن الأفكار التى كانت مرتبطة تقليديًا باتحاد العمال والنضال الاشتراكى، مثل تنظيم الإضرابات والمقاطعة، انقلبت رأسًا على عقب واتخذت معانى على النقيض تمامًا من مقصدها: وبعبارة أخرى، تدمير التضامن بين العرب واليهود بدلاً من ترقيته. هذه «المبادئ» التى تبنتها حركة اتحاد العمال اليهودية فى فلسطين، كانت بمثابة نذير بأسس الدولة الإسرائيلية نفسها: أى الفصل المؤسس بين العربى واليهودى، وتفضيل اليهودى على حساب العربى.

هرتزل: مسيح رد الفعل القادم من الغرب

أوضحت الحقائق العربية فى فلسطين النزعة الانعزالية المتضمنة فى المشروع

الصهيونى وزادت من صلابتها. والحقيقة، مع هذا، فإن المنظرين الأصليين للصهيونية مثل ملهمها الرئيسى تيودور هرتزل، كانوا بالفعل قد حولوا الشعور بالعزلة اليهودية الذى فرضته معاداة السامية الأوروبية إلى فضيلة ـ هذا البعد فى الصهيونية هو الذى يعطى إيديولوچيها هذه السمة العميقة لرد الفعل، وذلك قبل مواجهتها الحتمية مع فلسطين العربية بزمن طويل.

وثمة صورة حديثة تتعاطف مع هرتزل، كتبها بقلمه الكاتب الصهيونى روبرت ويستريتش، تذكرنا بأنه كان فى پاريس سنة ١٨٩٢م أن بدأ هرتزل يرى معاداة السامية كظاهرة عالمية. وزعم أن الناس «فى فرنسا الجمهورية، الحديثة، المتحضرة، وبعد مائة سنة من إعلان حقوق الإنسان» قد أبطلوا بطريقة عفوية مرسوم الثورة العظمى (Wistrich and Ohana 1995: 17-18). كانت تلك استجابته لمحاكمة ألفريد دريفوس، ضابط الجيش اليهودى الفرنسى، الذى أتهم بالخيانة. وقد صارت المحاكمة قضية مهمة لكل من اليمين واليسار، وقد اشتهرت على يد الروائى إميل زولا، وصيحة الحشد التى أطلقها «إنى أتهم J'Accuse»، حيث عبأ اليسار لصالح دريفوس. ولكن هرتزل لم يستطع أن يرى فرنسا سوى من خلال عيون اليمين القومى، حيث تكمن ميوله السياسية (Shapira 1992: 12) واستسلم لرؤية اليمين بأن نزعة معاداة السامية سوف تستحوذ على غالبية الشعب فى فرنسا. وكان عليه أن يقول إن المحاكمة هى التى حولته إلى صهيونى.

ويتجاهل ويستريتش، وهو يعاود حكاية هذه القصة، الطريقة التى كانت بها محاكمة دريفوس أيضًا خط تقسيم حدود لليسار. لقد كانت بمثابة صيحة استيقاظ، على حد تعبير الزعيم الاشتراكى الفرنسى چان جوريه «لاتخاذ مواقف فى الصراعات الدائرة بين مختلف الفصائل البورجوازية.. لإنقاذ الحرية السياسية، كما حدث فى قضية دريفوس، للدفاع عن الإنسانية» (Jacob 1992: 15). وكما فى روسيا، كان على الحركة الاشتراكية النامية آنذاك أن تتقدم حاملة المثل المكتوبة على راية الثورة الفرنسية. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا سوف يرى اليسار معاداة السامية «أكثر خصومه خطورة»[٨]. (Jacob 1992: 12). وقد ألزم اليسار نفسه بتحدى الإنحيازات فى صفوف مؤيديه المتزايدين من الطبقة العاملة. ومن المثير حقًا، أن دريفوس نفسه وقف مع الاشتراكيين، ورفض الصهيونية باعتبارها «فوضوية» (Burns 1992: 302).

حينذاك طور هرتزل موقفًا صادمًا صريحًا من معاداة السامية. وكتب أنه كان مستعدًا «للفهم والعفو» تجاهها. (Wistrich and Ohana 1995: 11). ومسامحة معاداة السامية أتاحت له أن يطور مبادرة دبلوماسية عكسية في روسيا، صدمت الكثيرين حتى داخل المعسكر الصهيوني وهزتهم، فبعد عدة أشهر من وقوع واحدة من أكبر المذابح دموية على الإطلاق في كيشينيف سنة ١٩٠٣م عندما قتل حوالي خمسين يهوديًا، عقد هرتزل اجتماعًا مع سياتسلاف قنسطنطوڤيتش پليڤي، الوزير القيصري الذي يعد مسئولاً عن المذابح المائة السوداء. وبعيدًا عن أن يكونوا في موقف الدفاع، أخبر پليڤي ورفاقه الوزراء هرتزل أن المشكلة كانت هي ثورة اليهود التي تشكل تهديدًا ماثلاً. وزعم پليڤي أن الشباب اليهودي كانوا يكونون ما يصل إلى نصف عضوية الأحزاب الثورية.

واستمع هرتزل بروح من التعاطف. وكتب تقريرًا إلى المؤتمر الصهيوني السادس تلك السنة بأن مؤيديه في روسيا ممن يدعمون الثورة يجب أن يبدأوا التصرف «بهدوء وبطريقة قانونية». وقد اعتبر الشباب الاشتراكيون في المؤتمر أن ملاحظاته خيانة حقيقية، وأصدروا كتيبًا متمردًا عنوانه «لا بهدوء ولا بطريقة قانونية» (Frankel 1981: 279). وقد زادت البوند من قوة الاتهام بالخيانة. لقد كانت «مساهمة حقيقية ... تساعد النظام على التخلص من اليهود الذين لا يريدهم» (Medem 1979: XV).

ومع هذا، فإنه لا ينبغي لنا أن نقلل من قيمة جاذبية هرتزل في شرق أوروپا. فبعد زيارته لپليڤي، استطاع أن يجمع الجموع الغفيرة، حتى في معقل البوند في ڤيلنا (Frankel 1981: 179). إن جاذبيته المسيحانية ـ إذ كان يحمل لقب ملك اليهود في شرق أوروپا ـ قدمت وهمًا حذقًا مريحًا وباقيا. وكان محبًا للجمال، أوروپيًا شهيرًا ـ بوصفه كاتبًا مسرحيًا وصحفيًا كان حبيب البورجوازية اليهودية في ڤيينا ـ يلعب على موضوعات وعواطف يهودية قديمة، لشعب يناضل الآن ضد الأحوال الكريهة والخانقة. كان ما يقدمه هو حلم أشبه بتذكرة العودة إلى المستقبل. كان يقول: «انظروا إليّ إنني يهودي شق طريقه في العالم الحديث، وفي وسعكم أن تفعلوا هذا أيضًا إذا اتبعتموني إلى فلسطين، لنبني وطنًا حديثًا في وطننا القديم». ونسي أن يخبرهم عن الشعب العربي الذي كان يعيش هناك بالفعل. «كانت لدى هرتزل موهبة فريدة لنسج

وهم القوة، لخلق حالة فرض الإرادة الوطنية على شعب مشتت؛ ويعانى من الإحباط» (Wistrich and Ohana 1995: 16).

كان هرتزل على استعـداد للمساعدة فى حماية الوضع القيـصرى كما هو؛ لأنه أراد من القيـصر أن يـمارس الضغـط على السلطان العثـمانى لكى يسـمح لمزيد من اليـهود الروس بدخول فلسطين. وكـان قد أطلق دعوة هجومـية وديماجوجيـة شديدة للسلطان حيث كان قد عرض التنظيم اليهودى لماليات الـسلطان فى مقابل السماح لليهود بدخول فلسطين، مما ساعـد وشجع تلك الأصوات التى كانت تبـالغ بالفعل فى مزاعمـها بشأن القوة المالية اليهودية. بيد أن السلطان رفض فى أدب.

كانت دعوة هرتزل كاشفة فى زاوية أخرى. إذ كانت تضع الخاتم على الاستراتيچية الصهيونية حتى نهاية القرن العشرين، وهو ما ستتم دراسته بالتفصيل فى بقية الكتاب، باعـتـبارهـا أداة سيـطرة القـوة العظمى عـلى العـالم العـربى **«كان لنا أن نشـكل جزءاً من استحكامات أوروپا ضد آسيا، لنكون طليعة للحضارة ضد البربرية»** (Vital 1975: 266).

هل هو شعب بلا أرض؟

بعد ذلك بمائة سنة نستطيع أن نضع تقويمًا كاملاً لهذه الخرافة، التى ربما كانت هى الخرافة الوحيدة التى لها صدى فى الحقيقة. وهذا بسبب أن كل الطرق الثلاثة الممكنة لتحرير اليهود فى شرق أوروپا فى بداية القرن العشرين ـ الهجرة إلى أمريكا، والهجرة إلى فلسطين، أو التحرر من خلال النضال للإطاحة بإمبراطورية القياصرة ـ كان عليها أن تواجه أقسى الاختبارات. وعلى الرغم من أن التطبيق الناجح للبرنامج البلشڤى، فى أعقاب ثورة ١٩١٧م فى روسيا، كان لا بد أن يحقق التحرر اليهودى بعيد المنال، فإن الأمر لم يكن كذلك. ذلك أن سنوات الستالينية الطويلة قد أعادت لفترة مشاعر معاداة السامية التى تستميل الجمهور، لدرجة أنه عندما تفكك الاتحاد السوڤييتى فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين، حدث خروج جماعى لما يزيد على مليون يهودى سوڤييتى.

ولكن هنا كان الاختبار. هل كانوا سيختارون أمريكا أم إسرائيل؟ لقد اختارت أعداد هائلة منهم الذهاب إلى أمريكا حـينما كان ذلك ممكنا،مسـتغلين التأشيـرات الإسرائيلية

التى حصلوا عليها. وتم إيقاف ذلك سنة ١٩٨٩م (Beit Hallahmi 1992, 198)[٩]. إذ إن زعيم الجناح اليمينى الإسرائيلى إسحاق شامير قد أصابه الهلع. وهنا كانت النظرية الصهيونية عن التاريخ اليهودى قد انقلبت أمام عيون العالم. واتصل شامير بالرئيس ريجان لعقد صفقة مؤداها: ساعدونا على إعادة توجيه هؤلاء المهاجرين إلى إسرائيل، ونحن سوف نكون أصدقاءكم بدرجة أكبر وسوف نتبع سياساتكم فى الشرق الأوسط بقدر أكبر من القوة. ووافق ريجان بروح متعاطفة. وسوف يكشف أحد الفصول اللاحقة بقدر أكبر تفاصيل العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل فى ذلك الوقت.

وهنا نحتاج أن نستنتج فقط أن الولايات المتحدة كانت تلعب اللعبة الصهيونية خدمة لمصالحها الخاصة. أما اليهود السوفييت، فإن مفهومهم عن التحرير كان قد تم إحباطه فعلاً وحقًا عندما وجدوا أنفسهم مخالب السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط وأنهم مجبرون على الحياة فى أقل الأماكن أمنا بالنسبة لليهود من أى مكان آخر فى العالم.



الفصل السابع

هل هى إسرائيل الصغيرة الجسورة ؟
أم محمية القوة العظمى؟ (١)
بريطانيا والمستعمرة الصهيونية فى فلسطين

غالبًا ما رسمت الدعاية الصهيونية الصراع من أجل إقامة دولة يهودية فى فلسطين فى صورة ما ورد فى العهد القديم عن داود وجالوت والصراع الخرافى بينهما كتعبير مجازى فى خلفية الصورة: شعب معزول مضطهد بطولى، يقاتل ضد أغراب مسيطرين من أجل الحصول على وطن له. وكان لا بد للنجاح أن يعتمد على اليهود وحدهم، أى على مبادرتهم وشجاعتهم المادية والأخلاقية. ومثل هذه النتيجة لن تكون شيئًا أقل من معجزة حديثة. إذ إن الاستقلال اليهودى والحرية اليهودية قد تحققت فى نهاية المطاف.

إنها أسطورة قوية مقنعة، بيد أنها كانت متصدعة بشكل أساسى فى جذورها وقد وضعت العمليات فى سلسلة منظمة، أخذت آلافًا من المستوطنين اليهودى إلى داخل فلسطين، وأعادت إنتاج نسخة حديثة من الاعتماد اليهودى على الحكم الفردى ـ وكذلك إنتاج أيديولوچيات يهودية أوتوقراطية حديثة ـ تحمل الكثير من خصائص العصور الوسطى بل والعصور القديمة. **ففى الماضى كان اليهود يبيعون خدماتهم للحكام فى مقابل حماية دينهم. وهم الآن يخدمون مصالح القوى العظمى فى مقابل حماية احتلالهم لأرض مملوكة لشعب آخر. وتطورت الأيديولوچية الصهيونية باعتبارها أيديولوچية أوتوقراطية متمايزة، على الأقل فيما يتعلق باستجاباتها لسكان فلسطين الأصليين.**

ويكشف هذا الفصل بالتفصيل كيف أن بريطانيا كانت قد صارت القوة العظمى الأولى التى قامت رسميًا بالمصادقة والتطبيق بتبنى الزعم اليهودى فى فلسطين وكيف

توقعت أن تستفيد فى المقابل. إذ إن الطموح الإمپريالى الخالص اختلط بتيارات تحتية قوية ومزعجة من مشاعر معاداة السامية فى عقول حكام بريطانيا عندما بدأوا يحتضنون العقيدة الصهيونية أثناء الحرب العالمية الأولى. ولم تكن تلك بداية جذابة لحركة «العودة إلى صهيون» الشهيرة جدًا، إعادة مولد الشعب اليهودى التى طال انتظارها فى أرض أصولهم كما زعموا. وعلاوة على ذلك، كانت تلك بداية سوف تخلف للأبد لعنة وجُرحا فى سياسات الصهيونية، لقد كانت علامة على أنها جاءت إلى فلسطين باعتبارها سياسات اضطهاد.

وينتهى الفصل بتأكيد تاريخى لهذا الفرض: الانتفاضة الوطنية الفلسطينية العظمى، الانتفاضة الأولى، وهى حركة تقليدية معادية للإمبريالية والاستعمار، كشفت بحدة شديدة عن أن البريطانيين والصهاينة كانوا مستعمرين يمارسون القهر والاضطهاد.

وهناك فصل لاحق سوف يكشف ما حدث عندما حلت الولايات المتحدة محل بريطانيا كراع، وبدأت تستغل دولة إسرائيل التى تم اختلاقها حديثًا لكى تتابع الخطط الإمپرالية. وقد أدى هذا إلى توسيع الصهيونية باعتبارها سياسات اضطهاد وقهر لدرجة أنها كانت عند بداية القرن الحادى والعشرين، تترنح من الإدانة ضدها على اتساع العالم.

كيف أعلنت بريطانيا ـ لصالح الصهيونية ـ وعد بلفور؟

كان تيودور هرتزل يجادل دائمًا بأن خلق مستعمرة صهيونية فى فلسطين سوف يحتاج إلى مساندة قوة عظمى. فى مرحلة حرجة أثناء الحرب العالمية الأولى، أقنع حكام بريطانيا أنفسهم أن هذه قضية لهم. بطبيعة الحال قضية من أسمى درجات النبالة والشرف، سواء من الناحية السياسية أو حتى من الناحية الروحية، كانت قضية تتماشى تمامًا مع أولئك الذين كانوا يطمحون إلى حكم أعظم إمبراطورية شهدها العالم. كما كانت لها أيضًا جدارة أنها يمكن فى الوقت نفسه أن تساعد الجهود الحربية للحلفاء وكذلك تضمن فلسطين للإمبراطورية البريطانية عندما تضع الحرب أوزارها. **بل إن بعضًا ممن يحملون أشهر الأسماء فى التاريخ الإمبريالى فى القرن العشرين، مثل:** داڤيد

لويد چورچ، وونستون تشرشل، وآرثر بلفور، أعلنوا أنهم اعتنقوا الصهيونية. ومن الغريب أن هؤلاء الرجال أنفسهم معروفين أيضًا باتخاذهم أقصى المواقف غرابة، بل وانحطاطًا، فى معاداة اليهود. فكيف يمكن أن نفسر هذا التطور المحير المربك؟

إننا بحاجة إلى أن نستوعب تمامًا التقاليد الإمپريالية البريطانية، أو على الأقل نعى حالتها. لم يقترب أحد من هذا بقدر ما فعل الشاعر پيرسى شيللى. إذ كان قد سطر قصيدة عنوانها «قناع الفوضى Mask of Anarchy» قبل مائة سنة عن بعض رجال الدولة المشهورين فى التاريخ الإمپريالى أوائل القرن التاسع عشر:

قابلت الاغتيال فى الطريق

كان له وجه يشبه كاسلرياج

كان يبدو ناعمًا للغاية ولكنه عابس:

كانت تتبعه سبعة كلاب بوليسية

ثم جاء التدليس والغش، وكان

مثل إلدون، يرتدى ثوبًا محلًى بالفراء

وكانت دموعه الكثيرة، لأنه يبكى جيدًا

تتحول إلى أحجار رحى الطاحونة وهى تتساقط.

يرتدى الكتاب المقدس، وكذلك النور

وظلال الليل

مثل سيدماوث، جاء النفاق بعده

راكبًا على تمساح.

والمزيد المزيد من الدمار لعبوا

فى هذه المسخرة الفظيعة

كلهم تنكروا حتى عيونهم

مثل الأساقفة، والمحامين، أو النبلاء، أو الجواسيس

(مختصرة)[1]

كان أحد أشهر اللاعبين الإمپرياليين الصغار من حيث سوء السمعة، هو الدمار، إذا كان هناك بالفعل من يحمل هذا الاسم خلال الحرب العالمية الأولى، فهو مارك سايكس الذى كان دبلوماسيًا ارستقراطيًا، من كبار حزب المحافظين، مكلفًا بمهام متعددة، من أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكيةومعاديًا فظًا للسامية. وكان ومعه چورچ پيكو نظيره فى فرنسا، حليف انجلترا الرئيسى فى «آلة الموت»، كما وصف إريك هوبسباوم (١٩٩٤) للحرب العالمية الأولى، قد وجه عينيه الجشعتين إلى شرق المتوسط (الشرق الأوسط) بما فيه فلسطين بطبيعة الحال. كانت الإمبراطورية العثمانية تترنح، وسرعان ما ستكون عرضة للاغتصاب والنهب. وفى سنة ١٩١٦م، تقابل سايكس وپيكو نيابة عن دولتيهما الإمپرياليتين (انجلترا وفرنسا)، لكى يعكفا على دراسة سقوطها والنظر فى توزيع غنائم الحرب. وتذكر عبارات سايكس:

«كان من الواضح أن انتفاضة عربية ستحدث إن عاجلاً أو آجلاً، وأن الفرنسيين ونحن ينبغى لنا أن نكون فى أفضل وضع إذا ما كان للانتفاضة أن لا تكون لعنة بدلاً من أن تكون نعمة» (Said 1995: 221).

وقد صار سايكس أيضًا متعاطفًا مع الصهيونية. ففى غضون سنة واحدة سوف تُلزم وزارة الحرب الإمبراطورية برمتها نفسها بالصهيونية وتنشر إعلان بلفور الشهير، وهو تصريح آرثر بلفور، نيابة عن الحكومة البريطانية، الذى ضمن وطنًا قوميًا لليهود فى فلسطين.

ولدينا شاهد خاص جدًا على هذا التحول الممسوخ الغريب هو حاييم وايزمان. كان

وايزمان خليفة هرتزل بالأمر الواقع، على الأقل من حيث ما يتعلق بتحسين القضية الصهيونية فى بريطانيا. ولأنه كان مهاجراً يهوديًا من روسيا، وعالمًا متمرسًا، فعندما اندلعت الحرب كان وايزمان يعمل خبير مفرقعات لصالح الحكومة البريطانية. أليس مناسبًا تمامًا أن الرجل الذى ساعد على تحويل وزارة الحرب الإمبراطورية إلى الصهيونية كان هو الرجل الذى استخدمته هذه الوزارة لتحسين كفاءة آلتها القاتلة؟ الواقع أن لويد چورچ قد تهكم مرة على سبيل المداعبة قائلا: "إن إعلان بلفور كان هديته إلى وايزمان مقابل خدماته للمجهود الحربى (Segev 2000: 43-4). ومع هذا فإن الدور الأكثر فعالية الذى لعبه وايزمان، كان هو الخضوع لانحيازات وزارة الحرب الإمبراطورية والطريقة القبيحة التى كانت تحكم بها على ما يسمى أحيانًا «المسألة اليهودية».

يا لها من عصابة! الصهاينة الإمبرياليون البريطانيون رقم (١) ديڤيد لويد چورچ

عندما صار لويد چورچ رئيسًا للوزراء فى نهاية سنة ١٩١٦م، أعاد تأكيد تفكيك الإمبراطورية العثمانية باعتبار ذلك «هدفًا رئيسيًا من أهداف الحرب» (Vital 1987: 209). وقد أصرَّ أيضًا على أن يحتل البريطانيون فلسطين. وكان هذا خرقًا فاضحًا لاتفاق «سايكس ـ پيكو»، الذى كان قد وعد فرنسا بنصيب كبير فى فلسطين. وكان يدعمه س. ب. سكوت محرر «المانشستر جارديان» وأحد أقوى مؤيدى لويد. وقبل أن يتولى لويد چورچ المنصب مباشرة، كان مراسل الصحيفة الحربى قد كتب: «إن مستقبل الإمبراطورية البريطانية كله باعتبارها إمبراطورية بحرية» يعتمد على أن تصير فلسطين دولة حاجزة «يسكنها جنس محب لوطنه بدرجة كبيرة» (Fromkin 1989: 271). وقد تطابق هذا مع رؤية وايزمان ومؤداها: «أن فلسطين يهودية ستكون ضمان أمن لانجلترا، ولا سيما بالنسبة لقناة السويس» (Weinstock 1979: 69) كان سكوت قد عرف عن الصهيونية وعن احتمالاتها المزعومة من وايزمان.

والتقارير العاطفية عن صهيونية لويد چورچ تشدد دائما على ارتباطه بالكتاب

المقدس. وقد قيل إنه كان مؤمنًا صحيح الإيمان بإعادة اليهود إلى صهيون بفلسطين (Fromkin 1989: 268) في ذلك التراث البروتستانتي المحب للسامية. بيد أنه كان هناك أيضًا موقف أشد ظلامًا وشؤمًا. إذ كانت لديه رؤية طنانة بشكل مشوه عن «القوة اليهودية»، لدرجة أنها قادته إلى الرأى القائل بأن يهود روسيا كان يمكنهم منع البلاد من الانسحاب من المجهود الحربى المتحالف فى السنة التى اندلعت فيها الثورة الروسية، سنة ١٩١٧م. وهناك حجة تبدو مقنعة، سوف نتفحصها فيما بعد، بأن هذا هو ما حسم توقيت إعلان بلفور، وليس حقيقته. لقد أشار لويد چورج إلى «الجنس اليهودى» و«يهود العالم» وإلى «الصهاينة» كما لو كانوا هم نفس الشىء الذى تدل عليه هذه العبارات كلها، وبذل وايزمان ما فى وسعه لكى يشجع مثل هذه الرؤية (Seveg 2000: 42). وربما كانت لدى هربرت أسكويث، رئيس الوزراء البريطانى السابق على چورچ لويد، أصدق رؤية لخليفته. إذ إن أسكويث لاحظ أن «لويد چورج لا يهتم ألبتة باليهود أو ماضيهم أو مستقبلهم» ولكنه كان يهتم فعلاً بفلسطين (Vital 1987: 233).

رقم (٢) آرثر بلفور

كان بلفور رجل الدولة الذى وقع على الإعلان الشهير، أيضًا ورئيس وزراء فى زمن مرسوم الأجانب Aliens Act **سنة ١٩٠٥م غير المشهور. وقد أدى هذ التشريع إلى إغلاق الباب تمامًا فى وجه المهاجرين من يهود أوروپا الشرقية الذين فروا من موجات المذابح التى جرت فى الإمبراطورية الروسية. وكان بلفور يتابع بنفسه المرسوم فى مجلس العموم.** ومع هذا، فإنه أصرَّ على أنه كان معارضًا شرسًا لمعاداة السامية. بل إن جريدة Jewish Chronicle، التى كانت آنذاك مثل اليوم تعلق بتحفظ على الشئون العامة، عبرت عن دهشتها عن هذا النفاق المذهل (Stein 1961: 149-50)[٢]. ولم تكن الكلمة المؤلفة من الحروف الأولى لعبارة «لا تلعب فى فنائى الخلفى» NIMBY(Not In My Back Yard) قد صُكَّت بعد، ولكنها تناسب موقف بلفور تمامًا. إذ لم يكن اليهود يلقون الترحيب فى الفناء الخلفى لبريطانيا، ولكن كان على بريطانيا أن ترحب بهم فى الحديقة الأمامية لعرب فلسطين، بموافقة العرب أو بدون موافقتهم.

فى الحقيقة، كان بلفور قد اعترف لوايزمان نفسه بتعاطفه مع معاداة اليهود. إذ كان قد أخبر وايزمان عن حوارات جرت بينه وبين كوسيما ڤاجنر، أرملة الموسيقار الألمانى الشهير الذى كان معاديًا صريحًا لليهود، ريتشارد ڤاجنر. **بيد أن الصهاينة شاركوا أيضًا فى «معاداة السامية الثقافية» كما أكد وايزمان لبلفور. إذ اعتقد الصهاينة كذلك أن أولئك اليهود الألمان الذين عرفوا أنفسهم بأنهم ألمان «يؤمنون بالعقيدة الموسوية» (أى أنهم ألمان بالقومية يهود بالديانة) كانوا يشكلون «ظاهرة غير مرغوبة تحط من الروح المعنوية»** (Seveg 2000: 41).

كان بلفور تلخيصًا ورمزًا لذلك التيار المعادى للسامية فى الفكر الإمپريالى البريطانى الذى تحالف مع الصهيونية بعد ذلك. ولم يكن ذلك التيار يحب اليهود الحقيقيين الذين شاهدهم وكذلك لم يكن الزعماء الصهاينة يحبونهم. لقد وافقت الإمپريالية البريطانية على المفهوم الصهيونى بإعادة تنظيم الحياة اليهودية بحيث تناسب النسخة الفجة لإعادة بعث يهود العهد القديم فى ثياب جديدة. وهنا كانت تجربة رومانسية مثيرة حقًا بالنسبة للإمبراطورية البريطانية لإحياء الاستمرارية فى الحضارة الغربية، التى كانت على أية حال تضرب بجذورها فى التراث اليهودى ـ المسيحى، وفى الوقت نفسه تقوى وجودها فى العالم العربى. كانت لها بشأنها خاصية أخلاقية وروحية فريدة على مستوى فكرى لا يمكن أن تصل إليه العقلية العربية ببساطة. وقد لاحظ چورج أنطونيوس، وهو عربى مسيحى فلسطينى بارز يقيم بالقدس، فى لمحة ذكية أن بلفور رأى فلسطين باعتبارها «تمرين تاريخى ـ فكرى وتسلية». وكان على بلفور نفسه أن يقول «إن الصهيونية سواء كانت على صواب أو على خطأ. . . ذات أهمية أعمق كثيرًا من رغبات السبعمائة ألف عربى الذين يعيشون فى الأرض العتيقة وانحيازاتهم» (Seveg 2000: 45).

رقم (٢) ونستون تشرشل

فكرة أن الصهيونية قد تعيد تنظيم الحياة اليهودية كانت لها جاذبية خاصة بالنسبة لونستون تشرشل، الذى صار وزير المستعمرات بعد الحرب ومن ثم صار الوزير

المسئول مباشرة عن تطبيق إعلان بلفور. وكان تشرشل **غاية فى الإنزعاج من الثورة الروسية، كما كان على اقتناع بأن «اليهودى العالمى» كان وراءها.** وسمى البلاشفة «ميكروب» ؛ وهو تعبير يطلق كثيرًا على اليهود فى المنشورات المعادية لهم. وهذا يعزز قناعاته الصهيونية. إذ كان يعتقد أن الصهاينة «سوف يوفرون الترياق المضاد لهذه المؤامرة المنحوسة ويحققون الاستقرار بدلاً من الفوضى فى العالم الغربى» (Seveg 2000: 158).

وكان يمكن لبريطانيا أن تسدى معروفًا للعالم وتوقف الاتجاهات الهدامة لدى يهود روسيا بأن تقدم لهم وطنًا قوميًا فى فلسطين، التى كانت آنذاك جزءًا من الإمبراطورية البريطانية. ووفقا لما كتب قبل أن يتولى وزارة المستعمرات مباشرة سنة ١٩٢٠م:

«إذا ما كان من الممكن والوارد حدوثه، ينبغى أن نخلق فى حياتنا دولة يهودية على ضفاف نهر الأردن تحت حماية التاج البريطانى.. وهو حدث كان لا بد أن يشهده تاريخ العالم، سيكون من كافة النواحى مفيداً ومنسجمًا على نحو خاص مع مصالح الإمبراطورية البريطانية» (Fromkin 1989: 519).

حتى وايزمان كان مندهشًا من استعداد تشرشل لتشجيع الصهاينة. إذ إن وايزمان اعترف ذات مرة لوزير المستعمرات الجديد أن الصهاينة كانوا يهربون الأسلحة إلى داخل فلسطين ردًا على العداء العربى المتصاعد. وأخبره تشرشل: **«نحن لا نهتم، ولكن لاتتحدث عن هذا»** (Seveg 2000: 194).

رقم (٤) مارك سايكس

إن تحول سايكس من عدو لليهود إلى صهيونى يمثل دراسة حالة واضحة لهذه الظاهرة المشبوهة. كان سايكس ينفر من اليهود. فقد كان اليهودى هو «**النمط العتيق من المرابى العالمى.. جشع، همه جمع المال ولا جذور له، ويستحقون الاحتقار عن جدارة عندما يحاولون أن يظهروا بمظهر آخر**». بل إنه فى شبابه رسم «أنماطًا يهودية شنيعة» (Stein 1961: 272). ومع هذا فإن سايكس سوف يصير مرتبطًا بالصهيونية

ويرى فيها تجربة اجتماعية عظمى. فقد أخبر البابا سنة ١٩١٧م أنها سوف ترفع «احترام الذات العرقى لدى الشعب اليهودى» وسوف تنتج «سكانًا بسطاء مزارعين يتحلون بالفضيلة» فى فلسطين. (Stein 1961: 275). وعلى أية حال فإن هذا لم يكن يعنى أن سايكس لم يكن معاديًا لليهود. بل على العكس، كان يرى فى الصهيونية المعادل للمال اليهودى العالمى، والذى كان يعتقد أنه يساند المجهود الحربى الألمانى (Stein 1961: 276) وكان مثل تشرشل من حيث إنه كان يرى أيضًا أن الصهيونية تستطيع مواجهة العناصر اليهودية الدولية الهدامة، ممن كانوا يرون فى «كارل ماركس النبى الأوحد لإسرائيل» (Stein 1961: 275). إذ كان يمكن لهذه العناصر الهدامة أن تدمر المجهود الحربى أيضًا لأنهم كانوا قادرين على سحب روسيا من الحرب كما يعتقد.

لقد كان سايكس يمثل وجهة النظر الإمبريالية البريطانية، بشكل مكثف، والقائلة أن الصهيونية تستطيع إصلاح سلوك «يهود العالم»، وتضمن مساندة «يهود العالم» للمجهود الحربى للحلفاء؛ وضمان فلسطين للإمبراطورية البريطانية بعد الحرب.

وفى الحقيقة، كان الافتراضان الأخيران هما اللذان يهمان أكثر من غيرهما. فعلى أساس هذين الافتراضين كان تشجيع لويد چورچ على انتهاك الاتفاقية التى كان قد توصل إليها مع چورچ پيكو. وكان على سايكس أن يلعب «بالورقة الصهيونية» لكى يرهب الفرنسيين حتى يسقطوا دعاواهم بشأن فلسطين. ولكن قبل أن نتحول إلى تصرفات لويد چورچ وسايكس الهزلية الخسيسة، يجب أولاً أن نعرض باختصار وجهة نظر أخرى مشرفة ومنسية، وهى رؤية يهودية بريطانية ضد الصهيونية.

«معاداة السامية لدى الحكومة الحالية»

كان هذا عنوان ورقة وزارية كتبها إدوين لمونتاجو فى أغسطس ١٩١٧م. (Vital 1987: 282). وإذ كان مونتاجو قد عُين حديثًا وزيرًا لشئون الهند، كان من الصعب اتهامه بأنه لا يحمل فى قلبه مصالح الإمبراطورية البريطانية. وعلى أية حال، فعلى الرغم من أنه كان اليهودى الوحيد فى الوزارة البريطانية، ومن ثم كان يجب أخذ آرائه مأخذ الجد، وبمصادفة غريبة من القدر، كان ابن عمه هربرت صمويل، أول يهودى

يخدم فى وزارة بريطانية، قد خرج لتوه من الوزارة. كان صمويل صهيونيًا وفيًا، وبذلك قوَّض أية مزاعم كان يمكن لمونتاجو أن يزعمها بأنه - لا الصهاينة - كان يمثل المصالح الحقيقية للجماعة اليهودية فى بريطانيا[٣]. ومع هذا، فإن قوة حجة مونتاجو لمست وترًا حساسًا. ألن تخلق الصهيونية هويتين قوميتين لليهود؟ ألن يشجع هذا المعادين لليهود فى كل مكان على المناداة بإخراج اليهود وترحيلهم إلى فلسطين؟ ألم يكن معنى هذا أن فلسطين سوف تصير جيتو يهوديًا حديثًا؟ ألن تقوم الصهيونية نفسها، بعيدًا عن تهدئة نزعة معاداة اليهود، بتزكيتها دونما قصد؟[٤]

وكما لاحظ سجيف، كان هذا بالضبط ما تريده الصهيونية «إن أعداء اليهود، سيكونون أشد أصدقائنا إخلاصًا، والدول المعادية لليهود ستكون حلفاءنا». هذا ما كان هرتزل قد دونه فى يومياته (Segev 2000: 47).

وما يلفت النظر هو كيفية حذق استجابة وزارة الحرب، التى كانت فى ذلك الحين ملتزمة تمامًا بالقضية الصهيونية. فقد ذهبوا شوطًا بعيدًا لإقناع مونتاجو بأنه كان على خطأ. وتم تخصيص ورقة من وزارة الخارجية لتفنيد آراء مونتاجو نقطة بنقطة. كان بلفور، من بين الجميع، هو الذى قاد مناقشات وزارة الحرب مصرًا على أن استيعاب اليهود فى بريطانيا أو أى مكان آخر لا ينبغى أن يتأثر. لقد كان ذلك مقياسًا لمدى كيفية التزام وزارة الحرب آنذاك بالصهيونية، وتم تغافل التحدى الذى طرحه مونتاجو (Vital 1987: 280-6).

إبعاد فرنسا عن فلسطين

«المؤامرة الصهيونية» التى دبرها لويد جورج وسايكس

إن «الصهاينة ربما يكونون حلفاء مفيدين فى جهود خرق الاتفاقية الأنجلو - فرنسية وكانوا بالتأكيد السبب الرئيسى فى إعادة ظهور فكرة فلسطين على أجندة الحكومة» فى الشهور الباكرة من سنة ١٩١٧م. (Vital 1987: 213). وفيتال، الذى كان قد أولى اهتمامًا عميقًا لهذه المرحلة من ارتباط وزارة الحرب بالصهيونية، يختار كلماته بعناية «استخدام الصهاينة بهذه الطريقة كان أمرًا طيبًا بالنسبة للناس (ومنهم كيرزون. . .) الذى لم يكن يحمل أى تعاطف خاص لقضيتهم أو لليهود عمومًا

(Vital 1987: 214)[٥] . وهنا نرى العلاقة بين حكام الإمبراطورية البريطانية والصهيونية كما هى بالضبط . وكان للصهيونية أن تلعب دور «الأداة» المفيدة والموثوق بها، عارية من أى تعاطف، لكى تعزز المصالح البريطانية (Vital 1987: 222) .

والواقع أنه بينما تم استدراج زعماء الصهاينة فى المؤامرة لخرق المعاهدة الأنجلو- فرنسية، جرت تعميتهم بشأن المقاصد الحقيقية . وعلى أية حال، كانت الاتفاقية سراً من أسرار زمن الحرب، لتقسيم غنائم الحرب قبل وقت طويل من الانتصار فى الحرب فعلاً، وعلى كل حال، فإن الاعتبارات الصهيونية لم تكن واردة فيها على الإطلاق (Vital 1987: 202)؛ ولم يكن هذا شيئًا يهم سايكس وپيكو بأن يدعيا الصهاينة يدركونه . بيد أن الموقف آنذاك كان مختلفًا تمام الاختلاف . ذلك أن التطلعات الصهيونية لم تصبح «مفيدة» فجأة فحسب، بل كان لا بد من تشجيعها بصورة نشيطة . وحصل سايكس على الدعم الكامل من لويد چورچ عندما جعل الصهاينة «يلتهبون» على حد تعبيره (Vital 1987: 224) . كانت تلك لحظة حاسمة للصهيونية فى بريطانيا . إذ تحولت وضعيتهم بين عشية وضحاها، و صاروا آنذاك هم المفضلين فى عيون الحكومة . واضطر الزعماء التقليديون لليهود الإنجليز، بسبب شكوكهم فى خطط الصهيونية، إلى الجلوس فى المقاعد الخلفية . ووفقًا لرواية وايزمان، صار الصهاينة آنذاك أقرب إلى «قلب الموضوع» عن ذى قبل (Vital 1987: 238) . وتم دعوتهم إلى اجتماع خاص حيث ألقى سايكس محاضرة على مسامع الصهاينة فى السياسة الفرنسية . وقد أعرب عن تعاطفه مع فكرة «فلسطين يهودية»، ولكنه قال إن اليهود كانوا يضعون العراقيل فى الطريق، فقد كانوا بحاجة إلى الاقتناع بحرارة الصهيونية ومزاياها . ومن الذى يمكن أن يفعل هذا أحسن من الصهاينة أنفسهم (Vital 1987: 238-40) .

وتم الاتفاق على أنه يجب أن يقوم ناحوم سوكولوف، وهو زعيم صهيونى من روسيا، بعرض القضية على الفرنسيين . وهكذا نُصب الفخ للفرنسيين، دون أن يفهم الصهاينة تمامًا القصد الحقيقى منه . وتأثر الفرنسيون بقضية الصهيونية . فقد قابل سوكولوف پيكو وغيره من كبار الموظفين الرسميين الفرنسيين على مدى عدة أسابيع .

ولكن عندما قدم الفرنسيون عرضهم الواضح بأنهم قد يكونون على استعداد لرعاية مستعمرة صهيونية عندما تحتل فرنسا فلسطين، أوضح سوكولوف أن الرعاية البريطانية هى المفضلة. وبعبارة أخرى، بدأ الفرنسيون يدركون أن الصهيونية جاءت كجزء من صورة أوسع وأن الرعاية البريطانية للمشروع قد بدأت بالفعل. وإذا ما وضعنا فى الاعتبار أن الإنجليز كانوا الأقدر على الاستيلاء عسكريًا على فلسطين وليس ا لفرنسيين سندرك كيف وجد الفرنسيون أنفسهم فى موقف ضعيف. وحينئذ قابل سايكس پيكو مرة أخرى لكى يؤكد على «أهمية الاستجابة للمطالب اليهودية» ولكى يحقق فحوى تفضيل الصهاينة «للسيادة البريطانية» (Vital 1987: 243).

وكان سايكس مسرورًا من نفسه لأسباب مفهومة. فقد كتب إلى بلفور: «فيما يتعلق بالصهيونية، بدأ الفرنسيون يدركون أنهم فى مواجهة أمر كبير ولا يمكنهم أن يغمضوا عيونهم عنه» (Vital 1987: 244).

ومع هذا، لماذا رأى كل من البريطانيين والفرنسيين فى الصهيونية شيئًا كبيرًا؟. فى إحدى نقاط المناقشة بين پيكو وسولوكوف، جادل پيكو بأنه «سيكون مفيدًا جدًا لقضيتهم أن يجعل اليهود إخلاصهم للوفاق (بين فرنسا وبريطانيا) أكثر وضوحًا» (Vital 1987: 241).

يبدو أن الصهيونية كانت فى عيون الحلفاء تحمل شيئًا أكبر من مجرد مزاعمها فى فلسطين.

الصهيونية: «الشيء الكبير»

فى مذكراته عن الحرب كتب لويد چورچ:

«لقد أصبح اليهود الروس الوكلاء الرئيسيين للدعاية السلمية الألمانية فى روسيا. فبحلول سنة ١٩١٧م كان اليهود الروس قد قطعوا شوطًا كبيرًا فى التجهيز للتفكيك العام للمجتمع الروسى... إذ كان الاعتقاد سائدًا بأنه إذا أعلنت بريطانيا العظمى عن تحقيق الأهداف الصهيونية فى فلسطين... فإن تأثير ذلك سوف يكون مؤازرة اليهود الروس للوفاق» (Leven 1992: 6-70).

والواقع أن سقوط القيصر نيقولاس فى فبراير سنة ١٩١٧م كان قد زاد من احتمال انسحاب روسيا من المجهود الحربى للحلفاء. ولكن فكرة أن يهود روسيا كانوا هم المسئولين فى النهاية، وأنهم ربما يقتنعون بإبقاء روسيا فى الحرب إذا ما تم الإذعان للأهداف الصهيونية، فكرة معاكسة تمامًا. ومع هذا فإننا قد رأينا بالفعل أن بعض هذه الأفكار وردت على لسان زملاء لويد چورچ فى الحرب. كما أنها كانت رؤية تتبناها قطاعات من المؤسسة العسكرية البريطانية. ذلك أن چنرال، سير چورچ ماكمون والكابتن سيريل فولز فى كتابهم عن تاريخ الحرب العالمية الأولى زعما أن الضغط الذى لا يقاوم لحاجات الحلفاء، والقوة العالمية للجنس اليهودى، جعلوا من المرغوب الاعتراف بتطلعات اليهود نحو «وطن قومى» فى فلسطين» (Vital 1987: 297).

لقد عمل وايزمان طويلاً وبدأب لتشجيع مثل تلك الرؤية. إذ جمع أجزاء فانتازيا سياسية عن اليهود فى الثورة الروسية والتأثير الذى يمكن أن يكون لهم على المجهود الحربى لكل من الألمان والحلفاء على السواء. لقد كانت فانتازيا لعبت مباشرة على الانحيازات اللاسامية فى وزارة الحرب الإمبراطورية التى كانت مهمومة بما يسمى «القوة اليهودية».

وكما ذكر وايزمان، كان اليهود الروس فى تلك الآونة يتجمعون لدعم القضية الصهيونية. وهو يزعم هذا الزعم على الرغم من حقيقة أن الإطاحة بنظام القيصر كان يعنى أنه، ـ للمرة الأولى فى روسيا ـ كان التحرير الكامل لليهود قد بات احتمالاً حقيقيًا، يُعززه التزام واضح من كل الأحزاب الثورية الروسية.

ومرة أخرى، زعم وايزمان أن صهاينة روسيا كانت بحوزتهم القوة على تجنيد يهود روسيا وراء المجهود الحربى للحلفاء، على الرغم من اعترافه بشكل خاص بالصعوبة التى كان يواجهها فى إقناع صهاينة روسيا بالكف عن سياسة «الحياد» التى اتبعوها إزاء الحرب. (Levene 1992 b: 74). وأخيرًا تحدث وايزمان على نطاق واسع عن كيف أن إعلانًا لصالح الصهيونية سوف يكون دافعًا إلى «الصداقة مع يهود العالم.. وهو شىء لا يجب التضحية به.. شىء يهم إلى درجة كبيرة، حتى بالنسبة لإمبراطورية شديدة البأس مثل الإمبراطورية البريطانية (Levene 1992 b: 73)[٦]. لقد كان وايزمان يلعب على خوف محدد تمامًا. إذ كانت ألمانيا تحتل پولندا وأجزاء من ليتوانيا، وأجزاء من

شرق أوروبا، كما أن ألمانيـا كانت قد بدأت تعطى وعوداً حول فلـسطين يهودية. وكان من الأفضل لبريطانيا أن يكون لها قصب السبق.

وسرعان ما سيؤدى التاريخ نفسه إلى تفجير فقاعة الفانتازيا حول القوة الصهيونية فى التأثير على المساندة اليهودية للمجهود الحربى للحلفاء. وفى مفارقة ساخرة مدهشة، حدث فـى نفس الأسبـوع الذى نُشر فـيه إعلان بـلفور فى أكـتوبر ١٩١٧م أن استـولى البلاشفـة على السلطة فى روسيا وسحبوا البلاد خارج الحرب. وبُهـت أصحاب نظرية المؤامرة اليـهودية فى كل مكان. فـقد كان المفـترض، فى النهاية، أن يـقوم اليهـود بإبقاء روسيـا فى الحرب، بما أن الحلفـاء قد وعدوهم بوطن يهـودى فى فلسطين. ومع ذلك، فإن رضـاءنا برؤية مدى السـهولة التى تمت بها السـخرية من أصـحاب نظرية المؤامرة ودارت بهم الدوائر، ينبغى أن نكبحه بمدى عمق اللاسامية التى تم الكشف عنها. فقد أشـار ليـڤنى إلى مـلاحظات فى بداية المجلد الرابع من كـتـاب ليـون بوليـاكـوف The History of Antisemitism فحواها أن الهوس الذى استـحوذ على المجتمع الراقى فى أوروبا أوائل القرن العشرين بشأن اليهود، قد اختفى فى زوايا النسيان بدرجة كبيرة (Levene 1992 b: 76) بيد أن هذاالهوس لعب دوراً فى فرض المستعمرة الصهيونية على الفلسطينيين: وهو هوس معـاد لليـهـود فى جـوهره، ولـم يكن لدى الزعـمـاء الصهاينة اليهود أية رغبة فى تحديه.

إمبريالى، عنصرى وصهيونى
تشرشل بين اليهود والعرب فى فلسطين

صار تشرشل وزير المستعمرات فى فبراير ١٩٢١م، وحمل المسئولية المباشرة فى الشرق الأوسط. وفى غضـون ثلاثة أشهـر اندلعت أخطر الاحتـجاجـات العربيـة ضد الصهيـونية حتى ذلك الحين فى شـتى أنحاء فلسطين (Fromkin 19891: 515) وقد رد هربرت صموئيل، الذى كان هو اليهودى الصـهيونى الوحيد فى وزارة الحرب قبل ذلك، والذى كـان آنذاك هو المندوب الســامى البـريطانى فى فلسطـين، بإيقـاف أية هجـرات يهودية جديدة. وقد أدى هذا إلى نشـوب أزمة كبرى بالنسبة للصهيـونية وهدد بتقويض الأسس التى قـام عليهـا إعـلان بلفور نفـسـه. وسوف يتـهم بن جـوريون صمـويل بأنه «خائن» (Segev 2000: 492).(وكان على تشرشل أن يصلح ما فعله صمويل).

وقد أوضح تشرشل أنه لم يكن هناك أى قصد للارتداد عن إعلان بلفور. وكان قد أخبر وفداً عربياً فلسطينياً فى القاهرة أن الصهيونية «جيدة للعالم، وجيدة لليهود، وجيدة للإمبراطورية البريطانية، بل أيضاً جيدة للعرب» (Fromkin 1989: 519). وفى أعقاب أعمال الشغب الاحتجاجية، فى صيف سنة ١٩٢١م، كرر نفس الملاحظة لوفد عربى فلسطينى فى لندن: «إن الحكومة البريطانية تقصد أن تنفذ وعد بلفور. لقد أخبرتكم مرات ومرات». (Fromkin 1989: 524). وسرعان ما استؤنفت الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وفى الممارسة، كان تشرشل يكنُّ احتقاراً عميقاً للعرب. فقد كان مستشاره الرئيسى فى «الشئون العربية» العميل العسكرى البريطانى الأسطورى «لورنس العرب». وأحياناً تخلق الأسطورة الانطباع بأن هناك محبة بريطانية عميقة لكل ما هو عربى. وعلى مدى السنين كان هناك كلام كثير عن «المستعربين» فى وزارة الخارجية بزعم أنهم ورثة تراث لورنس، وأنهم على استعداد دائم لتقويض الالتزام الكامل من جانب بريطانيا تجاه الصهيونية. بيد أن هذا يكشف عن سوء فهم عميق للورنس «والاستعراب البريطانى». ففى أحد المعانى كان «الاستعراب البريطانى» يشبه نظيره الإمپريالى «الصهيونية البريطانية». ذلك أن الطبقات الإنجليزية الحاكمة تشعوذت بأن ابتدعت نمطاً لـ «العربى» بنفس الطريقة التى اختلقوا به نمطاً مثالياً لـ «اليهودى». لقد كان اليهودى المثالى «يهودياً جديداً»، من نوعية متفوقة، من نفس نوع الرجل الذى يساعد على حكم الإمبراطورية. ولكن العربى النموذجى كان هو الصورة الاستشراقية التى قدمها بدوى الصحراء فى شبه الجزيرة العربية، «عربى قديم» ممن يظهرون فى حكايات «ألف ليلة وليلة»، سريع البديهة ومنكر لذاته، وعلى النقيض من ذلك، كان العرب الفلسطينيون، من وجهة نظر لورنس «بلهاء، ماديين.. فقراء مدقعين» (Cohen 1985: 77). والحقيقة، كان ثمة شك فى كونهم عرباً أصلاً. وكتب جلبرت كلايتون، أول رئيس للإدراة العسكرية البريطانية فى فلسطين بعد الحرب مباشرة، أن العرب الفلسطينيين كانوا «من أعراق مختلطة وهويتهم محل تساؤل... ومن يطلق عليهم اسم عرب فلسطين لا يمكن مقارنتهم بعرب الصحراء الحقيقيين» (Cohen 1985: 77).

وقد امتص تشرشل هذه المواقف جملة واحدة. وقد اضطر بعد عدة سنوات فيما بعد إلى أن يقدم الدليل إلى لجنة هيل التى كانت تحقق فى أسباب الثورة العربية عام ١٩٣٦م فى فلسطين. وفيما بعد منع اللجنة من طباعة هذه الأدلة، إدراكًا منه لمحتواها المتفجر. والحقيقة، نحن نفهم أنه كان قد تفوه بأكثر أنماط التحيز الصهيونى تطرفًا ضد العرب. وإذ كان تشرشل مصرًا على أن الوطن القومى اليهودى يجب أن يغطى فى النهاية كل فلسطين، فإنه قال إن هذا لم يكن ظلمًا للعرب. فقد قال: «إن الظلم يكون عندما يترك أولئك الذين عاشوا فى البلاد فلسطين لتكون صحراء على مدى آلاف السنين». **وفى رده فى اقتراح بأنه يمكن النظر إلى اليهود باعتبارهم أجانب قاموا بغزو فلسطين فى القرن العشرين، رد تشرشل بأن العرب هم الذين جاءوا فى الأصل إلى فلسطين بعد اليهود، وأن «جيوش الإسلام الكبيرة هى التى سحقت فلسطين». وعندما تم تذكيره بالحضارة العربية العظمى التى امتدت حتى إسبانيا، رد تشرشل بأنه مسرور لأن العرب تم طردهم خارج إسبانيا، لأن ذلك كان فى صالح العالم على حد قوله.** (Cohen 1985: 79).

وفى وقت سابق، كان تشرشل قد صار مثقلاً بمسئولياته الاستعمارية فى العالم العربى لدرجة أنه اقترح أن يتخلص منها كلها. فقد واجه متاعب جمة فى محاولة السيطرة على ملك العراق المعين حديثًا، الملك فيصل، والذى كان قد بدأ يطلب استقلالاً حقيقيًا. ولم يكن لويد چورچ، رئيس الوزراء ليسمع عن هذا. وذكر تشرشل بالاعتقاد الذائع باحتمال اكتشاف احتياطيات كبيرة من البترول فى المنطقة، **«إذا ما رحلنا فقد نجد فى غضون سنة أو سنتين... أننا سلمنا إلى الفرنسيين والأمريكيين بعض أغنى حقول البترول فى العالم»** (Fromkin 1989: 509).

بريطانيا، والصهيونية وثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ الفلسطينية العربية ضد الاستعمار

وثمة اسم بريطانى آخر شهير للغاية، سوف يصير أيضًا من أبطال الحرب العالمية الثانية، خلف تشرشل فى فلسطين، وهو الفيلد مارشال مونتجومرى. ففى سنة

١٩٣٨م، وصل إلى فلسطين لسحق الثورة العربية ضد الحكم البريطانى والدفاع عن المساندة البريطانية للمستعمرة الصهيونية التى كانت تتوسع بسرعة. **كان موقف مونتجومرى من العرب يتفوق على موقف تشرشل بكثير. فقد أعطى لرجاله أوامر بسيطة عن كيفية التعامل مع الثوار: اقتلوهم خصوصًا «لأنهم عصابات من اللصوص المحترفين» كما نصت كلماته (Seveg 2000: 432). لقد كان مونتجومرى مشغولاً بالكيفية التى كان البريطانيون قد خسروا بها معظم أراضى إيرلندا. وكان يظن أن هناك تنازلات أكثر من اللازم قد قدمت لمنظمة شين فين الإيرلندية. لقد كانت الأوامر اليومية هى طمس الهوية القومية بلا رحمة.**

وهكذا، أمر بأن أى فلاح يتم القبض عليه مرتديًا الكوفية الفلسطينية، التى يعود أصلها كرمز للمقاومة فى هذه الثورة، يجب أن «يوضع فى قفص» (Swedenburg 1995: 34). وقد اضطرت السلطات السياسية البريطانية إلى كبح جماحه.

كان وضع العرب فى أقفاص فكرة واحدة، وكان تقييد أرجلهم بالسلاسل فكرة أخرى. وقد ترك لنا السير رونالد ستورس، الحاكم البريطانى السابق فى القدس، تأملاته الداخلية فى العقلية الاستعمارية البريطانية فى سيرته الذاتية. كان ستورس يلعب التنس عندما قام الصبى العربى الذى يجمع الكرات «باصدار خشخشة غريبة. وعندما نظر مدققًا اكتشف أنه هو وزميله فى الناحية الأخرى من الملعب كانوا من المحكوم عليهم بمدد طويلة، وكانا مقيدين فى أعقابهما بالسلاسل، وكان ضابط البوليس المحلى قد أرسلهما من السجن لكى يقوما بجمع كرات التنس (Storrs 1939: 446).

وثمة ضابط كبير فى الجيش البريطانى فى فلسطين، هو أوردى وينجيت، الذى عرف أحيانًا باسم «لورنس اليهود». كان ينظم اليهود للخدمة العسكرية، وقد تخطى أكثر من أى ضابط آخر الخط المزعوم بين المصالح البريطانية والمصالح الصهيونية. وقد أعلنت وزارة الدفاع الإسرائيلية بعد موته بسنوات عديدة، أنه قدوة فى دوره، وأبرزت تأثيره على «عقيدة القتال» فى الجيش الإسرائيلى. (Seveg 2000: 430).

لقد كون ما كان فى حقيقته جيشًا خاصًا، معظمه من اليهود، كان يطارد «الإرهابيين» ليلاً. هذه «الكتائب الليلية الخاصة» كان لها واجب حيوى ورمزى

مطلق، حماية السكك الحديدية وأنابيب البترول، التى كانت تمتد من كركوك فى العراق إلى ميناء حيفا الفلسطينى. ولم يكن وينجيت غامضًا فيما يتعلق بالأهداف السياسية الأوسع. لقد كان كما قال «يرسى أسس جيش صهيون» (Marshall 1989: 42).

وهناك الكثير من القصص المفزعة عن «الكتائب الليلية الخاصة» والتى تشبه حقًا أنشطة الجيش الإسرائيلى اليوم فى الضفة الغربية وغزة. فقد كان الضرب والقتل العشوائى فى القرى العربية يتم فجأة ودونما تحذير. وكانت المحاكمات الهزلية والمحاكم الهزلية تعقد فى القرى بدافع من النزق الخيالى المفاجئ، ثم تتلوها الإعدامات. وكان كثير من أفراد قوات وينجيت يظنون أنه مجنون. وليس من الصعب أن ندرك سبب ذلك. فقد كان لديه هوى إلى دسائس الاستفزاز. ففى إحدى المناسبات أراد من جنوده اليهود أن يتزيوا بزى العرب ويذهبون إلى السوق العربى فى حيفا ثم يبدأون فى إطلاق النار (Seveg 2000: 431).

وعلى أية حال، من الصعب أن نفصل تجاوزات وينجيت عن الجهاز القهرى البريطانى الأوسع فى التعامل مع الثورة. فقد كان تعذيب المشتبه فيهم أمرًا عاديًا. وتم اعتقال الآلاف إداريًا دون محاكمة فى معسكرات خانقة الزحام دون الحد الأدنى من الرعاية الصحية. وفيما بين سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٤٩م كان يتم إعدام عربى واحد أسبوعيًا على الأقل (Segev 2000: 417).

والأكثر من هذا، أن رواد مبدأ العقاب الجماعى على قرى بأسرها، والذى يعشقه الجيش الإسرائيلى، كانوا هم البريطانيين. وهناك طبيب بريطانى، اسمه إليوت فورستر، وثّق فى يومياته عملية تمت فى حلحول، وهى قرية قرب الخليل، فى مايو سنة ١٩٣٩م، فقد تم جمع الفلاحين فى حظائر مفتوحة واحدة للرجال وأخرى للنساء، أثناء موجة حارة، وحرموا من الطعام والشراب. وسمحوا للنساء بترك الحظيرة بعد يومين، ولكن كثيرًا من الرجال تم احتجازهم لفترة أطول كثيرًا، ومات عشرة على الأقل. ويختم فورستر بأنه ربما كان بوسع البريطانيين أن يعلموا هتلر شيئًا أو شيئين عن إدارة معسكرات الاعتقال (Seveg 2000: 421-2).

ولا ينبغى لنا أن ننظر إلى وينجيت على أنه استثناء فى الطريقة التى أدمج بها الجنود البريطانيين والصهاينة المسلحين فى نفس الوحدات العسكرية. لقد كانت السلطات البريطانية مضطرة أمام الثورة العربية إلى زيادة قوة الشرطة الاستعمارية. وتم تجنيد آلاف من المستوطنين اليهود. ولم يتأخر الزعيم الصهيونى، موشى شيرتوك، فى الخروج باستنتاج أن الجيش اليهودى فى المستقبل سوف يعتمد على ما يحرزونه من نجاح. (Segev 2000: 427). بل إن البريطانيين، فى الحقيقة طلبوا من زعماء الصهاينة أن يشاركوا فى حمل عبء مرتبات رجال الشرطة وأن يدفعوا تكاليف الزى الرسمى! وتم تكليف شركة سوليل بونيه للبناء، والتى أسسها الهستدروت خصيصًا لتسهيل الاستعمار الصهيونى، بإقامة سور من الأسلاك الشائكة على طول الحدود الشمالية وكذلك بناء أقسام شرطة جديدة (Seveg 2000: 428-9).

الثورة

تغض كتب التاريخ الصهيونية النظر عن الثورة العربية الفلسطينية. وهم يرجعون صدى رفض مونتجومرى الذى يشوبه الازدراء للوطنيين الثوار باعتبارهم رجال عصابات قتلة. ولكنهم فيما بينهم عرفوا الحقيقة وكانوا على استعداد للاعتراف بها أحيانًا. والواقع كان زعيم الجناح اليمينى الصهيونى، چابوتنسكى، معجبًا بالزعيم الفاشستى موسولينى الذى صك العبارة المشئومة «الحائط الحديدى» فى عشرينيات القرن العشرين، لكى يتعامل مع الانتفاضة الحتمية للقومية الفلسطينية. كان الحائط الحديدى تعبيرًا مجازيًا عن القوة العسكرية المهيمنة التى سوف يحتاجها الصهاينة لكسر إرادة القومية الفلسطينية. كذلك أعاد چابوتنسكى مبدأ هرتزل القائل بأن المستوطنين اليهود الأوروپيين يجب أن يفهموا أنهم أرقى ثقافيًا من السكان الوطنيين الأصليين، وأنهم طليعة الحضارة الأوروپية. وقد قال آڤى شلايم، المؤرخ الإسرائيلى المعارض، فى كتابه الفذ The Iron Wall، كيف أن كل الزعماء الإسرائيليين تقريبًا، لا سيما ما يسمى الجناح اليسارى من أمثال بن جوريون، ثم رابين فيما بعد، قد وافقوا على فلسفة «الحائط الحديدى» التى قال بها چابوتنسكى. فقد شهد بن جوريون ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩م. ولم يكن يساوره شك فى أنها حركة وطنية مشروعة. ولكن هذا الاستنتاج

لم يؤد سوى إلى زيادة عزمه. فقد جهزته لإجراءات فرض الإبعاد الإجبارى للعرب من الدولة اليهودية فيما بعد. (Swedenburg 1995: 14).

ومع هذا، كان موقف الصهيونية الرسمى مستنكراً للثورة. وهى لا تظهر فى كتب التاريخ التى تدرس فى المدارس الإسرائيلية. وينطبق هذا على أى مكان سيطرت فيه إسرائيل على تدريس التاريخ لتلاميذ المدارس الفلسطينية. فمنذ سنة ١٩٦٧م منعت إسرائيل حرفيًا آلافًا من الكتب فى الضفة الغربية وغزة. بيد أن إسرائيل لم تستطع أن تستأصل الذاكرة الفلسطينية. وفى السنوات القريبة وصلت العلاقة بين التاريخ والذاكرة إلى حد تشكيل بُعد جديد حقًا فى البحث العلمى. وعلى الرغم من أن إسرائيل بذلت أقصى ما فى وسعها، فإن الذاكرة الفلسطينية أفادت أيضًا من هذا الشكل الإبداعى فى البحث.

إذ إن كتاب سويدنبرج الذى يحوى مقابلات بارزة مع الباقين ممن شاركوا فى الثورة والذى نشر فى ثمانينيات القرن العشرين، يُعدُّ مثالاً يحتذى فى الموضوع. وبينما لا نستطيع نحن أن نقيم العدالة هنا، فإننا نستطيع على الأقل أن نؤكد على أن «الثورة الكبرى» كانت أهم انتفاضة ضد الاستعمار فى الشرق العربى فى فترة ما بين الحربين (Swedenburg 1995: 21).

لقد كانت الثورة حتمية ويكمن سببها النهائى فى الحماية البريطانية لتوسع الهجرة اليهودية التى تضاعفت ما يقرب ست مرات فى ثلاثينيات القرن العشرين. فقد كان اليهود يشكلون تقريبًا ثلث السكان الفلسطينيين عند اندلاع الثورة (كان عدد اليهود ٦٥ ألفًا سنة ١٩١٧م، ووصل إلى ٠٧٨ , ٣٨٤ نسمة سنة ١٩٣٦م) (Gilbert 1998: 47-80).

ولم يستطع الفلاحون الفلسطينيون أن يفهموا لماذا كان ينبغى أن تستخدم أرضهم ملاذًا لليهود الأوروبيين الفارين من اللاسامية فى أوروبا. إنهم لم يكونوا هم يهود الأراضى العربية الذين كانوا جيرانهم على مدى القرون. لقد رأى الفلاحون ما رآه چابوتنسكى بالضبط: مستعمرًا أوروبيًا، فضلاً عن أنه محمى بالقوة المسلحة للإمبراطورية البريطانية. وكانت لدى الفلاحين الشجاعة لإعلان الحرب على الإمبراطورية البريطانية لكى يحموا أرضهم، اتساقًا مع ذلك التراث العظيم الذى تعرفنا عليه من قبل فى جبل النار.

النظر بعيون فلسطينية

لقد استغرق الأمر زمنًا طويلاً حتى يُقنع سويدنبرج على حسين بالحديث معه (Swedenburg 1995: 107-9). وقد وضع المحارب القديم شرطًا للمقابلة، وهو يجب على سويدنبرج أن ينشر أسماء رفاقه الذين قتلهم البريطانيون بعد أن أطاح لغم أرضى زرعه الفلاحون بتسعة جنود. ثم وصف على المذبحة عندما انتقم الجيش البريطانى من قرية بأسرها. وقد احتفظ على بقائمة الأسماء لمدة أربعين سنة. وكان قد انتظر كل هذا الوقت لكى ينال الاعتراف لهؤلاء الشهداء المجهولين. لقد كان مبدأ وحالة واجهها سويدنبرج مرات ومرات بين المحاربين الفلاحين القدامى. لقد عرفوا أن شيئًا مهمًا حقًا قد حدث. ولكنه على نحو ما ضل مكانه الرسمى فى تلك الوسيلة التذكرية التى تسمى التاريخ المكتوب.

لقد وصف على نفسه بأنه مسلم وشيوعى فى الوقت نفسه وأصرَّ على أنه لم يكن هناك ثمة تعارض. وعلاوة على ذلك، بينما كان على واحدًا من أكثر زعماء الفلاحين المحليين السابقين الذين قابلهم سويدنبرج حنكة، فإن إصراره على أن القرى كانت تشكل العمود الفقرى للمقاومة، مع قيادة عسكرية جسورة ولكنها مرتجلة مع مبادرات شجاعة، هو الذى ساد جميع الروايات. والقصة التى لم تُرو هى أن البريطانيين ـ دعك من الصهاينة ـ كانوا يواجهون خطر فقدان السيطرة على الريف. وقد تلت ذلك حالة من الجمود العسكرى العنيف، ولم يكن من الممكن كسرها إلا بتنازلات سياسية خطيرة من السلطة الحاكمة. وعلى حد تعبير سجل بريطانى رسمى: «لم يكن الجنود البريطانيون ذوو الأحذية الثقيلة أندادًا للمواطنين ذوى الثياب الخفيفة الذين كان يمكنهم، فى أية لحظة ــ أن يسقطوا أسلحتهم ويصيرون فلاحين ورعاة ماعز مسالمين» (Swedendburg 1995: 126).

وقد كانت لدى على حسين بيتام قائمة أخرى من الأسماء فى رأسه، من أبناء الأعمام والأعمام والأخوال وغيرهم من الأقارب الذين قتلوا بعد ما يزيد على أربعين سنة من هذا التاريخ، خلال المذبحة التى قامت بها إسرائيل فى معسكرات اللاجئين فى صابرا وشاتيلا ببيروت سنة ١٩٨٢م. ويروى سويدنبرج وزميل فلسطينى له: «شعرنا بالتوقير والإجلال لهذه الروح الجامحة التى تحترق بهذا التألق داخل هذا الرأس

صغير الحجم الذى كرر أسماء الموتى، كما لو كان ذلك الفعل يمكنه أن يقبض على عاصفة التقدم».

وطرأ على بال سويدنبرج فجأة اقتباس قال فيه: «مصيبة واحدة ما تزال تكوِّم الحطام فوق الحطام وتدفعه أمام قدميه». (Swedenburg 1995: 137). لقد كان مواتيًا تمامًا بالنسبة لعلى، ومع ذلك فإن الاقتباس مأخوذ عن الفيلسوف اليهودى، والتر بنيامين، عندما كان يتوقع الهولوكوست.

***

الفصل الثامن

الهولوكوست النازى

برهان الضرورة الملحة لدولة يهودية

استغلال الهولوكوست لتبرير وجود إسرائيل كدولة يهودية، قد تبدى واضحًا فى «إعلان استقلال إسرائيل» سنة ١٩٤٨م.

«إن الهولوكوست النازى، الذى طال ملايين اليهود فى أوروبا قد برهن مجددًا على الحاجة الملحة لإعادة بناء الدولة اليهودية التى سوف تحل مشكلة عدم وجود وطن لليهود بفتح البوابات أمام جميع اليهود، ورفع الشعب اليهودى إلى المساواة فى أسرة الأمم» (Mendes - Flohr And Reinharz 1995: 62).

سوف يبدو للوهلة الأولى أنه يكاد يكون مستحيلاً أن تجادل بشأن هذه العبارة. ففى كل الأحوال كان القصد من الهولوكوست النازى تدمير الشعب اليهودى فيما أسماه هتلر «الحل النهائى». (أو بالأحرى كان هذا هو المقصود من المذابح التى ارتكبت ضد اليهود والتى كانت فى قلب الهولوكوست ـ لا يجب أن ننسى أبدًا أن هناك ملايين آخرين كانوا ضحايا للهولوكوست: الرومانيين والمثليين والمعاقين والملايين من السلافيين والجنسيات الأخرى، هذا بالإضافة إلى أسرى الحرب السوفييت والمعارضين السياسيين بما فيهم الاشتراكيين والشيوعيين)، ومع ذلك فإن تأسيس الدولة الإسرائيلية كان يعنى استئصال شعب آخر وإبعاده، وهو الشعب الفلسطينى، والاستيلاء على أرضه وتحويله إلى شعب فقير معوز. لقد كان هذا بالنسبة للفلسطينيين «نكبة».

ثم قامت الدولة اليهودية الجديدة بإعادة تسمية الأرض الفلسطينية بالأرض «اليهودية»... وفى هذا الفصل نستطلع الحالة بالنسبة للدولة اليهودية فى الظلال المتطابقة لكل من الهولوكوست والنكبة. وهو يحاول الإجابة عن بعض الأسئلة الصعبة جدًا. هل من المشروع استغلال الهولوكوست للوصول إلى نتائج سياسية؟ كيف نخرج

بالنتائج السياسية الصحيحة؟ هل توصلت إسرائيل إلى النتائج السياسية الصحيحة؟ ويتم تناول هذه الأسئلة بثلاثة طرق، أولاً، من خلال كتاب لورنس لانجر، وهوباحث بارز فى الشهادة على الهولوكوست وفنها. وثانيًا، من خلال اختبار فائدة مفهوم الإمبريالية كجزء من الجدل فى اليسار الماركسى حول كيفية شرح الهولوكوست. وثالثًا من خلال المناقشة والجدل حول بعض المواقف الصهيونية المتعلقة بالإنقاذ من الهولوكوست، ومقاومته. وهناك من يرى أن كل تناول من هذه يحمل رؤى مهمة حول الهولوكوست مع تحذيرات ضمنية عن الأحكام السياسية التى تحتاج إلى الرد عليها.

والجزء الأخير من الفصل يحاول أن يجمع هذه الآراء الثاقبة معًا مع التحذيرات باعتبار ذلك وسيلة للتفكير فى الرابطة التى تجمع بين الهولوكوست والنكبة. ونقدم تعليقًا نقديًا أخيرًا على استغلال إسرائيل للهولوكوست.

وعندما نناقش الهولوكوست بهذه الطرق يكون هناك دائمًا خطر إضفاء الطابع الفكرى عليها والتعامل معها بشكل مجرد. وإلى حد ما فإن هذا أمر حتمى، ومع هذا فإنه يجعل أى شخص يتناول هذا الموضوع يشعر بعدم الارتياح. وحتى لو كان الأمر كذلك فإننى أحب أن أفكر أن هذا الفصل ربما يكون مساهمة متواضعة فى:

«الحوار القلق الذى لا يتوقف بشأن كيفية استيعاب حضارتنا للتفجر المناف للعقل الذى نسميه الهولوكوست، داخل الآمال المعقولة حول المستقبل، على حين يستمر هذا الجنون فى الهجوم على الذاكرة والخيال بشكل بالغ الأسى والقوة» (Langer 1998:21).

ماذا كان الهولوكوست؟

قد يبدو هذا عبثًا، بل قد يبدو سؤالا مهينًا، إلا أنه من المشكوك فيه ما إذا كان أى من آلاف الباحثين، والفنانين، والصحفيين، وغيرهم من الكتاب ـ بما فيهم الناجون من الهولوكوست الذين كانوا يناضلون للوصول إلى إجابة على مدى السنين ـ راضين تمامًا عن النتائج التى توصلوا إليها. وغالبًا ما اندلعت الخصومات المريرة الشرسة حول مزاعم ادعت إضفاء معنى على الهولوكوست. والواقع أن هناك مدرسة فكرية مقنعة

تضع الهولوكوست فى مكان «يتعدى» قدرتنا على الفهم. فعندما سئل، مثلاً، المؤرخ الذى يحظى باحترام كبير فى مجال دراسة الهولوكوست، راؤول هيلبورج، عما إذا كان للهولوكوست أى معنى، أجاب: «آمل ألا يكون لها معنى». كما أن حنًا أردنت، اشتهر بترجمة الأدلة فى المحاكمة التى جرت بالقدس سنة ١٩٦١م، لأدولف، إيخمان، الذى كان من البيروقراطيين النازيين البارزين الذين تحملوا مسئولية تطبيق وتنفيذ الهولوكوست، على أنها «كلمات بذيئة للشر». وهنا يستشعر المرء حقائق بسيطة ولكنها عميقة تشى بمحدودية فهمنا. ومع هذا فإن الحقيقة، أن تجد كل الكتاب تقريبًا - وربما رغمًا عن أنفسهم فى بعض الحالات - يناضلون للخروج بتفسيرات متحذلقة ودروس سياسية أيضًا.

رؤية لورنس لانجر التحذيرية

لانجر واحد من أكثر المفسرين إنجازًا للشهادات الباقية على الهولوكوست والفن والأدب المتعلق به، وكان مرشده بريمو ليفى، الذى يحظى بالاعتراف بكونه واحدًا من أشهر الكتاب عن الهولوكوست والذى كان هو نفسه من الناجين من الهولوكوست، وتحول إلى الكتابة لكى يُضفى على تجاربه معنى.

وقد هالت ليفى محاولات تفسير الهولوكوست بالحجة «التى تضفى صفة الكونية» والقائلة بأن ما فعله الألمان «قد عكس فقط قدرة على العنف والشر مدفونة فى الطبيعة البشرية فى كل مكان» (Langer 1998: 33) وكان هذا بالنسبة لليفى مراوغة. وفى كتابه The Drowned and the Saved أوضح ليفى أن على الألمان أن يتحملوا مسئوليتهم المحددة عن جرائم النازى.

بيد أنه على الرغم من أنه كرس مقدمة كتابه «Pre-empting the Holocaust» للمصادقة على ملاحظات ليفى بشأن مخاطر «إضفاء الطابع العالمى» على الهولوكوست، فإن مقالة لانجر الأكثر توفيقًا، والتى تحمل عنوان «The Alarmed Vision» مقالة بارزة فى الكتابة عن الهولوكوست، من حيث توضيح رسالة «عولمة» الهولوكوست. وفى هذه المقالة يقوم لانجر بتحليل تفصيلى لشهادات الناجين من الهولوكوست: وهم يسكنون عالمين فى نفس الوقت، أحدهما مثبت فى الزمن

التتابعى، أى زماننا، والآخر مثبت فيما يسميه هو الزمن الاستمرارى. والزمن الاستمرارى يثبت وجود الناجى فى معسكر الموت إلى الأبد. والماضى ليس مجمداً وتتجدد الحياة فيه مرات ومرات، فهناك شعور طاغ «بأن المرء أخطأ مصيره المقصود بنجاته من موته المقدر» (Langer 1998: 72-3) فالناجون من الهولوكوست يحملون عبئًا طاغيًا من تجربة الموت يصعب تمامًا علينا أن نفهمه حق الفهم.

وعند هذه النقطة فى مقالته، فإن قوة ما يفهمه تبدو ذات تأثير يشبه الصدمة الكهربائية، ويسقط لانچر مقاومة مشكلات «عولمة» الهولوكوست. وهو يغير مزاجه تمامًا، على الرغم من عدم وجود ما يدل على هذا، والقارئ غير مستعد:

«إن حكايات مثل حكاياتها تهدد اعتمادنا على التماسك والعقل، والتوازن الأخلاقى والنفسى، الذى يشكل لنا الكائن المتحضر. . . إن شهادة مثل هذه ينبغى أن تجمعنا لا إلى الضحايا المتماثلين للشفاء، وإنما لإعادة مراجعة أسطورة الكائن المتحضر. إذ لا يمكن بعد الآن للطبيعة الإنسانية أن توضع فى مواجهة الطبيعة غير الإنسانية، كما لو كانت إحداهما هى الأمر الطبيعى والأخرى انحرافًا يمكن تقويمه. إن الوحشية التى تتخذ شكل العنف الذى يصيب الآخرين بالعجز ويقَتلهم، قد صارت تعبيراً «عاديًا» عن الذات بدلاً من كونه تعبيرًا نفسيًا. . » (Langer 1998: 74).

ويخلص لانچر إلى نتيجة مؤداها أننا نعيش بالفعل فى عصر الوحشية. وهذا هو لب مقالته «Alarmed Vision». وفى مكان أسبق فى المقالة يعمد إلى تعميم الهولوكوست، حيث مات اليهود لكى يعيش الألمان، لكى يقترح ما يبدو أنه «مبدأ» فى عصر الوحشية: فيكتب أننا نعيش فى عالم:

«حيث يبدو الهدف من الحياة فى أغلب الأحيان هو موت الآخرين، نكون مجبرين على اعتبار انقلاب التوقعات بدلاً من تحقق الأحلام نموذجًا للكينونة والسلوك فى بعض الجماعات» (Langer 1998: 68).

والآن تبدى خواء رؤيا لانچر بالفعل. فهو لا يقدم إطاراً تفسيريًا أو حلاً، وهو فى الواقع يقول ضمنًا إن الإطار أو الحل قد لا يكونا متاحين إطلاقًا (Langer 1998: 202n. 7).

ومع هذا، فإن استنتاجه «أنه فى عصر الوحشية تعتمد الحياة أحيانًا على موت

الآخرين»، يلقى وهجًا فظيعًا على المشهد السياسى العالمى المعاصر. فنحن هنا بإزاء رؤية ثاقبة تحذيرية حقًا، وإنذاراً مؤكداً عن الحاجة لاتخاذ فعل للرد فى التوّ.

هذه الفكرة القائلة بمبدأ الحياة القائمة على أساس الموت، هى بالضبط النص الباطن لمناقشة رئيسية تضمنها كتاب «هو بسباوم» ذائع الصيت عن تاريخ القرن العشرين القصير بعنوان (The Age of Extremes).

إن الحرب العالمية الثانية، التى كانت أوشفيتز فى قلبها، كانت هيروشيما خاتمتها: «لقد كان إسقاط القنبلة الذرية غير مبرر باعتبار ذلك أمراً لا غنى عنه لتحقيق النصر، ولكنه كان مبرراً لإنقاذ حياة الأمريكيين» (Hobsbawm 1994: 27) وبعبارة أخرى اعتمد الأحياء الأمريكيون على اليابانيين الأموات. ولا يبدو غريبًا أن ليڤى واحد من أوائل شهود هوبسباوم فى كتاب (The Age of Extremes Hobsbawm 1994: 1)[1].

وإذا صدق مبدأ «الحياة فى مقابل الموت» من ملامح عصرنا حقًا، عصر الوحشية، فإن الصهيونية والصهاينة إذن ينبغى أن يفكروا بعناية شديدة فى الدروس التى يستخلصونها من الهولوكوست. **ألم يقم المشروع الصهيونى، جزئيًا على الأقل على أساس إنقاذ حياة اليهود على حساب موت الفلسطينيين إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك؟ سأعود إلى هذا الموضوع فيما بعد فى هذا الفصل.**

الإمبريالية والتطهير العرقى الذى نسميه الهولوكوست

كتب أدولف هتلر فى كتابه «Mein Kampf» سنة ١٩٢٥: «إن الإمبراطورية العملاقة فى الشرق على وشك الانهيار» «ونهاية الحكم اليهودى فى روسيا سيكون أيضًا نهاية روسيا كدولة».

وقد وصف يان كيرشاو، الذى يقال إنه أحسن من كتب سيرة هتلر- كيف أن رؤية هتلر الشخصية للعالم قد جمعت بين مكونين رئيسيين: هما تدمير اليهود وحيازة الفضاء الحيوى- حيث قال:

«إن الحرب ضد روسيا سوف تؤدى، من خلال القضاء على البولشفية اليهودية، إلى أن تنال ألمانيا خلاصها فى الوقت نفسه بتوفير مجال «حيوى جديد». كان هذا الذى يعود إلى إمبريالية أواخر القرن التاسع عشر، ومع كونه قاسيًا تبسيطيًا، وبربريًا، انتقل إلى أوروبا الشرقية فى القرن العشرين حيث اختمر، كان مفعوله سريعًا على أولئك الذين كانوا على استعداد للعمل به» (Kershaw 1998: 250).

وإذا ما نحينا جانبًا الظروف التى أتاحت لهتلر والحزب النازى أن يمسك بزمام السلطة فى ألمانيا، فإن لدينا هذا المنطلق لفهم بعض العمليات التى أدت إلى الهولوكوست.

ولاشك فى أن العمليات كانت إبادة جماعية. إذ إن Mein Kampf حافلة بالتهديدات لليهود. هؤلاء «العالميون الذين يسممون الجماهير» كان ينبغى «استئصالهم» (Kershaw 1998: 244). وبطبيعة الحال، فإن الشكل الدقيق للإبادة الجماعية ليس واضحًا. وعلى أية حال فإن الحرب ضد روسيا وسكانها السلاف، كانت تمثل تهديداً بالإبادة الجماعية الأكثر عمومية لكل شعوبها.

وكون أن السلاف كانوا بشراً أدنى Untermenschen ، كان يؤخذ على أنه افتراض مسلّم به، كما كان ذا جذور عميقة فى الثقافة القومية الألمانية (Kershaw 1998: 79).

وقبل الغزو النازى لروسيا فى بواكير سنة ١٩٤١م مباشرة، أخبر هيملر قادة الصاعقة أنه ينبغى القضاء على حوالى ثلاثين مليون من السلاف، وقد أسماها هتلر «حرب إبادة» (Kershaw 2000: 353, 339).

وكانت كذلك. إذ تم ذبح الملايين. وليس هناك اتفاق حتى على رقم تقريبى، إلا أنه لا يقل عن ٣,٣ مليون أسير حرب روسى (Hobsbawm 1994:43).

ومن المؤكد أنه يحتمل أن نفهم حرب الإبادة النازية فى القرن العشرين باعتبارها تعديلاً للإمبريالية الأوروبية ذات الطرز القديمة ونظرياتها المستمدة من القرن التاسع عشر عن علم الأجناس البيولوچى، على الرغم من أن الإبادة النازية كانت لها خصائصها المرعبة. وهذا هو السبب فى أن الفلاسفة والكتاب اليهود، على تنوعهم مثل: حنا أردنت، وچورج شتاينر وشاول فريد لاندر ليسوا على صواب تمامًا عندما

يجادلون بأن الهولوكوست حالة فريدة؛ لأن النازيين كانوا يستطيعون أن يختاروا من يجب أن يعيش ومن يجب أن يموت على أساس الاختيار العرقى (Traverse 1999: 67)

مارست الإمبريالية ما أسماه شتاينر «مذابح وجودية»

- أى القضاء على الضحايا لا بسبب أفعالهم، وإنما لأنهم موجودون.

فعلا فقد تم اكتساح سكان أمريكا الأصليين؛ لأنهم وجدوا فى طريق المجال الحيوى الأوروبى فى أمريكا الشمالية. وكان هتلر فى بعض الأحيان يقارن الحرب ضد روسيا بالنضال الأوروبى فى أمريكا الشمالية «ضد الهنود الحمر» (Hitler's table Talk 2000: 621).

وفى وقت مبكر مثل سنة ١٨٣٠م، لاحظ السير جورج موراى، الذى كان وزير دولة للمستعمرات يتسم بالإستنارة النسبية، أن حكومته ربما كانت قد بدأت سياسة استئصال «جنس» بأسره، هم شعب استراليا الأصلى. وقد حذر من أن «القضاء على الجنس المحلى يمكن أن يترك وصمة لا تُمحى على شخصية الحكومة البريطانية» (Reynolds 2001: 4).

وفى الهند أيضًا، كان معدل عمليات الإبادة البريطانية يأخذ العقل. ففى البنغال وحدها، تم ذبح ما يصل إلى عشرين مليونا من الناس بنهاية القرن الثامن عشر (Davidson 1999: 25).

وكان هتلر مبهوراً، ويشعر بغيرة عميقة، من تجربة البريطانيين فى الهند، وقد أشار إليها عدة مرات، شارحًا لماذا برهنت على أن ألمانيا تستطيع بسهولة أن تسود روسيا.

(Hilter's Table Tak 2000: 15).

وأهمية الإبادة فى عصرنا الذى تحكمه الإمبريالية قد هزت العديد من الكُتَّاب من اليسار واليمين، قبل استيلاء النازى على السلطة بزمن طويل. وهذا ما كتبته روزا لوكسمبرج:

«قال إنجلز ذات مرة: يواجه المجتمع الرأسمالى معضلة، فإما أن يتقدم إلى الاشتراكية أو يتقهقر إلى البربرية، وهكذا نقف اليوم أمام الاحتمال المخيف: إما أن تنتصر

الإمبريالية، ويتم تدمير الثقافة برمتها... والقضاء على الجماهير، والخراب، والتدهور، ويكون العالم مقبرة شاسعة، وإما أن تنتصر الاشتراكية» (Cited Rees 1998:160) .

كتبت تلك السطور قبل أن يكون القرن العشرون قد أماط اللثام عن أسماء: «السوم» أو «أو شفيتز»، «وجولاج»، أو «هيروشيما». وفى حالة مماثلة، تنبأ عالم الاجتماع المحافظ ماكس ڤيبر بـ «ليلة قطبية ذات ظلام وقسوة ثلجية» (Traverso 1999: 75). وفى وقت سابق كان ماركس قد استحضر تصويره المذهل للحكم البريطانى فى الهند، حيث قال «**الصنم الوثنى البشع الذى لن يرضيه شرب مشروبه إلا فى جماجم المذبوحين**» (Traverso 1999: 25) .

وكتاب تراڤيوسو المثير جداً الذى يحمل عنوان Understanding the Nazi Genocide, Marxism after Auschwitz يهتم بتطبيق الحجة على كراهية اليهود فى جوهر الهولوكوست وهو يحذر من أن الحجة والجدل يفشلان تمامًا فى الإلمام بمدى ضخامة الجريمة. أولاً، لأن حربًا استعمارية تم شنها فى أوروبا، فى أواسط القرن العشرين، مستخدمة أدوات الدمار التى يمتلكها مجتمع صناعى متقدم، فقد ركزت الإبادة فى مدى سنوات قليلة فقط بدلاً من القرون أو حتى العقود. وثانيًا، يجادل بأن اليهود «ليسوا مثل الأفارقة أو سكان أمريكا الأصليين، شعب مستعمر ولكنهم شعب له جذوره فى الحضارة الغربية». والآن، إنصافًا لتراڤيوسو، كان واعيًا لمخاطر هذا النوع من الجدل. ويمضى قدمًا ليصر على أنه لا يقدم «سلمًا تصاعديًا لتاريخ الإبادة». وبدلاً من ذلك، فإن الهولوكوست قد أوضح مرحلة جديدة يسودها عنف الإمبريالية: إذ لم يعد الدمار الذى تفرضه الإمبريالية الغازية التى تفرض حكم الحضارة الغربية على العالم خارج أوروبا، وإنما بداية انهيار هذه الحضارة ما أسماه أدورنو وهورخيمر «تدمير العقل لذاته» (Traverso 1999: 126) .

ويقدر ما إن هذه الرؤية مثيرة ومحيرة ـ وهى تستحق من الاعتبار أكثر مما هو متاح هنا ـ فإنها ليست مرضية. ذلك أن تهكم غاندى يرد على البال مباشرة. فعندما سُئل عما يفكر به بشأن الحضارة الغربية، أجاب غاندى أنه كان يتطلع إليها. وعلى أية حال، فإن الحضارة فى شكلها الغربى، أو بشكل أكثر عمومية، لم تسقط، ولكن النظام النازى سقط. وسيكون من الأفضل أن نقول إن الهولوكوست كان بالنسبة لبقيتنا تحذيراً مرعبًا عن نوع السياسات التى تهدد الحضارة بالفعل.

وقد لاحظ الكاتب الماركسى البريطانى أليكس كالّلينيكوس مزيداً من الضعف فى تزكية تراڤيرسو لأدورنو وهورخيمر. فبالتعامل مع الهولوكوست فقط على أنه من أعراض فوضى حضارية أكثر عمومية تدمر «عصر العقل»، يتم تجاهل الأسباب المحددة للإبادة النازية (Callinicos 2001: 387). وهنا تكون السخرية لأن تراڤيرسو اتساقًا مع كاتب ماركسى آخر هو نورمان جيراس، قد قالا إن الماركسية ذاتها تنزع أكثر مما يجب لهذه النوعية من التعميمات وليست قادرة على تحليل الأسباب المحددة لبربرية النازى. وهذا الجدل يحمل أصداء مقالة ليڤى التى ناقشناها من قبل. وفى مقاله «عملية سبر الأغوار: الماركسية والهولوكوست» يسعى كالّلينيكوس لتوضيح أن الماركسية يمكنها فعلاً أن تتصدى للتحدى.

وثمة جانبان مختلفان فى مقالة كالّلينيكوس يستحقان أن نوليهما اهتمامنا هنا وأن نحاول جاهدين فى تناول المكونات «الخصوصية» و«الفريدة» حقا فى الهولوكوست. والجانب الأول هو مركزية علم الأجناس البيولوچى، والهوس النازى تجاه اليهود. ويرى كالّلينيكوس أن ملاحظة هتلر التى أبداها لهيملر سنة ١٩٤٢م مثيرة للحزن والأسى:

«إن اكتشاف الڤيروس اليهودى يعد إحدى أعظم الثورات التى حدثت فى العالم. والمعركة التى نخوضها من نفس نوع المعركة التى يخوضها كل من پاستير وكوخ، إبّان القرن الماضى. كم من الأمراض كانت أصولها كامنة فى الڤيروس اليهودى.. إننا سوف نستعيد صحتنا فقط إذا استأصلنا اليهود» (Collinicos 2001: 402).

لم يكن اليهود هم «الجنس غير المناسب» الوحيد، أو المجموعة الاجتماعية التى كان يجب استئصال شأفتها. بيد أن اليهود كانوا على رأس القائمة فى السلم التدريجى، لأن هذا الجنس الأحط بين الأجناس كانت له قوة هائلة فى العالم. ولا يجب أبدًا التقليل من شأن معدل الخيال الأيديولوچى النازى المعادى للسامية هنا. ذلك أن «الڤيروس» اليهودى كان يمسك «الحضارة الغربية» برمتها فى قبضته المميتة. وعلى حد تعبير هتلر، فإن اليهود هم الذين اخترعوا المسيحية مثلما اخترعوا الرأسمالية والشيوعية. ولكن ماذا كانت الحوادث التى عجلت بأن يقوم النازيون بالتعبير العملى النهائى عن كراهيتهم لليهود؟

يتفق الباحثون على أن غزو هتلر لروسيا قد أوجد السياق الذى يناسب الهولوكوست. وعلى أية حال، تبقى هناك مجادلة لم يتم حلها عن الحافز المباشر؛ إذ إن (مؤتمر وانسى غير الشهير فى يناير ١٩٤٢م لم يترك أى سجل مكتوب عن النية فى استخدام معسكرات الموت لتحقيق الحل النهائى).

وعلى سبيل المثال، يرى كريستوفر براوننج أن هتلر اتخذ القرار فى «غمرة النشوة بالنصر» فى روسيا فيما بين منتصف سبتمبر ومنتصف أكتوبر ١٩٤١م. أما مارتن بروسزات، من ناحية أخرى، فيرى أن هزيمة هتلر التى أطلت بوجهها بعد هذا مباشرة، كانت هى المفتاح الذى فتح معسكرات الموت (Cesarani 1994: 14,7).

ويقدم دفاع كاللينيكوس الحميم عن موقف بروسزات رؤية محتملة أكثر للعمليات التى أدت إلى الشكل المحدد للإبادة التى نسميها الهولوكوست؛ إذ يجادل بروسزات بأنه كلما صار عدم القدرة على تحويل العقيدة الأيديولوچية النازية «صوب مهام إعادة التنظيم البناءة» فى روسيا أكثر وضوحًا «زاد تركيز هذه السياسة الإيديولوچية بشكل حصرى على السياسات والأهداف السلبية» (Callinicos 2001: 404).

كانت عملية «إعادة التنظيم البناءة» تلك قائمة على أساس «الرؤية» النازية «الجماعة» ألمانية متجانسة اجتماعيًا، نقية عرقيًا (Volksgemeinschaft (Callinicos 2001: 394,398)، كان لها أن تمتد من ألمانيا إلى داخل روسيا حيث سيعيش المستعمر الألمانى الجديد «فى مزارع أنيقة، فسيحة» (Hitler's Table Talk 2000: 24). وقد حاق الدمار بهذه الرؤية عندما توقف الهجوم النازى فى نهاية ١٩٤١ أمام المقاومة العنيدة من جانب الجيش الروسى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن مشروعات نقل اليهود إلى الأقاليم الأقل ملاءمة فى الاتحاد السوڤييتى حيث كان من المؤكد هلاك غالبيتهم (كان هذا أيضًا سيكون إبادة نازية لليهود ولكن بشكل مختلف) لم تعد ممكنة (Callinicos 2001): 401)، (ويجادل كيرشاو بأن وانسى عكست المعضلة التى كان النازيون يواجهونها) وزادت كراهية اليهود. ذلك أن الحل النازى الاستئصالى ربما يكون قد ازداد صلابة بدخول جيش الولايات المتحدة فى الحرب أواخر سنة ١٩٤١م، وهو ما لام هتلر اليهود بسببه: «لم تعد المبادرة فى يد ألمانيا . . . وعلى الرغم أن الأمر لم يتضح تمامًا لعدة أشهر، فإن

مقامرة هتلر، التى راهن عليها بمستقبل الأمة، خسرت بشكل كارثى» (Kershaw 2000: 457) وبحلول نهاية العام كان قد تم ذبح أربعة ملايين يهودى (Kershaw 2000: 493).

وإذا كانت الصورة التى رسمناها فى السطور السابقة دقيقة بأى معيار، فما العبر التى نخرج بها؟

إن الجوانب الفريدة للإمپريالية النازية الألمانية لا يجب أن تعمينا عن رؤية بعض المسلمات عن الغزو الإمپريالى. فهو يميل «دائمًا» إلى سلوك الإبادة، وتضرب محاولات إضفاء المشرعية عليها بجذورها دائمًا فى الاختلافات العرقية والكراهية الجنسية. وتتزايد مشروعات الإبادة إذا ما كانت القوة العسكرية تنوى تطهير الأرض لتكون «مجالاً حيويًا» من جنس مزعوم أنه أدنى لصالح مجموعة عرقية يزعمون أنها أرقى. وربما تصبح الأيديولوچيات اليوتوبية، التى تبرر تطهير الأرض بالقوة باسم التفوق العرقى، أشد تعصبًا عن ذى قبل، وأكثر ميلاً للإبادة، عندما تواجه الفشل.

والصهيونية ليست مثل النازية. فليس فى جوهرها نية استئصالية، على الرغم من أن الصهيونية ـ كما سنرى ـ قد صارت قادرة على ممارسة الإبادة وتمارسها فعلاً. ولكن الصهيونية تمتد بجذورها فى الإمپريالية الأوروبية. وتكفى هذه الحقيقة وحدها لطرح تحذيرات عاجلة عن تطبيقات الطموحات الاستعمارية القاسية فى فلسطين.

قبل الطوفان: المواقف الصهيونية للإنقاذ والمقاومة

أريد الآن أن أتحول إلى مناقشة مختلفة للغاية تتعلق بالمواقف الصهيونية قبل الهولوكوست. وكان لا بد للمرء أن يفكر فى أنه بعد أن تولى النازيون السلطة فى ألمانيا سنة ١٩٣٣م، كان لا بد للصهاينة أن يكونوا فى الجبهة الأمامية لتنظيم المقاومة ضد النازى وإنقاذ اليهود منهم. بيد أنه كان هناك غالبًا غموض متعب بشأن هذا، لا سيما فيما بين زعماء الصهيونية، وهو ما يلقى شكوكًا بالفعل حول مصداقية الصهاينة الأخلاقية فى نفس الساحة التى ينبغى ألا يكون فيها أى شك. وهذا يثير أيضًا السؤال «العام» و«الخاص» بطريقة درامية تمامًا. **لأن السؤال المطروح هو ما إذا كانت الحاجات الخاصة للدولة اليهودية المنتظرة، كما يفهمها زعماء المستعمرة اليهودية فى فلسطين تحت**

السيطرة البريطانية فى ذلك الوقت، ينبغى أن تكون لها الأولوية على الحاجة إلى رد عالمى للأزمة اليهودية الماثلة، والتى تسبب فيها التهديد النازى القائم.

وقد أوضح مؤتمر إيفيان سنة ١٩٣٩م الطريقة التى حكم بها بعض قادة الصهاينة على أولويات الإنقاذ. وكان ذلك المؤتمر بمبادرة من الرئيس روزفلت للتنسيق بشأن حل عالمى للعدد المتزايد بإطراد من اللاجئين اليهود الساعين إلى الهرب من براثن السيطرة النازية. وبينما كانت نوايا مؤتمر إيفيان شريفة دونما شك، فإن نتائجه كانت مخيبة (Wasserstein 1998: 8 - 9). وعلى أية حال، لم يكن هذا واضحًا بالمرة للكثير من المشاركين، الذين أخذوا مقاصد المؤتمر بجدية شديدة فعلاً. **وكان هذا يصدق بشكل خاص على المندوبين الصهاينة، الذين كان بعضهم قلقين من أن حصاد المؤتمر ربما يكون ناجحًا للغاية.**

كان هذا الموقف الغريب والمربك هو الذى أوضحه بن جوريون بحماسة عارمة دون سواه. ففى اجتماع ضم زعماء اليهود، من الصهاينة وغير الصهاينة، جاءوا من جماعات يهودية فى أجزاء مختلفة من العالم، **حذر بن جوريون من «الدمار، والخطر، والمصيبة التى يمكن توقعها من مؤتمر إيفيان. إذ إنه يمكن أن يزيح فلسطين من الأجندة الدولية باعتبار ذلك عاملاً فى حل المسألة اليهودية»**. واستمر ليقول إن السبب هو أنه «فى عيون العالم، تشبه فلسطين إسبانيا الآن [حيث كانت تدور رحى حرب أهلية]. . هناك أحداث شغب. . وفى كل يوم يتم إلقاء القنابل». وهنا كان محقًا تمامًا. فقد كان الفلسطينيون قد أعلنوا «حرب» تحرير وطنية على المحتلين البريطانيين وحلفائهم الصهاينة. ولم يكن هناك سبيل آنذاك لأن تفتح بريطانيا فلسطين أمام المهاجرين اليهود. وكان المطلوب بإلحاح توفير حل بديل. و لاحظ بن جوريون أن روزفلت توصل إلى نفس الاستنتاج. وحكى بن جوريون أن روزفلت قال: «لم تستطع فلسطين حل المشكلة اليهودية، وينبغى البحث عن طريق مختلف». وبعبارة أخرى، يجب استيعاب المهاجرين اليهود فى مكان آخر. **ولكن بالنسبة لبن جوريون كانت هذه كارثة، وكان يريد لمؤتمر إيفيان أن يفشل. وكما عبر هو عنها: «ينبغى علينا أن نحرص على ألا يجد هذا الاتجاه الخطير تعبيرًا عنه فى المؤتمر»** (Beit Zvi 1991: 228)[٢].

ولم يكن بن جوريون غريبًا أو شاذ الأطوار. بل على العكس، كان هو أبرز زعماء

الصهيونية فى القرن العشرين، كما لاحظنا فى عدة مرات. ونحن مخولون الحق فى إصدار أحكام عن الصهيونية من مواقف هذا الرجل وسلوكه. **بيد أن هذه المواقف قد كشفت عن نزعة قومية ضيقة، ومن المؤكد أنها قليلة القيمة، فى جوهر المشروع الصهيونى، الذى كان على استعداد للمخاطرة بأرواح اليهود «عشية» الهولوكوست.** وهذه ليست مبالغة. كما أنها لم تكن انحرافًا لصالح بن جوريون. لقد كرر هذه العبارات حتى فى شكل أكثر تنفيراً. ففى خطاب إلى المكتب التنفيذى الصهيونى، فى السنة نفسها التى شهدت مؤتمر إيڤيان، كتب:

«إذا ما تعين على اليهود أن يختاروا ما بين اللاجئين، وإنقاذ اليهود من معسكرات التجميع، أو المساعدة فى إقامة متحف وطنى فى فلسطين، فإن الرحمة ستكون لها اليد العليا وسيتم توجيه طاقة الشعب كلها فى سبيل إنقاذ اليهود من بلدان مختلفة.

«سوف يتم استبعاد الصهيونية من الأچندة.. وإذا سمحنا بحدوث انفصال بين مشكلة المهاجرين والمشكلة الفلسطينية، فإننا نكون قد غامرنا بوجود الصهيونية» (Bober 1972: 171)[٣].

كان لموقف بن جوريون آثار حقيقية على الحياة والموت: فقد «عارض» مرة أخرى فى السنة نفسها خطة بريطانية للسماح بهجرة عدة آلاف من الأطفال اليهود الألمان إلى المملكة المتحدة:

«إذا عرفت أنه سيكون ممكنًا انقاذ جميع الأطفال فى ألمانيا بجلبهم إلى إنجلترا، ونصفهم فقط إلى أرض إسرائيل (فلسطين) فإننى سوف أميل إلى الخيار الثانى. لأننا يجب أن نزن ليس فقط حياة هؤلاء الأطفال ولكن أيضًا تاريخ شعب إسرائيل» (Brenner 1983: 149).

كان التأكيد على الحاجات المزعومة للدولة اليهودية المنتظرة على حساب أولوية الإنقاذ متسقًا مع الطريقة التى كان يمكن بها لهذا الموقف أن يساوم بشأن المقاومة ضد النازى، بل حتى يقترح التعاون معهم. فعندما استولى هتلر على السلطة فى سنة ١٩٣٩م، أرسل له الاتحاد الصهيونى فى ألمانيا مذكرة، لم تفقد قوتها الصادمة بعد سبعين سنة:

«هل يُسمح لنا إذن بأن نقدم آراءنا، التى هى فى نظرنا، تتيح حلاً فى الاحتفاظ بمبادئ الدولة الألمانية الجديدة فى الصحوة الوطنية، والتى قد تعنى فى الوقت نفسه بالنسبة لليهود تنظيمًا جديداً لظروف وجودهم.. والتى تتكون فى النهاية من نموذج غير عادى فى الاحتلال ، فى وضع فكرى وأخلاقى ليست له جذور فى تراثنا الخاص» (Brenner 2002: 42-3) .

وتمضى المذكرة لكى تؤكد لهتلر أن الصهيونية سوف «تعارض» الحملة المعادية للنازية على اتساع العالم، والتى تنادى بمقاطعة البضائع الألمانية . وثمة تبرير لاحق لهذا السلوك غير المعتاد تمثل فى اتفاقية «الترحيل» التى سبقت الحرب بسوء سمعتها . ففى هذه الإتفاقية تم السماح لليهود الألمان بمغادرة ألمانيا مع بعض متعلقاتهم إلى فلسطين . على أن يتم فى الوقت نفسه بيع البضائع الألمانية لليهود فى فلسطين . وقد استولى الفزع على بعض اليهود غير الصهاينة وكذلك بعض الصهاينة من جراء مثل هذا التعاون[٤] .

وثمة فزع من الصهيونية يبدو لكثير من المراقبين مستهلمًا حتى من النازية . ذلك أن حزب الليكود الموجود حاليًا ، والذى هو حزب الأغلبية الحاكم حتى لحظة كتابة هذه السطور ، نادرًا ما يعترف بهذا الشبح الذى يطل من غياهب الماضى . ومع ذلك ، فإنه عندما قام أحد زعمائه الأكثر شهرة ، والذى سيصبح رئيس الوزراء فيما بعد ، وهو مناحم بيجين ، بزيارة نيويورك فى نهاية سنة ١٩٤٨م ، واجه هو ومنظمته السياسية هجومًا من أشهر عالم يهودى فى العالم وهو ألبرت أينشتين . وقد أدان أينشتين ـ شأن الكثير من اليهود الأمريكيين البارزين ـ بيجين فى جريدة نيويورك تايمز لأنه يقود حزبًا **«يشبه فى تنظيمه، ومناهجه، وفلسفته السياسية ودعوته الاجتماعية الأحزاب النازية والفاشستيه»** (Brenner 2002: 184) .

و«الآراء الثاقبة» و«التحذيرات» واضحة بذواتها هنا . ففى الفترة التى يسميها برينر الصهيونية فى عصر الديكتاتوريين[٥] ، كشفت الصهيونية عن سمة مزعجة ومخجلة ، وهى استعدادها لإعطاء الأولوية لحاجاتها الخاصة على القضية العالمية الواضحة بحد ذاتها والخاصة بإنقاذ اليهود ، مما يعنى قدرتها على محاكاة السلوك الشمولى لمن يعذبها .

الهولوكوست، الناجون منه، والنكبة

بينما بدأت حقيقة الهولوكوست تنجلى بعد الحرب، صارت أكثر قضية مقنعة رفعتها الصهيونية حتى ذلك الحين، بحيث قزّمت - بصراحة - السلوك فيما قبل الحرب وأثنائها، وقزمت الأحكام التعسة لبعض زعمائها.

وبدأت إحدى العواقب الخاصة جداً والعملية جداً للهولوكوست تفرض نفسها بإلحاح متزايد على الحلفاء المنتصرين، ولا سيما بريطانيا. فأين يعيش الناجون من الهولوكوست الآن؟

كانت الحرب قد أنهكت بريطانيا. وكانت مطالب الاستقلال الوطنى عالية الصوت وواضحة فى جميع أرجاء الإمبراطورية. وربما كانت الثورة الوطنية العربية الفلسطينية قبل الحرب قد تقلصت بشكل مؤقت، ولكن صناع السياسة البريطانية كانوا يعرفون تماماً أن الأمر لم ينته، وأنه من المحتمل أن تندلع مرة أخرى فى أى وقت. وكانوا يواجهون آنذاك تهديداً جديداً، إذ كانت الميليشيات الصهيونية المستقلة مستعدة لمواجهة جيش الاحتلال البريطانى حول مسألة الهجرة إلى فلسطين من جانب الناجين من الهولوكوست (Pappe 2001: 21). وفى الحقيقة انهارت السياسة البريطانية بشكل مشين، وتم تمرير مستقبل فلسطين إلى الأمم المتحدة.

وليس هذا مكان مناقشة جدارة أو فعالية ما كان آنذاك مؤسسة دولية جديدة تماماً تم تأسيسها، فى أعقاب أكثر الصراعات العالمية دموية ورعباً، فى تحقيق العدالة - على المستوى البلاغى والخطابى على الأقل - العالمية وتأسيس آليات الحفاظ على السلم العالمى. ولكن بابى، أحد الباحثين الإسرائيليين القلائل جداً المعادين للصهيونية، لاحظ أمراً كاشفاً للغاية عن الاستجابة الأولية للأمم المتحدة تجاه الأزمة الفلسطينية. أما عن الأسباب التى تتعلق بالتفاعل بين سياسات القوة العظمى فى الأمم المتحدة، لا سيما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى، (Pappe 2001: 17-18)، فإن تدخل الأمم المتحدة فى فلسطين قد تركتنا بإطلالة فريدة على الأحداث.

فقد تم تأسيس لجنة خاصة من الأمم المتحدة لفلسطين (UNSCOP) للتحقيق فى

الوضع بها وتقديم تقريرها عنها. وقد سمحت الولايات المتحدة، فى محاولة لتقليل نفوذ الاتحاد السوفيتى على اللجنة، إلى حد ما، أن يكون تكوين اللجنة خارجًا عن أيدى القوى الرئيسية. وقد أعطى هذا للممثلين من بلدان أصغر، بما فيه بلدان العالم النامى، رأيًا أكبر مما كان يمكن أن يحصلوا عليه. ولم يكن لدى الكثير من أعضاء اللجنة سابق معرفة بالصراع. فقد أضفى هذا على اللجنة حيرة، بل سذاجة، فى طريقة فهمها للموقف فى فلسطين، بيد أن ذلك كان يعنى أيضًا أنها كانت عرضة للضغوط المباشرة دونما فهم للسياق.

هذه النقطة الأخيرة تم توضيحها بشكل درامى بوصول السفينة Exoudus وهى السفينة الشهيرة التى كانت تحمل المهاجرين اليهود إلى سواحل فلسطين خلال الفترة التى كان أعضاء فريق لجنة الأمم المتحدة (UNSCOP) يقومون بعملهم. وقد راقبوا بدهشة كيف اعترضت السلطات البريطانية، التى كانت ما تزال السلطة الحاكمة فى السفينة، ورفضت لركابها النزول، وفضلاً عن ذلك رفضت تحمل مسئوليتهم. وتضمن هذا رفض اعتبار خيار البقاء المؤقت فى بريطانيا نفسها. وبدلاً من ذلك تمت إعادة السفينة إلى ألمانيا. وليس هناك حادث، قبله أو بعده، سوف يلعب به الصهاينة بهذا القدر من الحسم. وسرعان ما صار مصير سفينة Exodus مادة لأسطورة[٦]. وبدا الحادث مؤكدًا القضية الصهيونية بشكل لا لبس فيه.

وهيمنت مسألة سفينة الإكسودوس على فريق لجنة الأمم المتحدة. ذلك أن زعماء الصهيونية كانوا بالفعل قد أقاموا علاقة معهم، صوابًا أم خطأً، أما زعماء العرب الفلسطينيون فقد قاطعوا اللجنة (Pappe 2001: 3). وحينئذ صارت أولوية لجنة الأمم المتحدة:

«مصير الناجين اليهود بدلاً من المطلب العربى بحسم مستقبل فلسطين وفق الحقيقة السكانية سنة ١٩٤٧م. وكان النتاج أن قررت اللجنة أن تقبل الرابطة بين مصير اليهود الأوروبيين ومصير فلسطين» (Pappe 2001: 25).

هنا كانت نقطة تحول حرجة فى النضال من أجل تأسيس الدولة اليهودية. فقد كان الصهاينة قد كسبوا حرب الدعاية بزمن طويل قبل إطلاق أول رصاصة فى الحرب

الحقيقية من أجل السيطرة على فلسطين، بعد ذلك بسنة، ١٩٤٨[٧]. وكان دور لجنة الأمم المتحدة باعتبارها «سمساراً أميناً» للرأى العام على اتساع العالم، كان فى الواقع موجهاً آنذاك لصالح الصهاينة، وقد تم إقرار ذلك بقضية السفينة Exodus.

كان الحليفان المنتصران الرئيسيان فى الحرب، بريطانيا والولايات المتحدة، مسئولين عن هذا الموقف. وبينما استوعبتا بالفعل الكثير من الناجين، فإنهما لم تكونا مستعدتين بالتأكيد لأن تقدما للباقين إذناً بالاستقرار فى بلديهما (Pappe 2001: 576n. 32). بل إنهما لم تكونا جاهزتين حتى للبناء على مقاصد مؤتمر إيفيان الدولى قبل الحرب واستخدام الأمم المتحدة باعتبارها الوسيلة الواضحة بعد الحرب للاستجابة الدولية المشرفة لأزمة اللاجئين اليهود. وفجأة بدت الحالة الصهيونية وكأنها وسيلة تدعو للإعجاب فى حل «المشكلة». وكانت هذه إعادة تدوير للمستويات الأخلاقية المتدنية تماماً للسلوك الدولى كما جسده السياسى البريطانى بلفور، والذى نعرضه فى الفصل الأخير: إقلب اليهود غير المرغوب فيهم إلى فلسطين.

ومن المحتمل أن بعض السياسيين الأمريكيين «بعيدى النظر» كانوا قد عرفوا فعلاً مدى ما يمكن أن تسديه دولة يهودية جديدة من خدمات لمصالح الولايات المتحدة. ومن المؤكد أننا نعرف أن قادة جيش الولايات المتحدة العسكريين قد انبهروا بانتصار إسرائيل فيما يسمى «حرب الاستقلال» ضد العرب. وكان لهم أن يصفوا الدولة الجديدة بأنها القوة الإقليمية الكبرى بعد تركيا، وتقدم للولايات المتحدة الوسيلة التى تحقق لها «الميزة الاستراتيجية فى الشرق الأوسط التى سوف تمحو آثار تدهور القوة البريطانية فى المنطقة» (Chomsky 1996: 204). بيد أن هذا ما سنناقشه فى الفصل التالى.

أين كان الناجون من الهولوكوست أنفسهم يريدون الاستقرار؟ لقد أخبر الجنرال كلاى، الحاكم العسكرى الأمريكى لألمانيا، فريق لجنة الأمم المتحدة أنه بتجربته يرى أن الناجين من المعسكرات يختارون الذهاب إلى فلسطين، ولكنه أضاف قائلاً: «أنا لا أعرف طبعاً كيف يمكن أن يصمد هذا فى مواجهة فتح البلاد الأخرى للهجرة» (Pappe 2001: 27). وتلك هى المشكلة. نحن لا نعرف لأن ذلك لم يكن أبداً محل اختبار. وعلى أية حال، فإننا نعرف كيف نجح الصهاينة فى العمل داخل معسكرات الترحيل،

أى المعسكرات التى أقيمت للناجين. فقد كان باستطاعتهم تنسيق شهادات الناجين أمام لجنة الأمم المتحدة UNSCOP. وقد تم تلقين المهاجرين الذين تم اختيارهم لمقابلة اللجنة الدعاية الصهيونية والمصطلحات الصهيونية تمامًا.

وبنهاية سنة ١٩٤٩م، أى بعد سنة واحدة فقط من تأسيس الدولة اليهودية، كان هناك ما يقرب من ٣٥٠ ألف من الناجين من الهولوكوست يعيشون فى إسرائيل يمثلون ثلث جمهرة السكان تقريبًا. (Seveg 1993: 154). وفى حرب ١٩٤٨م، كان حوالى ثلث الجنود من الناجين من الهولوكوست (Seveg 1993: 176).

وظهر أن التبرير الأخلاقى لتأسيس إسرائيل قد تعزز بفضل هذه البقية الحية من الهولوكوست. ومع ذلك فإنه بمقاييس الأخلاق، ينبغى أن نناقض فوراً هذه الحقيقة بالغة الأهمية بحقيقة أخرى. ففى بواكير سنة ١٩٤٧م، كان اليهود يملكون ٧ بالمائة من الأراضى بفلسطين، وبعد ذلك بسنوات ثلاث كانوا قد استولوا على ٩٢ بالمائة من الأراضى داخل الدولة الجديدة، بما فى ذلك مساكن العرب ومبانيهم من كل نوع (Kimmerling 1983:143). وكما لاحظ أندرسون، كان هذا يشكل احتلالاً استيطانيًا بمعدل واسع وسريع، لم يسبق له مثيل فى تاريخ الاستيطان. (Anderson 2001:12) وبمعنى يصعب جداً تحديده، هناك رابطة بين جسامة جريمة الهولوكوست التى ارتكبت فى حق ضحاياها الرئيسيين وكثافة الاحتلال الاستيطانى الذى جرى باسم هؤلاء الضحايا. كذلك كانت هناك وحشية، ذات مضامين تتصل بالإبادة العرقية، فى قلب موجة الاستيطان تسبب إزعاجًا مشابها لما سببه الهولوكوست.

دير ياسين والنكبة

فى ٩ أبريل ١٩٤٨م، وأثناء الحرب التى قد بدأت آنذاك بين الصهاينة والعرب، قامت إحدى الميليشيات الصهيونية الموصومة بالتعصب بصفة خاصة، والتى كان يقودها مناحم بيجين، بدخول قرية دير ياسين العربية، وذبحوا معظم سكانها البالغ عددهم أربعمائة نسمة. وقد سجّل جاك دى رينيه من هيئة الصليب الأحمر الدولى التفاصيل الشنيعة (Hirst 1977: 128). وسرعان ما صارت دير ياسين رمزًا لمدى كثافة الإرهاب الذى كان الصهاينة على استعداد لممارسته لإجبار الفلسطينيين على الفرار من دورهم.

ودير ياسين والنكبة، تعبران عن كيفية تذكر الفلسطينيين لطردهم الإجبارى من وطنهم والذى شمل حوالى ٧٥٠ ألف قروى فلسطينى، وهو ما يرتبط أيضًا بطريقة غير مؤكدة بجسامة جريمة الهولوكوست. وموضوع خاتمة هذا الفصل هو (مناقشة هذه المسألة). ففى السنوات الأخيرة، قام بعض اليهود من ذوى العقليات التقدمية فى بريطانيا وأصدقاؤهم من الفلسطينيين والعرب الآخرين بالبدء فى تخليد ذكرى دير ياسين. وقد أثار هذا نقاشًا رئيسيًا داخل الجماعة اليهودية. وقد وجد عفيف صافية، المندوب العام الفلسطينى فى المملكة المتحدة، والسفير الفلسطينى فى الوقت نفسه، مشتبكا فى الجدل الدائر على صفحات الأدب فى جويش كرونيكل، مع رجل دين يهودى بريطانى معروف قليلاً لم يكن لديه استعداد لقبول تفسير دير ياسين طبقًا للخطوط العريضة الواردة فى السطور السابقة. ورد عفيف جاء فى صميم الموضوع تمامًا، كما يلى:

«لندن ١٠ أبريل ٢٠٠١

الراباى (الربى) الدكتور سيدنى بريشتو (Letters, March 30) يبدو متضايقًا من الاقتباس من كلام حاييم وايزمان فى الكتيب الذى يحمل عنوان (Deir Yassin Remembered) لأنه يقول: «لقد كان ذلك تطهيراً إعجازيًا للأرض». بيد أنه لا ينازع بشأن صحة الاقتباس ودقته».

وعن الهروب الجماعى للفلسطينيين فى سنة ١٩٤٨م، قال بن جوريون أيضًا: «لقد كان ذلك تبسيطًا إعجازيًا للمشكلة». وأود أن أعرف يومًا ما رد فعل الدكتور بريشتو، باعتباره زعيمًا روحيًا، للاستخدام المفرط لكلمة «إعجازى». وأما بالنسبة لى فقد كنت دائمًا أعتبر أن الله برىء من هذا. لقد وثق المؤرخون الفلسطينيون حتى الآن ٥٣٧ قرية سويت بالأرض فى سنة ١٩٤٨م على أيدى السلطات الإسرائيلية، وذلك لكى تحول دون إمكانية عودة اللاجئين الفلسطينيين. أما بالنسبة لدير ياسين فإن الراحل مناحم بيجين قد تفاخر فى مذكراته التى نشرها ١٩٥٢م بعنوان «La Révolte»، قائلاً إنه بدون دير ياسين لما كانت هناك إسرائيل، وأنه بعد دير ياسين، تمكنت القوات الصهيونية من التقدم مثل «سكين ساخن فى الزبد». وقد نُصح فيما بعد بأن يحذف هذا من الطبعات التالية لمذكراته».

لقد أوقعت المؤسسة السياسية الإسرائيلية بالفلسطينيين أربعة صنوف من الإنكار. أولاً جاء إنكار وجودنا ذاته. ثم تلاه إنكار حقنا. وكان هذا كله مصحوبًا بإنكار معاناتنا وإنكار مسئوليتهم الأخلاقية والتاريخية عن هذه المعاناة. إن إنكار الدكتور بريشتو للنكبة مزعج بنفس الدرجة.

إننى لم أربط أبدًا بين النكبة والهولوكوست. وكانت قناعتى دائمًا أنه لا حاجة بنا للمقارنات والمشابهات التاريخية.

«ليس هناك شعب واحد يحتكر معاناة البشر وكل مأساة عرقية لنفسه. ولو كنت يهوديًا أو غجريًا، فإن بربرية النازية ستكون أشد أحداث التاريخ شناعة. وإذا ما كنت أفريقيًا أسودًا لكانت العبودية والفصل العنصرى هى أشنع الأحداث التاريخية. وإذا كنت من سكان أمريكا الأصليين لكان اكتشاف العالم الجديد على أيدى المستكشفين الأوروپيين والمستوطنين الذى نتجت عنه الإبادة الكلية تقريبًا هى الأشنع. وإذا ما كنت أرمنيًا، لكانت الحوادث الأشنع فى التاريخ هى المذابح التى ارتكبها العثمانيون. ولكن ما حدث هو أننى فلسطينى، وبالنسبة لى تمثل النكبة أسوأ أحداث التاريخ. ينبغى على الإنسانية أن تعتبر ما سبق ذكره أمرًا كريهًا. ولست أعتبر أنه من حسن المشورة أن نجادل فى تراتيب المعاناة. ولست أعرف كيف نقيس كمية الألم أو نقيس المعاناة. وما أعرفه حقًا هو أننا لسنا مخلوقات لإله أقل».

عفيف صافيه

وإذ بدأ يسرد ذكرياته الشخصية عن النكبة[٨] فى اجتماع حاشد فى المركز الثقافى المصرى بلندن أوائل سنة ٢٠٠٣م، وصف الكاتب الراديكالى والمذيع طارق على ضحايا النكبة بأنهم ضحايا إضافيون للهولوكوست. إن «النظرات» و«التحذيرات» التى نناقشها فى هذا الفصل تؤكد حقيقة هذا الافتراض.

عبَر وتحذيرات من الهولوكوست والنكبة

فى عصر الفظاعة والوحشية، تم التضحية بحياة الفلسطينيين لخلق فضاء لحياة اليهود على الأرض الفلسطينية التى أعيدت تسميتها بالأرض اليهودية. وعلى مدى جيل كانت محاولة بناء هوية يهودية صهيونية تنكر بوضوح الهوية الفلسطينية. وقد

أدت المواجهة الطويلة مع الفلسطينيين إلى هذه الانفجارات الصهيونية الكثيرة التى لها تشابهات مع العنصرية التى تؤمن بالإبادة والاستخدام المطلق للعنف فى العصر النازى.

ويتم تكريس الدكتور باروخ جولد شتاين، الصهيونى الأمريكى المولد والمستوطن الذى فتح النار فى هجوم بسلاح الجيش الإسرائيلى ((Shlaim 2000: 524)، وقتل ٢٩ من المصلين المسلمين فى ضريح الخليل باعتباره رجلاً يحمل حلمًا فى بعض دوائر المستوطنين الصهاينة.

وقد كتب الروائى الإسرائيلى، داڤيد جروسمان، فى أعقاب اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى اسحق رابين، على يد صهيونى يمينى متطرف آخر، محذرًا الإسرائيليين من أنهم إذا ما استمروا فى تجاهل «عمق السم الداخلى الذى يسببه لنا استخدامنا الهائل للعنف»، فإنهم سوف يهلكون (Jewish Chronicle, 10 November 1995).

وفى بعض الأحيان يكون الناجون من الهولوكوست أنفسهم مجبرين على رصد التشابهات. فقد أضرب الدكتور شلومو شميلزمان عن الطعام أثناء الغزو الإسرائيلى لبيروت الغربية فى لبنان سنة ١٩٨٢م. وفى خطاب التفسير الذى أرسله، كتب:

«فى طفولتى عانيت الخوف، والجوع والإهانة عندما عبرت من الجيتو فى وارسو.. إلى بوشنوالد.. إننى أسمع اليوم الكثير من الأصوات المألوفة.. إننى أسمع عبارة «العرب القذرون» وأتذكر عبارة «اليهود القذرون». وأسمع عن المناطق المغلقة، وأتذكر مناطق الجيتو والمعسكرات. إننى أسمع عبارة «الوحوش ذات الساقين» وأتذكر العبارات الألمانية المشابهة و«Untermenschen» «أدنى من البشر».. إن هناك أشياء أكثر مما ينبغى فى إسرائيل تذكرنى بطفولتى» (Chomsky 1999: 257).

وحدث أثناء الحصار الإسرائيلى لبيروت أن قامت ميليشيا مسيحية متعصبة تساندها قوات الدفاع الإسرائيلية التى أغلقت مخيمى اللاجئين الفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا، «بالدخول إلى المعسكرين وذبحت السكان بطريقة همجية.. تحت مراقبة قوات الجيش الإسرائيلى التى كانت على مبعدة ياردات قليلة» (Chomsky 1999 : 364 - 5).

وقد صدمت مذابح صابرا وشاتيلا العالم. ووصفت بأنها جريمة حرب. ومفهوم

«جريمة حرب» نفسه حصاد محاولات تحديد النظام القانونى الجديد فى العدالة العالمية بعد ظلال الفترة النازية.

ونحن نتعامل هنا مع العبر والتحذيرات من الهولوكوست. ونحن لا نناقش المساواة بين الصهيونية والنازية. بيد أن الرفض الأيديولوچى لإدراك أن الصهيونية والتطلعات المشروعة للشعب الفلسطينى نقيضان لا يلتقيان يمكن أن يستمر ليؤدى إلى تجذير الصهيونية فى تطرفها، ويطلق عنان تجليات أكبر مما سبق فى عنف الإبادة العرقية. وثمة دوامة يمكن أن تنفتح حيث يمكن أن تنهار المعايير المتحضرة التى ما تزال تمارس بعض الكبح نهائيًا. ونحن لا نفهم بشكل كامل ما هو بالضبط الذى يؤدى إلى هذا الانحدار صوب البربرية[٩].

ومن حسن الطالع، أنه ما يزال هناك وقت لتجنب هذا. فقد تراجع نظام الفصل العنصرى، وحلّ نفسه، وسوف نتأمل ما إذا كان التطور «فيما بعد الصهيونية» فى إسرائيل يشى بإمكانية تراجع مشرف مماثل بشكل موجز فى الخاتمة.

***

حاول هذا الفصل أن يتحدى الطريقة التى استغلت بها الدولة الإسرائيلية الهولوكوست لإضفاء المشروعية السياسية عليها. وقد تم اقتراح أن العبر والتحذيرات التى تصدر عن استكشاف التوترات بين الجوانب العالمية والجوانب الخاصة فى الهولوكوست تشير فى اتجاه مختلف تمامًا. وبمعنى ما، فإن هذه العبر والتحذيرات مفهومة تمامًا. إذ إنها تتوافق مع الخطاب الراسخ الآن عالميًا بشأن العدالة، كما أنها أسهمت فيه، وهو خطاب حقوق الإنسان وحقوق المواطنين، باعتراضه غير المشروط على الاحتلال الاستيطانى والعنصرية بكافة أشكالها، ودفاعه عن الحقوق العالمية للاجئين[١٠] وبمعنى حقيقى تمامًا تتم صياغة قوانين أخلاق دولية جديدة. وهذا يعزز الاستجابة العدائية من الرأى العام العالمى للطريقة التى تتصور بها الحكومات الإسرائيلية المعاصرة حاجاتها الخاصة المحددة بشكل ضيق فى مواجهة حاجات الشعب الفلسطينى. وفى الفصل الأخير سوف ندرس المضامين النهائية.

لا تجعل الندبة تقوم بعمل الجرح

لقد ترك لنا بيتر نوفيك عبرة وتحذيراً نهائيًا على استغلال الذاكرةعن المآسى العميقة. وهو يقتبس فقرة من كاتب، هو ابن أحد الناجين من الهولوكوست، اسمه ليون ڤيسيلتير، محذرًا من أن الذاكرة الجماعية للاضطهاد يمكن غرسها:

«إن إحساسًا معزولاً . . . بالانفصال . . . إنه يحول التجارب إلى تراث لأنه يلغى الزمان والمكان، فالذاكرة الجماعية . . . جعل الفرد والجماعة فى حالة شك طاغية حول التغيير، ولا تعدهم للانقطاع . . وتعاليمها تقول لا تنخدعوا، لا يوجد غير التكرار . . .

فى ذاكرة الاضطهاد، يعيش الاضطهاد أكثر من عمره. وتقوم الندبة بعمل الجرح . . وتكون للظلم قوة التشويش الذى يستمر طويلاً بعد توقفه حقًا. إنه انتصار للطغاة بعد موتهم عندما يصير الألم تراثا»[١١] (Novic 1999: 281).

***

الفصل التاسع

هل هى إسرائيل الصغيرة الجسورة ؟
أم محمية القوة العظمى؟ (٢)
الرصيد الاستراتيچى للولايات المتحدة

يدين هذا الفصل بأصوله إلى أهم كتاب ظهر عن إسرائيل فى النصف الأخير من القرن العشرين وهو كتاب نعوم تشومسكى.

The Fateful Triangle, The United States, Israel and the Palestinians.

يقول إدوارد سعيد فى تقديم أحدث طبعة:

ربما يكون كتاب Fateful Triangle أكثر الكتب طموحًا فى محاولة دراسة الصراع بين الصهيونية والفلسطينيين من حيث رؤيته لتورط الولايات المتحدة فى الصراع بصورة مركزية. إنه فضح عنيد للفساد البشرى والجشع البشرى وعدم الأمانة الإنسانية.. ويمكن قراءته باعتباره حربًا ممتدة بين الحقيقة وسلسلة من الأكاذيب - مثل الديمقراطية الإسرائيلية - وخلو إسرائيل من الأسلحة، والاحتلال الرحيم، ولا عنصرية ضد العرب فى إسرائيل، والإرهاب الفلسطينى... وبعد ترديد الحكاية الرسمية، فسرعان ما ألقى بها بعيدًا بقدر كبير من الأدلة المضادة» (Chomsky 1999: 7)[1].

كان هناك سبب بسيط للغاية فى أن الولايات المتحدة ربما كانت بحاجة إلى رصيد استراتيچى (Chomsky 1999: 20) فى الشرق الأوسط فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية. فقد كان هذا هو الإقليم، كما ذُكر فى تحليل وزارة الخارجية ١٩٤٥م، الذى يحتوى على «أحد أكبر الجوائز المادية فى تاريخ العالم» (Chomsky 1999: 17)؛ أى البترول. وكان بوسع إسرائيل أن تلعب دورها للمساعدة فى إحاطة الإقليم ببناء عسكرى، تكون مهمته حماية إمدادات البترول الغربية.

وبمرور الوقت كان لا بد لإسرائيل أن تكون مستفيدة من المعونة العسكرية والمدنية[٢]

أكثر من أية دولة أخرى تابعة للولايات المتحدة، وقد وصل إجمالى هذه المعونة فى نهاية القرن العشرين حوالى مائة مليار دولار.

ونادرًا ما يعترف الرؤساء الأمريكيون بالأسباب الحقيقية لمثل هذه المعونة الكبيرة. ولكن الرئيس ريجان كسر الغطاء الديپلوماسى، عندما أفلت منه التصريح التالى:

«مع توفر قوة عسكرية ذات خبرة، تكون إسرائيل قوة فى الشرق الأوسط ذات فائدة حقيقية بالنسبة لنا. وإذا لم تكن هناك إسرائيل بتلك القوة، لتعين علينا أن نوفر ذلك من جانبنا، ولذلك فإن هذا ليس مجرد إنكار للذات من جانبنا» (Aruri 2003: 39).

ولكن من المهم أن ندرك أنه كان على إسرائيل أن تكسب هذا وأن تتعلمه. وقد وصفت الفصول السابقة كيف أن الصهيونية كانت تعتمد تمامًا على رعاية القوة العظمى. وفى غضون ثلاث سنوات فقط من تأسيس إسرائيل، كان منظروها جاهزين للربط بين بقاء إسرائيل والمقاصد العدوانية «للقوى الغربية».

وقد كتب چيرشوم شوكن، ناشر هاآرتس ورئيس تحريرها، التى يقال إنها أكثر صحف إسرائيل جدية، سنة ١٩٥١م ما صار بعد ذلك فعليًا بيان مهمة إسرائيل:

«إن تقوية إسرائيل تساعد القوى الغربية على الحفاظ على التوازن والاستقرار فى الشرق الأوسط. يجب أن تصبح إسرائيل كلب حراسة. ولاخوف من أن تتخذ إسرائيل أية سياسة عدائية عدوانية تجاه الدول العربية إذا تعارض ذلك بشكل واضح مع رغبات الولايات المتحدة وبريطانيا. إذا حدث عداء لأى سبب كان على القوى الغربية أن تغمض أعينها، فإنه يمكن الاعتماد على إسرائيل لإنزال العقاب بدولة أو بعدة دول من دول الجوار التى يتخطى جفاؤها تجاه الغرب حدود المسموح» (Ha'aretz 30 September 1951; cited Bober 1972: 16-17).

وقد تصادف أن سنة ١٩٥١م كانت السنة التى قام فيها الدكتور مصدق، الزعيم الوطنى الراديكالى فى إيران، بتأميم البترول. وقد سارت الوطنية الراديكالية لكى تكتسح جميع أرجاء الشرق الأوسط. وبيان النوايا التى أعلنتها إسرائيل لم يكن ممكنا أن يكون أكثر قدرة على معرفة المستقبل من ذلك. ستصبح إسرائيل فعليًا كلب الحراسة.

دور إسرائيل فى مغامرة السويس وتهديدها لتحرير الجزائر

فى غضون ثمانى سنوات من تأسيس إسرائيل، كانت الدولة اليهودية تضطلع بدور فى مغامرة عسكرية وإمبريالية، مع بريطانيا وفرنسا، فى محاولة للإطاحة بالرئيس جمال عبد الناصر، زعيم مصر الوطنى الثورى. ففى سنة ١٩٥٦م أمم جمال عبد الناصر قناة السويس الشريان الرمزى والعالمى الكبير لناقلات البترول المتجهة إلى الغرب، وهو عمل لاقى شعبية كبيرة فى جميع أنحاء الشرق الأوسط وما وراءه. وعندما أعلنت بريطانيا وفرسا وإسرائيل الحرب على مصر، استنفروا غضب العالم الذى أجبر حتى الولايات المتحدة على الدعوة إلى كبت ذلك.

هذه الحقائق الأساسية معروفة جيداً. ولكن ما هو معروف بدرجة أقل هو كيف أن فرنسا هى التى صارت راعية إسرائيل العسكرية فى تلك الأيام الباكرة (*).

ففى الوقت الذى كانت فرنسا مشتبكة فى واحدة من أكثر الحروب ضد الاستعمار مرارة فى القرن العشرين. كانت قد عقدت العزم على التمسك بمستعمراتها فى شمال أفريقيا، خاصة الجزائر، مهما كان الثمن. وصار الثوار الذين تمثلهم جبهة التحرير الوطنية رمزاً لمطالب العالم النامى، أو «العالم الثالث»، بوجوب الإطاحة بالقهر الاستعمارى إلى الأبد. وقد ألهم هذا الصراع فرانز فانون لتأليف كتابه The Wretched of the Earth وهو كتاب يُضفى الشرعية على العنف الثورى، وقُيض له أن يصير مانفستو حقيقيًا لكل أشكال النضال ضد الاستعمار.

وعندما تولى ناصر السلطة فى مصر، أصاب فرنسا الهلع. إذ إن ناصر وعد بتقديم المساعدة لجبهة التحرير الجزائرية. وعندئذ صارت فرنسا مصابة بالهوس من عبد الناصر وبدأت تتآمر مع إسرائيل للسعى إلى التخلص منه. ومن ثم عُقدت صفقة سرية بين البلدين سنة ١٩٥٥م. حيث قدمت فرنسا الطائرات والدبابات والذخيرة إلى إسرائيل بمعدل بدأ فى تحويل طموحاتها الإقليمية العدوانية إلى حقيقة. ودعت الاتفاقية أيضًا إلى التعاون المشترك مثل وضع محطات إسرائيلية للتشويش على الدعاية المصرية فى كل أنحاء العالم العربى، وكذلك ضرب قواعد جبهة التحرير الجزائرية فى ليبيا

(*) فى استطلاع حديث، ديسمبر ٢٠٠٥، أبدى ٦٤٪ من الشعب الفرنسى موافقته على السياسة الاستعمارية لفرنسا ـ المترجم.

(Shlaim 2000: 164-5) . وكانت فـرنسا أيضًـا هى التى زودت إسرائيل بالتكنـولوچيا النووية (Shlaim 2000: 175-6).

لقد وضـعت إسرائيل نفسهـا بشكل واضح فى جانب القوى الاسـتعمارية الغـربية ولكن فى الوقت نفسه مع المستعمرين الفـرنسيين شـديدى العنصرية الذين اسـتوطنوا الجزائر، وهم الذين سيقدمون فيمـا بعد الإلهام والكوادر للجبهة الوطنية النازية الجديدة فى فرنسا.

وكان لهذه الحوادث أن تترك انطباعات عميقة على الولايات المتحدة. إذ إن أزمة السويس كانت قد أوضحت أن بريطانيا وفرنسا انتهى زمانهما كدولتين استعماريتين وفى الوقت نفسه، كانت إسرائيل تبرهن على أنها حليف عسكرى خطير فى الميدان. وثمة مذكرة صادرة عن مجلس الأمن القومى فى الولايات المتحدة عام ١٩٥٨م لاحظت أن «لازمة منطقية» فى معارضة القومية العربية الراديكالية «ينبغى أن يكون دعم إسرائيل بصفتها القوة الوحيدة الموالية الباقية للغرب فى الشرق الأوسط». وقد شجعت الولايات المتحدة التحالف السرى بين تركيا وإيران والحبشة فى ذلك الوقت «التحالف الدائرى» (Chomsky 1999: 21) .

١٩٦٧ ـ ١٩٧٣م: إخراج ناصر وظهور الرئيس نيكسون أعظم أصدقاء إسرائيل، ولكنه صديق غير متوقع

كانت حرب ١٩٦٧م الإسرائيلية ـ العربية قد حسمت دور إسرائيل باعتبارها الرصيد الاستراتيچى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. وقد أهانت إسرائيل عبد الناصر وحلفاءه العرب. ولم يبرأ عبد الناصر أبدًا من هذه الهزيمة حقًا. كما أن القومية العربية الراديكالية نفسها تم تقويضها، وبدأت الممارسات السياسية للإسلاميين المتشددين تحل محل القومية العربية باعتبارها القوة الرئيسية المعادية للإمپريالية فى المنطقة. واستولت إسرائيل على مساحات ضخمة من الأراضى الجديدة، بما فى ذلك القدس كلها، والضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان فى سورية. وكما بينت بوضوح إحدى وثائق الخارجية الأمريكية، اعتراف الولايات المتحدة بقدرة إسرائيل على تمثيل مصالحها:

«ربما تكون إسرائيل قد أسدت إلى الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط بالنسبة للمال والمجهود المستثمر أكثر من أى حليف من حلفائنا وأصدقائنا فى أى مكان آخر بالعالم منذ الحرب العالمية الثانية. ففى الشرق الأقصى لا نكاد نجد أحداً يساعدنا فى ڤيتنام، أما هنا فقد كسب الإسرائيليون الحرب، وحدهم، وخلصونا من المشكلة، وخدموا مصالحنا بقدر ما خدموا مصالحهم» (Bonds et al. 1977: 116).

وفى ذلك الحين بدأت الولايات المتحدة ترسل إلى إسرائيل الأسلحة عالية التعقيد، بما فى ذلك طائرات الفانتوم الخارقه لسرعة الصوت التى أطلقت ضد مصر بعد ذلك بأربع سنوات بموافقة من الولايات المتحدة (Shlaim 2000: 293). وفى هذه السنوات الأربع تلقت إسرائيل معونة عسكرية قدرها ١,٥ مليار دولار من الولايات المتحدة ـ وهى تزيد عشر مرات على الكمية التى تم إرسالها فى السنوات العشرين السابقة.

بيد أن هذه الفترة شهدت أيضًا اختبار قوة إسرائيل العسكرية اختبارًا عصيبًا. ففى سنة ١٩٧٣م، شن أنور السادات خليفة جمال عبد الناصر، بالاشتراك مع سورية، هجومًا مفاجئًا على إسرائيل، فيما يسمى بحرب يوم كيبور (Shlaim 2000: 318) وقد كشفت هذه الحرب عن مدى قوة العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة. إذ تعين على الولايات المتحدة آنذاك أن تعمل بدلاً من أن تنظر بعين الرضا لاستخدام إسرائيل الأسلحة التى أعطتها لها الولايات المتحدة فى إخضاع أعدائها العرب. ذلك أن حسابات الولايات المتحدة أوصلتها إلى أنه كان هناك احتمال جدى بأن تخسر إسرائيل هذه الحرب، وهو احتمال لم تكن قادرة على تقبله تحت أى ظروف.

كان هذا فى الفترة التى أعقبت الهزيمة العسكرية التى كابدتها الولايات المتحدة فى ڤيتنام. وكانت نذر المقاطعة البترولية تتجمع. التوحد مؤقتًا بين العقيد القذافى بليبيا الذى يمثل أكثر البلاد المنتجة للبترول راديكالية، وبين أكثر بلدين رجعيين ينتجان البترول وهما إيران والسعودية. وكان الهدف الرئيسى من المقاطعة البترولية هو توجيه سوق البترول على نحو أكثر ملاءمة لمنتجى البترول، والمساعدة فى جعل منظمة الأوبك (منظمة الدول المنتجة والمصدرة للبترول)، وهى مؤتمر عالمى على المستوى السياسى والاقتصادى ينبغى أن يُحسب له حسابه. بيد أن زعماء المقاطعة البترولية كانوا يطلبون أيضًا بصراحة من الولايات المتحدة أن تكبح جماح إسرائيل. وفى ذلك

الحين خرجت إلى العلن الرابطة التى كانت محل شك زمنًا طويلاً بين رغبة الولايات المتحدة فى السيطرة على بترول الشرق الأوسط ودعم الولايات المتحدة لإسرائيل. وقد اكتست الأزمة مرارة إضافية بسبب فضيحة فساد ووترجيت التى كانت تشمل نيكسون.

فلم يكن هنرى كيسنجر، وزير خارجية الولايات المتحدة ومستشار نيكسون فى شئون الشرق الأوسط، يحمل أية شكوك بشأن استراتيچية الولايات المتحدة، فقد كانت مسألة تحقيق نصر إسرائيل مسألة جوهرية. ولم يكن هناك محل لكبح جماح إسرائيل. وكان هذا جزءًا مما صار معروفًا باسم مذهب نيكسون. وكما شرح كيسنجر:

«لقد أنقذت الولايات المتحدة إسرائيل من الانهيار فى نهاية أول أسبوع بفضل إمدادات الأسلحة التى قدمناها لها.. وزعم البعض أن الاستراتيچية الأمريكية كانت ترمى إلى إنتاج وضع يمتنع فيه التحرك فى حرب ١٩٧٣م. وهذا خطأ تمامًا. إذ كان المطلوب إلحاق أكبر هزيمة ممكنة بالعرب.. لقد سعينا إلى كسر الجبهة العربية المتحدة» (MERIP Report 1981)[٣].

كانت مصر، تاريخيًا، زعيمة هذه الجبهة الموحدة ضد إسرائيل. وكما لاحظ آرورى أن **الهزيمة العسكرية أتاحت فرصة لكيسنجر لكى ينتزع مصر تمامًا من معارضة إسرائيل فى مقابل مبالغ ضخمة من الدولارات الأمريكية. وصارت مصر محصورة فى فخاخ الديپلوماسية الأمريكية «بحيث صار أمام إسرائيل الوقت لتدعيم احتلالها للأراضى الفلسطينية التى تم الاستيلاء عليها بعد حرب سنة ١٩٦٧م، كما بنت قدرتها الهجومية فى مواجهة بقية الدول العربية على الجبهة الشرقية»** (Aruri 2003: 22).

مذهب نيكسون: لا حاجة إلى «اللوبى اليهودى»

تمت صياغة مذهب نيكسون ردًا على اندحار الولايات المتحدة الأمريكية فى ڤيتنام. وبطبيعة الحال كانت مصالح الولايات المتحدة فى العالم النامى ما تزال بحاجة إلى الحماية. ولكن منذ ذلك الحين سوف تستخدم **«التفويضات»** (Shlaim 2000: 309): **أى استخدام القوى الإقليمية ذات القواعد المحلية والمكرسة لحماية رؤية الولايات**

المتحدة للحالة الراهنة. وكانت إسرائيل مناسبة لهذا الدور على نحو يثير الإعجاب.

ومنذ ذلك الحين صار نيكسون أول رئيس للولايات المتحدة يقر بشكل شامل سبب وجود إسرائيل Maison d'être، وفهمها لذاتها على أنها «كلب حراسة» للقوى الغربية. وللوهلة الأولى، يبدو نيكسون، وهو جمهورى يمينى، أكثر مرشحى البيت الأبيض رفضًا لمزاعم الدولة اليهودية. وعلى أية حال، نجد أمامنا رئيسًا أمريكيًا اعتاد على التباهى بتجاهل ما يسمى اللوبى اليهودى فى أمريكا. ولم يكن يعتمد على الأصوات اليهودية بأى حال. والحقيقة، ووفقًا لرواية كيسنجر، كان نيكسون يسلِّم بأن اليهود يعادونه سياسيًا:

«كان الرئيس مقتنعًا بأن معظم قادة الجماعة اليهودية عارضوه طوال مسيرته السياسية. وكانت النسبة الصغيرة من اليهود الذين صوتوا له، موضع تندره، لدرجة أنه كان يقول إنهم مجانين ويحتمل أن يلتصقوا به حتى لو انقلب على إسرائيل. وكان يبتهج وهو يخبر مساعديه وزواره أن «اللوبى اليهودى» ليس له تأثير عليه» (Organski 1990: 25).

ويقتبس أورجانسكى، وهو عالم فى العلوم السياسية، هذه الفقرة، وفقرات أخرى مشابهة، من مذكرات كيسنجر، يستبعد فيها تمامًا تأثير «اللوبى اليهودى» على العلاقات الإسرائيلية الأمريكية. وتظهر دراساته الإمبريقية العملية [المبنية على الملاحظة] الواعية كيف أن الأصوات اليهودية والإسهامات المالية اليهودية فى الحملات الانتخابية لم تحدث سوى فرق ضئيل فى السلوك السياسى لأعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء الكونجرس على مرِّ السنين. وهو يركز الانتباه على أغلبية السياسيين الأمريكيين الذين لا يدينون للدعم اليهودى بأى دين. وهو يكتشف أنهم يدعمون إسرائيل بطريقة لا تختلف عن طريقة أولئك السياسيين الذين يمكن اعتبارهم متأثرين بالأصوات اليهودية أو بالمساهمات اليهودية فى حملاته الانتخابية. وما يهمهم هو مفهومهم لسلوك إسرائيل فى المنطقة. وهم يرون صفقة. فبخلاف المعونة لبلاد أخرى كثيرة «المساعدة الاقتصادية تُسدى بعض الخير على الأقل لشعب إسرائيل، على حين أن المعونة العسكرية تُسدى الكثير من الخير لصورة تكنولوجيا أمريكا وقوتها» (Organski 1990: 82). عنوان دراسة أورجانسكى The 36 Billion Dollar

Bargain . ويرى السياسيون الأمريكيون حزمة المعونة الأمريكية لإسرائيل ، فى المصطلح التقليدى لليبرالية الجديدة ، بأنها تساوى ما تحصل عليه أمريكا من خدمات وأنها تحقق لها مكاسب أيضًا .

سحق منظمة التحرير الفلسطينية: كيف ساندت الولايات المتحدة غزو إسرائيل لبنان فى ١٩٨٢م؟

فى بداية أوائل الثمانينيات ، كانت هيئة أركان منظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت الغربية . وكان المقاتلون الفلسطينيون المسلحون يجوبون شوارع المدينة . وكانت خدمات الرعاية الفلسطينية تحاول جلب المساعدة إلى آلاف اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون فى لبنان . وكان الأمر يبدو وكأنه دولة فلسطينية جنينية قد ظهرت فى منطقة حدود لبنان الجنوبية مع إسرائيل ، على الرغم من أنها لم تكن فى مكانها الملائم . وكانت إسرائيل تنتظر الفرصة لسحقها .

وقد اتفقت كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية على أن تدمير منظمة التحرير الفلسطينية أو على الأقل ضربها بشدة ، هو شرط مسبق لتحقيق «السلام» وفقًا للصيغة الأمريكية ـ الإسرائيلية فى الشرق الأوسط . وهنا كان التطبيق المباشر لمفهوم «الحائط الحديدى» ، الذى كان رائده اليمينى الصهيونى چابوتنسكى فى عشرينيات القرن العشرين وطبقته الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة (Shlaim 2000) . وقد كانت الولايات المتحدة آنذاك شريك إسرائيل المرحب بضرورة كسر إرادة الوطنية الفلسطينية .

وقبل الغزو الإسرائيلى مباشرة ، زار شارون واشنطن حيث زعم أنه حذر الإدارة الأمريكية ، على ما يزعم ، من أنه سيكون على إسرائيل أن «تتصرف فى لبنان» . ويكشف أعضاء فى البنتاجون عن كمية ضخمة من الإمدادات العسكرية من الولايات المتحدة إلى إسرائيل فى الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٩٨٢م ، عندما كانت إسرائيل تخطط للغزو . واستمرت عمليات تسليم السلاح هذه طوال يونيه ، وشملت ما يسمى «القنابل الذكية» التى تسببت إحداها فى التدمير الشامل لأحد المبانى لتقتل مائة شخص فى جهد واضح لقتل رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات ، الذى كان هناك ظنٌ بأنه فى المبنى (Chomsky 1999: 214) .

وأرقام المعونة الأمريكية العسكرية والمدنية لإسرائيل فى ذلك الوقت فلكية. ففى السنوات المالية من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٢م، تلقت إسرائيل ٤٨ بالمائة من مجموع المعونة العسكرية الأمريكية و٣٥ بالمائة من المعونة الاقتصادية الأمريكية على اتساع العالم. فبالنسبة لعام ١٩٨٣م، طلبت إدارة ريجان ما يقرب من ٢,٥ بليون دولار لإسرائيل من إجمالى ميزانية المعونة البالغة ٨,١ بليون دولار أمريكى. (Chomsky 1999: 10).

وقتلت إسرائيل عشرات الألوف من اللبنانيين والفلسطينيين خلال غزوها، ولم تكن إسرائيل مسلحة فقط بما قدمته الولايات المتحدة، بل إن مناحم بيجين رئيس الوزراء تباهى بأن إسرائيل كانت تجرب أسلحة سرية مصنوعة فى إسرائيل لحساب الولايات المتحدة. ومثل هذا السلاح، وفقًا لما أخبر مستمعيه فى أمريكا، قد ساعد الطائرات النفاثة الإسرائيلية على ضرب صواريخ سام ٦ وسام ٨ فى سورية دون خسارة طائرة واحدة (Washington Post, 6 August 1982).

وأخيرًا استفز غزو إسرائيل الأراضى اللبنانية دول العالم وأدانته على اتساعها فى أعقاب المذابح التى قضت على مئات من الرجال العزل، والنساء، والأطفال، على أيدى الميليشيات المسيحية اللبنانية فى معسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى صابرا وشاتيلا غرب بيروت. وقد كشف الجيش الإسرائيلى، وخاصة وزير الحرب شارون، أنهم متواطئون فى المذبحة. ولكن الولايات المتحدة نفسها لا يمكن أن تزعم أنها كانت بريئة من دم أولئك الضحايا.

وقبل مذابح صابرا وشاتيلا، كان الضغط المشترك من الولايات المتحدة وإسرائيل قد أجبر منظمة التحرير الفلسطينية على الموافقة على إخلاء غرب بيروت. وتم إرسال قوة أمريكية لحفظ السلام إلى بيروت وعهد إليها بمسئولية مزدوجة لمراقبة انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية وتأمين السكان المدنيين الباقين. ويقتبس تشومسكى البيان الصادر بهذه المناسبة:

«إن حكومتى لبنان والولايات المتحدة سوف تقدمان ضمانات مناسبة بالسلامة... وتطبيق القانون للفلسطينيين غير المقاتلين الذين تركوا فى بيروت، بما فى ذلك عائلات أولئك الذين رحلوا... وسوف تقدم الولايات المتحدة ضماناتها على أساس

التأكيدات التى تلقتها من حكومة إسرائيل وقادة بعض الجماعات اللبنانية المعنية التى كانت على اتصال بها» (389 :1999).

بيد أن حماة السلام الأمريكيين انسحبوا بعد أن ترك مقاتلو منظمة التحرير بيروت، قبل أسبوعين من انقضاء مدة التكليف الأصلى، مما أنهى فعليًا التزام الولايات المتحدة بحماية المدنيين الفلسطينيين. وبعد فترة قصيرة تمكنت قوات الدفاع الإسرائيلية من الإحاطة بمعسكرى صابرا وشاتيلا، مما وفر الغطاء للميليشيات المسيحية. وعلى حد تعبير الكاتب الإسرائيلى عاموس إلون «إن رجلاً يضع حية فى سرير طفل ويصيح: «أنا آسف، لقد نبهت على الحية ألا تلدغ... إن هذا الرجل مجرم حرب» (Chomsky 1999: 392).

اتفاقيات أوسلو
الخداع الأمريكى الإسرائيلى العظيم

الصورة الباقية لاتفاقيات أوسلو للسلام (سميت هكذا لأن أوسلو كانت موقع مباحثات «السلام» السرية بين الفلسطينيين والإسرائيليين) هى بالتأكيد صورة المصافحة الشهيرة بين رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين، وزعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، فى البيت الأبيض حيث استضافهما الرئيس كلينتون رئيس الولايات المتحدة. والقراء الذين يتذكرون لقطة التليفزيون ربما يتذكرون أيضًا تردد رابين فى مصافحة عرفات. وكونه فعل ذلك فى نهاية الأمر ساعد على تثبيت الأثر العاطفى لكل ذلك. وسوف يطلق عرفات على هذا «سلام الشجعان». وبدا أن الانتفاضة الفلسطينية، التى كانت قد اندلعت فى أواخر الثمانينيات، قد انتزعت أخيراً بعض التنازلات من إسرائيل. وتم اغتيال إسحاق رابين بعد ذلك بوقت قصير على يد متعصب يمينى، اتهمه ببيع «أرض إسرائيل». وفى تبادل غاضب اتهمت «ليأه» أرملة رابين، حزب الليكود اليمينى، البديل الرئيسى بين الأحزاب السياسية الإسرائيلية لحزب العمل، بتقديم العون الإيديولوچى لقاتل زوجها.

ومن المتناقضات أن حادثة الاغتيال أسبغت مزيدا من المصداقية على اتفاقية أوسلو. وهو ما أدى إلى انقسام الصهيونية بشكل قاتل، فقد ظهر وكأن هناك جناحًا أكثر

عقلانية وبراجماتية على استعداد لأن يعترف بالتطلعات المشروعة للشعب الفلسطيني.

وللأسف لم يكن الأمر كذلك. وشلايم - مؤلف الكتاب **The Iron Wall** الذي أوصينا به كثيرا على هذه الصفحات - شاهد مهم في هذه المسألة بشكل خاص. وشلايم مؤرخ إسرائيلي يساري، كان في وقت من الأوقات متحمسا ومؤمنا بحل إقامة دولتين على أرض فلسطين. وكان يأمل استنادا إلى الأمل في أن تكون أوسلو خطوة حقيقية إلى الأمام - أن تبرز دولة فلسطينية حقيقية لتقوم في الضفة الغربية وغزة. وعلى حد تعبيره، كان قصد إسرائيل «**أن تعيد ترسيخ الاحتلال العسكري الإسرائيلي لا أن تنهيه**» (٢٠٠٠ : ٥٢٤) واستمر لكي يلخص بشكل موجز وبارع عملية الخداع في جوهر اتفاقية أوسلو:

«**إن أسوأ ما في الأمر، هو استمرار بناء المستوطنات الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية، في انتهاك صارخ لروح إتفاقية أوسلو، بل ونصوصها. ففي قطاع غزة، التي لا يسكنها سوى خمسة آلاف يهودي، سيطرت إسرائيل على ثلث مساحة الأرض، ومعظم المصادر النادرة للمياه التي يحتاج إليها السكان البالغ عددهم مليون فلسطيني. أما في الضفة الغربية، فقد احتفظت إسرائيل بالسيطرة على موارد المياه وثلاثة أرباع الأرض. واستمر بناء المستوطنات في كافة أنحاء الضفة الغربية، ولا سيما في القدس الشرقية دونما عائق، وبدا أن هناك شبكة من الطرق الفرعية قد تم تصحيحها لإجهاض إمكانية قيام دولة فلسطينية**» (٢٠٠٠ : ٥٣٠).

تكمن في هذا، وعلى امتداد مئات حواجز الطرق التي تعوق حركة الفلسطينيين بين الضفة الغربية وغزة وإسرائيل، جذور الانتفاضة الثانية التي اندلعت في سبتمبر سنة ٢٠٠٠م. وفي الفترة ما بين أوسلو والانتفاضة، كان عدد المستوطنين اليهود في الضفة الغربية وغزة قد تضاعف ليصل إلى ما يزيد على ٤٠٠,٠٠٠. وعلى أية حال، فما يحذفه شلايم في تقريره هو التواطؤ الأمريكي العميق في هذه الخيانة. فقد كان من مصلحة الولايات المتحدة دائما أن تكون إسرائيل قوية. ولم تكن [الولايات المتحدة] جاهزة لفرض حلول وسط على حليفتها.

وربما يخطر على البال أنه بانهيار الاتحاد السوفييتي والنصر الواضح للولايات المتحدة باعتبارها القوة العظمى الوحيدة في العالم، ربما يكون اعتماد الولايات المتحدة

على إسرائيل فى رعاية مصالحها بالشرق الأوسط قد ضعف . ولكن الأمر ليس كذلك طبقًا للچنرال شلومو جازيت، الرئيس السابق للمخابرات العسكرية الإسرائيلية، وهو موظف كبير فى الإدارة العسكرية للأراضى المحتلة، والذى كان أيضا مشاركا رئيسيا فى الاجتماعات السرية التى طورت الترتيبات الأمنية لتطبيق اتفاقية أوسلو . وفقا لقول جازيت :

«إن مهمة إسرائيل الرئيسية لم تتغير على الإطلاق، وبقيت ذات أهمية حاسمة . إذ أن موقعها فى مركز الشرق العربى المسلم قد قرر دور إسرائيل حارسا مخلصا للاستقرار فى جميع البلاد المحيطة بها..... لكى تحمى أنظمة الحكم القائمة.... وتوقف عمليات التحول الراديكالى، تسد الطريق فى وجه التعصب الدينى الأصولى» (Chomsky 1996:235).

وكون أوسلو قد مثلت الإهانة لعرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية أمر لقى حفاوة كبرى فى الصحف الأمريكية . وقد وصف توماس فريد مان المراسل المحنك لجريدة نيويورك تايمز فى الشرق الأوسط، خطاب عرفات إلى رابين الذى يحمل الاعتراف بإسرائيل بأنه «ليس مجرد إقرار بالاعتراف، إنه خطاب استسلام، راية بيضاء مكتوبة على الآلة الكاتبة تخلى فيها رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عن كل موقف سياسى اتخذه ضد إسرائيل منذ تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٤» (Chomsky 1996:265) وكان احتقار الولايات المتحدة لعرفات واضحا وملموسا . وقد تم توضيحه بشكل كبير فى أوائل إدارة ريجان التى مهدت السبيل لـ «عملية السلام» . وكان جورج شولتز وزير خارجية ريجان يسخر من ياسر عرفات فى مذكراته التى تحمل عنوان Turmoil and Truimph . ويصف شولتز عرفات وهو يقفز بين الأطواق لكى يعرف فقط من هو الرئيس، بجعله ينطق ما أسماه شولتز «الكلمات السحرية» ويحكى أنه أخبر ريجان فى ديسمبر سنة ١٩٨٨م أن عرفات كان يقول فى أحد الأماكن نصف كلمة «عمى uncle» ويقول نصفها الثانى فى مكان آخر، ولكنه لم يقل بإرادته حتى الآن كلمة «عمى» كاملة فى أى مكان (*) (Chomsky 1996:28).

(*) السخرية والازدراء هنا، أنه على ياسر عرفات أن يقول لأمريكا عمى سام، تعبيراً عن الرضوخ والتنازل التام ـ المترجم.

وكان الصحفى الإسرائيلى دانى روبنشتين قد تنبأ بدقة تامة بما كان يعنيه «الحكم الذاتى» الذى كانت الولايات المتحدة وإسرائيل على استعدد لتقديمه للفلسطينيين حقا . لقد كان «حكما ذاتيا فى معسكر اعتقال للفلسطينيين، حيث يكون السجناء مستقلين فى طبخ وجباتهم دونما تدخل، وفى تنظيم الأحداث الثقافية»(Chomsky 1996:223).

وفى غضون أشهر قليلة فقط بعد معاهدة أوسلو ، كتبت الصحافة الإسرائيلية :

«خطط حكومية سرية لدمج القدس الكبرى فعليا فى أريحا ، مع مشروعات بناء ضخمة ، وخطط لمواقع سياحية على امتداد الساحل الشمالى للبحر الميت ، وحوالى ٧٠٠ مليون دولار من الاستثمارات فى الطرق الجديدة لربط المستوطنات بإسرائيل ، مارا بجوار القرى والمدن الفلسطينية . . . » (Chomsky 1996:264) .

وأغمضت الولايات المتحدة عينها . وتوطدت الروابط بين الولايات المتحدة وإسرائيل ، وبقيت المياه عاملا حاكما فى القبضة الإسرائيلية على الأرض الفلسطينية . وكان أن أحد المتخصصين البارزين فى الموضوع بإسرائيل ، وهو البروفيسور حاييم جفيتزمان ، والذى كان أيضا مستشارا لوزارة الدفاع بالولايات المتحدة ، قد وصف كيف أن نموذج الاستيطان فى الضفة الغربية قد حسم بالقدرة على الوصول إلى الماء . وقد حذر ـ فى سياق تعليقه على مصادر المياه قبل أوسلو ـ من أن أى اتفاق سلام يجب أن يضمن ٥٠٠ مليون من إجمالى ٦٠٠ مليون متر مكعب من المياه التى تؤخذ سنويا من (يهودا والسامرة) ، وهى الكلمات التى استخدمها لوصف الضفة الغربية ، دون أى شعور بالحرج . **هذه سرقة على نطاق واسع ـ ضخ المياه الفلسطينية إلى إسرائيل من المياه الجوفية المخزونة تحت الأرض المحتلة.** ومياه الضفة الغربية تكفى حوالى «ثلث الاحتياجات المائية لمواطنى إسرائيل» (للتجمعات الحضرية ، والرى ، الخ) **وكانت رؤية جفيتزمان أن «سلطات الحكم الذاتى لا يجب أن تمنح السلطة على مصادر المياه فى مناطقها»** (Chomsky 1996:210) . وحتى جريدة Financial Times أكدت الظلم البشع في هذا كله عندما عززت أوسلو هذه النماذج من الإستحواذ على المياه : «لا شىء يرمز إلى عدم المساواة فى استهلاك المياه أكثر من المروج الخضراء اليانعة وأحواض الزهورالمروية ، والحدائق المزدهرة وأحواض السباحة فى المستوطنات اليهودية بالضفة الغربية» (8 August 1995) فى الوقت الذى كانت فيه القرى الفلسطينية المجاورة محرومة من حق حفر الآبار .

كذلك كشفت مسألة اللاجئين كيف كانت اتفاقية أوسلو قد جعلت الولايات المتحدة تقبل الحل الوسط. إذ أن مسألة اللاجئين قد وضعتها أوسلو على الرف حتى ما يسمى بمحادثات الوضع النهائى. والآن صار معلوما لدى الكافة أنه لا نية إطلاقا لدى إسرائيل بالتسليم بحق اللاجئين الفلسطينيين فى العودة. وقد دعم الرئيس كلينتون هذا الموقف الإسرائيلى بتلاعبه باتفاق أوسلو على نحو معيب. ولأن المسألة سوف تكون «محل محادثات»، فقد كانت تلك الخدعة لمحاولة تقويض خمسين عاما من سياسة الأمم المتحدة فى الموضوع.

عكس كلينتون التأييد الذى أبدته الولايات المتحدة فترة طويلة على قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ الصادر فى ديسمبر ١٩٤٨م، والذى يؤكد حق اللاجئين الفلسطينيين الذين كانو قد هربوا أو طردوا خلال القتال فى العودة إلى ديارهم. وللمرة الأولى انضمت الولايات المتحدة إلى إسرائيل فى معارضة القرار الذى تم التأكيد عليه بـــ ١٢٧ صوتا مقابل اثنان.

كان القرار ١٩٢ تطبيقا مباشرا للمادة ١٣ من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، الذى تبنته الأمم المتحدة فى اليوم السابق (١٠ ديسمبر ١٩٤٨م). وتقرر المادة ١٣ أن «لكل شخص الحق فى مغادرة أى بلد ـ بما فى ذلك بلاده ـ والعودة إلى بلاده» والإعلان العالمى لحقوق الإنسان تم الاعتراف به فى محاكم الولايات المتحدة وغيرها باعتباره «قانون العرف العالمى» و«التعريف المعترف به لحقوق الإنسان».

وحجة إدارة كلينتون فى الأمم المتحدة سنة ١٩٩٣م، كانت فى أعقاب أوسلو، فإن القرارات الماضية «كانت لاغية ومبنية على ظروف تاريخية معينة». بل إن واشنطن دعت إلى إلغاء لجنة الأمم المتحدة الخاصة بالحقوق الفلسطينية، التى وصمتها بأنها «منحازة وزائدة عن الحاجة وغير ضرورية» (Chomsky 1996:219).

هل هى مؤامرة صهيونية؟
الانتفاضة الثانية، و ١١ /٩، وحرب بوش على الإرهاب

ثمة رأى شائع على نطاق واسع بأن الإدارة الجمهورية اليمينية للرئيس چورچ بوش قد طورت علاقات أوثق مع إسرائيل، مع بداية القرن الحادى والعشرين من أية حكومة

سابقة فى الولايات المتحدة . والحقيقة ، أن هناك رأيا بأنه ، بعيدا عن أن الولايات المتحدة توجه السياسة الإسرائيلية ، فإن العلاقة قد انعكست رأسا على عقب وبدأت إسرائيل توجه سياسات الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط .

ومن المؤكد أنه هناك إدراك لتأثير صهيونى قاهر فى واشنطن . وفى الكثير من أنحاء العالم الإسلامى ، كانت النظرة إلى ذلك ، تراها مؤامرة صهيونية .

والآن عبارة «مؤامرة صهيونية» عبارة عاطفية ومحملة بالتاريخ ، لا سيما فى أوروبا وأمريكا ، فهى ترجيع لصدى ذكريات اللا سامية فى كتابها الكلاسيكى المزيف الشهير «پروتوكولات حكماء صهيون ـ The protocols of the Elders Zion» (انظر الفصل ٦) ، الذى اتهم اليهود بالتآمر سرًا للسيطرة على العالم . فقط لم يكن هذا هو المقصود . وهنا كان الاتهام هو أن حكومة إسرائيلية تتآمر مع الولايات المتحدة للاستيلاء على المزيد من الأرض الفلسطينية ، وفى الوقت نفسه للإطاحة بمعظم أنظمة الحكم العربية والإسلامية فى المنطقة . وبطبيعة الحال ، إن لم تكن حريصا ، فهى تنزلق من موقف لآخر . ولأن الحكومات الإسرائيلية تزعم أنها تتحدث لصالح جميع اليهود ، ولأن الولايات المتحدة هى القوة العظمى الوحيدة فى العالم ، فإنه يمكن المجادلة من هذا المنظور ، بأن اليهود كانوا يستغلون الولايات المتحدة لإضعاف أعداء إسرائيل وزيادة قوتهم فى العالم . **أضف إلى هذا الزعم الصهيونى بأن كافة الأراضى الفلسطينية ملك لليهود** ، ويصبح لديك خليط قابل للاشتعال .

كان هذا هو السبب فى أن الترجمة العربية لپروتوكولات حكماء صهيون وجدت جمهورا .[٤] وبطبيعة الحال ، فإن الحجة فاسدة فى جوهرها مثلما كانت على الدوام . فلا يوجد ، ولم يوجد أبدا ، كتلة يهودية عالمية موحدة . وقوة إسرائيل متوقفة على قوة أمريكا ، ومن المؤكد أنها لا تعتمد على قوة يهودية عالمية متخيلة . وبالإضافة إلى هذا فثمة أقلية كبيرة ومتنامية من اليهود عبر العالم قد اشمأزت من سلوك إسرائيل . ولكى نقدم مثالا واحدا فحسب : ربع مؤيدى حركة التضامن العالمية مع الشعب الفلسطينى من اليهود وهى مجموعة إسرائيلية ـ أوروپية ـ أمريكية ـ راديكالية تدعو إلى السلام ، وقُتل أعضاء منها بأيدى الجيش الإسرائيلى لأنهم تظاهروا تأييدا للفلسطينيين فى الأراضى المحتلة .

والسؤال عما إذا كان زعماء الجماعة اليهودية حول العالم قد قاموا بما يكفى للبوح بعدم رضاهم، فهو أمر آخر، وسنناقشه فى الفصل الأخير، **أما السؤال عما إذا كانت هناك «مؤامرة صهيونية» بالمعنى الأكثر تحديدا، أى خطة أمريكية ـ إسرائيلية مشتركة، يقودها الصهاينة الملتزمون، لزيادة القوة المشتركة لإسرائيل والولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، فهو سؤال مشروع.**

***

ومن الواضح، إذن، أنه فى بداية القرن الحادى والعشرين، كان الصراع الإسرائيلى الفلسطينى قد أخذ يصير محصورا فى مناخ سياسى مختلف تماما، وأشد إزعاجا. ولكى نحصل على صورة دقيقة لما كان يحدث حقا، كنا بحاجة ـ ونحتاج الآن ـ إلى إعادة رواية الحقائق الثابتة بطريقة هادئة واضحة.

عندما صار بوش رئيسا فى يناير سنة ٢٠٠١م، كانت عملية أوسلو للسلام قد انهارت للأسباب التى شرحناها فيما سبق، وكانت الانتفاضة الثانية تشتعل. وفى غضون أسابيع قليلة فقط، كان آريل شارون قد انتخب رئيسا لوزارة إسرائيل على قاعدة الليكود فى استخدام القوة القصوى لسحق الانتفاضة. وفى وقت لاحق من السنة نفسها شن بوش حربه على الإرهاب فى أعقاب الحريق الهائل الذى صار معروفا باسم ١١ سبتمبر، عندما قتل آلاف من الأمريكيين عندما اصطدمت طائرات مخطوفة بمركز التجارة العالمى فى نيويورك والپنتاجون.

وعندما تحركت حكومة شارون لتشن هجوم إسرائيل العسكرى على الانتفاضة الفلسطينية كجزء من حرب الولايات المتحدة الأوسع ضد الإرهاب، وجدت قبولا لدى واشنطن.

والحقيقة أن أساس محاولة التنسيق فى الهجوم، الأيديولوچى والأنشطة السياسية والعسكرية لحكومة الليكود اليمينية فى إسرائيل، والإدارة الجمهورية اليمينية فى الولايات المتحدة كان قد تم إرساؤه منذ سنوات طويلة قبل ذلك.

ووفقا للصحفى بريان هويتاكر من صحيفة الجارديان، فى تحقيق لم يحظ سوى بقدر

قليل من الاهتمـام، وإن اتسم بقدر عـال من الابتكار: «لعب البولنج مع صـدام» (٢ سبتمبر ٢٠٠٢، Guardian online):

«يمكن تتبع جذورها ـ جزئيا على الأقل ـ في ورقة عنوانها «التحلل النظيف»(*)، نشرت سنة ١٩٩٦م من قبل مؤسسة فكرية إسرائيلية «هى معهد الدراسات السياسية والإستراتيجية المتقدمة». وكان المقصود أن تكون خطة على الورق لحكومة الليكود القادمة برئاسة بنيامين نتنياهو».

كانت تأمل ــ من بين أشياء أخرى ــ في انهيار أوسلو والعودة إلى طريق الصهيونية الفجة في اغتصاب الأرض دونما حياء أو خجل. وعلى حد تعبير الورقة «إن دعوانا في الأرض التى تطلعنا إليها بأمل على مدى ألفى سنة ــ دعاوى مشروعة ونبيلة»، وتستمر الورقة لتقول: « فقط القبول غير المشروط لحقوقنا من جانب العرب، لا سيما في بعدهم الإقليمى ....هو أساس صلب للمستقبل».

وتضع الورقة خطة سوف تستطيع إسرائيل بها «أن تشكل بيئتها الإستراتيجية» بدءا بإزاحة صدام حسين.

وتؤكد الورقة أنه سيكون على إسرائيل ــ لكى تنجح ــ أن تكسب تأييدا أمريكيا واسعا لهذه السياسات الجديدة، ونصحت نتنياهو بأن يصيغها في «لغة مألوفة للأمريكيين بالتأكيد على قضايا الإدارات الأمريكية أثناء الحرب الباردة والتى تنطبق على إسرائيل بشكل جيد».

وحسبما أوضح هويتاكر «للوهلة الأولى، يبدو أنه ليس هناك الكثير مما يميز ورقة «التحلل النظيف» سنة ١٩٩٦م عما تنتجه مؤسسات الفكر اليمينية وغلاة الصهيونية الآخرون. . . . سوى ما يتعلق بأسماء كتابها». فقد كان هؤلاء موظفين جمهوريين كبارا، معظمهم من اليهود، وليسوا إسرائيليين، وهم الذين باتوا يعرفون باسم المحافظين الجدد. وكان كاتب الورقة هو ريتشارد بيرل، رئيس مجلس سياسات الدفاع في البنتاجون سنة ٢٠٠٢م. كذلك كان من بين الفريق المكون من ثمانية أعضاء،

(*) من اتفاقيات أوسلو ـ المترجم.

دوجلاس فيث، وهو محام من المحافظين الجدد، سوف يتولى أحد المناصب الأربعة الرئيسية فى البنتاجون تحت رئاسة بوش كمساعد وزير للشؤون السياسية . وحسبما لاحظ هويتاكر «اعترض السيد فيث على معظم اتفاقات السلام التى عقدتها إسرائيل على مر السنين . . . . وكان يعتبر عملية أوسلو للسلام لا شيء أكثر من مجرد انسحاب أحادى يثير مسائل حياة أو موت بالنسبة للدولة اليهودية».

وهناك اثنان آخران من صناع الرأى فى الفريق هما ديفيد وورمسر وزوجته، ميراف، مؤسسة منظمة Memri الخيرية، ومركزها واشنطن وتوزع مقالات مترجمة عن الصحف العربية - ترسم كما يقول هويتاكر - صورة «العرب فى شكل سيئ». وبعد أن عمل وورمسر مع پيرل فى معهد المشروع الأمريكى، كان فى وزارة الخارجية، مساعدا خاصا لجون بولتون، مساعد الوزير للحد من التسليح والأمن الدولى، واستمر هويتاكر :

«كان هناك عضو خامس فى الفريق هو جيمس كولبرت، من المعهد اليهودى لشؤون الأمن القومى، الذى يتخذ من واشنطن قاعدة له، وهو معقل من معاقل صقور المحافظين الجدد، وكانت هيئته الاستشارية قد كلفت من قبل ديك تشينى نائب رئيس الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٢ [ومهندس رئيسى للحرب على العراق] فى وقت سابق، وجون بولتون ودوجلاس فيث . . . . . وعدد من كاتبى ورقة «التحلل النظيف» ممن يشغلون مواقع قيادية فى واشنطن فى إدارة بوش، **بخطة لإسرائيل لإعادة تشكيل الشرق الأوسط، تبدو صفقة جيدة قابلة للتحقيق اليوم أكثر مما كان الحال سنة ١٩٩٦م»**.

والحقيقة أنه منذ ذلك الوقت، فإن مايسميه هويتاكر مباراة «لعب البولنج» كانت تضرب بشكل منتظم العناوين الرئيسية، على حين لم يبذل المحافظون الجدد أية محاولة لإخفاء رغبتهم فى «تغيير النظام» فى جميع أنحاء الشرق الأوسط . ومن المؤكد أن إيران، وربما المملكة العربية السعودية، على قائمة ضربات البولنج التى ستوجهها الولايات المتحدة.

وقبل أسبوعين من نشر هويتاكر لمقالته، وقبل عدة شهور من حرب أمريكا وبريطانيا على العراق، صرح توم نيومان، المدير التنفيذى للمعهد اليهودى لشؤون الأمن القومى بالخطة، فى صحيفة واشنطن تايمز فى مصطلحات واضحة باردة :

«من المحتمل أن تنجو الأردن من الحرب القادمة بمساعدة الولايات المتحدة، وكذلك تنجو بعض مشيخات الخليج [Sheikhdoms] ومن المحتمل ألا يبقى نظام الحكم السعودى الحالى . وسوف تتم مساعدة الحركة الانشقاقية فى إيران بشكل ضخم بسقوط صدام، وسيكون على الفلسطينيين أن يعرفوا أن المستقبل سيكون مع الغرب. ومن المحتمل أن ديكتاتورية البعث بسوريا ستسقط غير مأسوف عليها ، وكذلك تتحرر لبنان. أما إسرائيل وتركيا الديموقراطيتان الوحيدتان حاليًا فى المنطقة،فستجدان نفسيهما مع جيران أفضل بكثير» (مقتبس من هويتاكر).

وهكذا، بدا أن أصحاب نظرية المؤامرة الصهيونية لهم حق . والواقع أنه فى بعض الأوقات كان يظهر وكأن آرييل شارون شخصيا يوجه سياسة البيت الأبيض . ولم يكتف بوش فقط بأنه بدأ فى تسمية شارون «رجل السلام» ، ولكن كثيرا من المعلقين- ومنهم صحفيون إسرائيليون، بل وأحد زملاء شارون فى الوزارة- كانوا مقتنعين بأن خطبة بوش التى استحوذ عليها «الإرهاب الفلسطينى» كتبها شارون فعلا[5] .

وعلى الرغم من أننى سأجادل بأن المحافظين الجدد ليسوا ناجحين كما يظن كثير من الناس فإننا مع هذا، نحتاج بالفعل إلى أن نتوقف ونعلق على استخدامهم المتغطرس الصادم للقوة . **لقد حاولوا بالفعل أن يفرضوا صيغة أشد تعصبا من الصهيونية على سياسة الولايات المتحدة - إسرائيل، لكى يحققوا الدمار الكامل والاذلال للشعب الفلسطينى. ولهم نفوذ حقيقى فى أروقة القوة العظمى الوحيدة فى العالم،وكذلك لهم نفوذ فى أقوى دولة بالشرق الأوسط. وهم يمثلون حقًا تهديداً خطيراً للعالم العربى . ولكنهم أيضا يمثلون تهديدا لليهود ؛ لأنهم يتحدثون أعلى من اللازم بصوت الصهيونية** . وتأمل حركة معاداة السامية خيالية ، تدين هذه الزمرة الشريرة من اليهود الأمريكيين مزدوجى الولاء الأثرياء الأقوياء ، والتى تتآمر للسرقة الكاملة لكل فدان أرض فى فلسطين وكل نقطة مياه فلسطينية ، ثم اسأل نفسك ما الذى لا توافق عليه فى هذا الزعم . الإجابة هى أنه لا يوجد شىء لا توافق عليه ! طبعا من المؤكد تماما أن سلوكهم المشين ليس فى صالح غالبية اليهود ، وهذا ما يسقط الاتهام بمعاداة السامية .

بيد أن هذا العامل الحاسم يمكن أن يبدو فطنة غابت أو أسىء فهمها على الأقل ، وما يعنيه هذا كله هو أن المحافظين الجدد يشكلون عاملا يسهم فى معاداة السامية فى الشرق

الأوسط وفى أجزاء أخرى من العالم، وكلما أسرعنا فى عزل زمرتهم وكسرها كلما كان ذلك أفضل.

وكما حدث، لم يجدوا أنه من السهل تطبيق مفهوم الليكود على نحو كامل. ويجب أن تتذكر أن منصب الليكود هو التخلى عن أنشطة صنع السلام الفلسطينية- الإسرائيلية يمكن أن تؤدى إلى أى حديث عن الدولة الفلسطينية.

ومع ذلك فإن چورج دبليو. بوش بدأ يتحدث عن «دولة فلسطينية قادرة على العيش». والواقع أن هذا الجزء من إستراتيچية «الأمن القومى» لدى إدارة بوش والذى يتناول إسرائيل/ فلسطين، قد صدر فى ظل ماحدث يوم ١١ سبتمبر ويبتعد بوضوح تام عن صهيونية الليكود. وبدلا من ذلك يفرط فى صياغة بلاغية كان يمكن أن تكون من نتاج قلم يكتب ورقة سياسية لكلينتون أو حتى الأمم المتحدة. ويجب أن نتذكر أن هذا كان أهم تصريح بالمقاصد من جانب الإدارة، المانيفستو الذى أصدرته ضد الإرهاب، مع تلميحات قوية لحربها الوشيكة على العراق. إلا أن اللهجة مختلفة حول إسرائيل/ فلسطين:

«لا يمكن أن يكون هناك سلام لأى من الجانبين بدون حرية لكل من الجانبين. وتبقى أمريكا على التزامها بفلسطين مستقلة وديموقراطية، تحيا بجانب إسرائيل فى سلام وأمان. ومثل جميع الشعوب الأخرى، يستحق الفلسطينيون حكومة تخدم مصالحهم وتستمع إلى أصواتهم.... فإذا ما اعتنق الفلسطينيون الديموقراطية، وحكم القانون، وواجهوا الفساد، ورفضوا الإرهاب بقوة، فإنه يمكنهم أن يعولوا على المساندة الأمريكية فى خلق دولة فلسطينية.

ولإسرائيل أيضا حصة كبيرة فى نجاح فلسطين الديموقراطية، ذلك أن الاحتلال الدائم يهدد هوية إسرائيل وديموقراطيتها. ولذا فإن الولايات المتحدة مستمرة فى تحدى الزعماء الإسرائيليين لكى يتخذو خطوات راسخة لمساندة ظهور دولة فلسطينية قابلة للحياة وحقيقية. وبما أن هناك تقدما نحو الأمن، فإن على القوات الإسرائيلية أن تنسحب تماما إلى الموقع الذى كانت فيه قبل ٢٨ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م... ويجب أن يتوقف النشاط الاستيطانى الإسرائيلى فى الأراضى المحتلة. وبما أن العنف ينحسر، فإنه يجب إعادة حرية الانتقال، بما يسمح للفلسطينيين الأبرياء باستئناف العمل والحياة العادية...» (www.white house.gov/nsc/nsall.html).

وبطبيعة الحال لم يكن هناك التزام هنا لإجبار إسرائيل على التخلى عن المستوطنات فى الضفة الغربية وغزة، دعك من أى ذكر للقدس واللاجئين . ومع هذا فمن المؤكد أن هذا لم يكن «التحلل النظيف» الذى طلبه المحافظون الجدد الليكوديون فى قلب إدارة بوش، فالحقيقة أن هذا يعود بنا القهقرى إلى النقطة التى انهارت عندها اتفاقية أوسلو بالضبط .

وعلى أية حال، فليس مذكورا أنه كان هناك اتفاق حول بعض الأهداف فى السياق الأوسع للشرق الأوسط . بيد أن نقطة البداية كانت هى مصالح الولايات المتحدة العالمية، بدلا من مصالح إسرائيل الإقليمية . وهناك واحد من المحافظين الجدد اليهود، پول ولفوفيتز، أحد واضعى استراتيچية الأمن القومى ونائب وزير دفاع الولايات المتحدة دونالد رامسفيلد فى إدارة بوش، قد رسم الخطوط العريضة لنظرة عالمية للإدارة الجمهورية، فى مقالة كتبها قبل أن يتسلم بوش مقاليد السلطة .

وبمقارنة بداية القرن الحادى والعشرين ببداية القرن العشرين، جادل ولفوفيتز بأن الصين لديها إمكانية خلق ذلك النوع من التهديد الذى مثلته ألمانيا منذ مائة عام مضت على بريطانيا . والاستنتاج الختامى : تعزيز وضع الولايات المتحدة كقوة عظمى . وأين هو المكان الذى يفوق الشرق الأوسط كبداية؟، على الأقل بسبب مصالح أمريكا فى بترول الشرق الأوسط (www.nationalinterest.org) [٦] .

كان هذا هو العامل الثانى الذى يشكل السياسة العالمية للولايات المتحدة : عزمها على السيطرة على إمداداتها البترولية، وزيادتها . وفى مايو ٢٠٠١م نشرت إدارة بوش خطتها الوطنية للطاقة، والتى أعدها فريق يرأسه ديك تشينى . وهو يدعو الحكومات فى الدول المنتجة للبترول حول العالم - وليس فى الخليج فقط - لمزيد من انفتاح صناعاتهم البترولية أمام شركات البترول الأمريكية[٧] .

كان البترول عاملا رئيسيا أدى إلى كل من الحربين اللتين قادتها الولايات المتحدة ضد العراق، فى سنة ١٩٩١ وسنة ٢٠٠٣م . وفى كل من المناسبتين تم إجبار إسرائيل فى أدب ولكن فى حزم بأن تبقى ساكنة وأن تخرس . وهذا كشف حدود دور إسرائيل باعتبارها وكيل الولايات المتحدة . وعندما صارت الولايات المتحدة متورطة عسكريا بصورة مباشرة، صارت طموحات إسرائيل الأكثر توحشا نوعا من الإحراج .

نعم، كان هناك دونما شك فرخ ليكودى فى عش بوش . ولكن هل كان يسيطر على العش؟

فى أوائل سنة ٢٠٠٣م، نشرت إدارة بوش خطة «خارطة الطريق» التى وضعتها لتحقيق السلام الإسرائيلى ـ الفلسطينى . وكان هذا التعبير العملياتى لإستراتيچية الأمن القومى . وكشف استقبالها فى أمريكا عن أوجه القوة وأوجه القصور فى الخطة الرئيسية لليكود .

وأحد جوانب القوة المباشرة فى خطة الليكود، هو تكاثر مراكز الفكر الصهيونى المتشدد التى تحظى بتمويل جيد . وقد استكشف هويتاكر هذا فى مقالة منفصلة بصحيفة الجارديان عنوانها «US Think Tanks Give Lessons in Foreign Policy» (19 August 2002, Guardian on line) (19) [٨] وقد نجح تمامًا أيديولوچيوها فى الحصول على عمود فى الصفحة المواجهة لصفحة الرأى فى الصحف الرئيسية بالولايات المتحدة . ومن المؤكد أنه فى صيف سنة ٢٠٠٣م بدا أنهم كانوا قد حققوا نصرا مهيبًا، وهو السيطرة على أعمدة الرأى فى Wall Street Journal .

وفى يونيو سنة ٢٠٠٣، كان كتاب الأعمدة هؤلاء قد أصيبوا بداء السكوت عندما انتقد بوش شارون لمحاولته اغتيال عبد العزيز الرنتيسى، أحد القادة السياسيين لحركة حماس الإسلامية. فقد كانت محاولة وقحة لإغراق «خارطة الطريق» ، وكان ذلك واضحا لأن حماس كانت تشير على مدى عدة شهور إلى استعدادها للتفكير فى وقف إطلاق النار . وكان السؤال الوحيد هو ما إذا كان يجب إغراق «خارطة الطريق».

وقد أعطى الوول ستريت جورنال مساحة لروث ويسى ، الأستاذة فى جامعة هارڤارد لتشرح بعض الحقائق الموجودة فى الداخل للرئيس بوش :

« ما يزال البيت الأبيض يميل إلى التعامل مع الأزمة الإقليمية باعتبارها «صراعا بين شعبين على أرض واحدة» ويمكن حلها بخلق دولة فلسطينية . . . ومن سوء الحظ، فإن الحرب العربية ضد إسرائيل ليست صراعا إقليميا بدرجة أكبر مما هو الحال فى ضربات القاعدة ضد أمريكا، ولا يمكن حلها بخارطة الطريق مثلما لا يمكن وقف نزعة معاداة أمريكا بالتنازل عن جزء من الولايات المتحدة لتتحول إلى مقاطعة إسلامية» (Jews and Anti-Jews, 16 June 2003) .

لقد كنا آنذاك خاضعين لما كان يمكن وصفه بأنه صخب أو تيار من الوعى - سوف نعفى القارئ منه - يختص برؤيتها عن اللاسامية العميقة على الطريقة النازية التى تسبب الآن الحزن للعالم العربى والإسلامى بأسره . ومع ذلك فإن ويسى كانت نموذجا لضبط النفس مقارنة بكاتبة العمود التى جاءت بعدها بأيام قلائل . وهى سينثيا أوزيك وهى روائية ، ومن الواضح أنها عرَّفت جريمة فلسطين الحقيقية : لقد اعتبروا أنفسهم أمة :

«لكى يحرموا اليهود من ميراثهم ، اصطنع الفلسطينيون رواية متعصبة غريبة عما هو معروف وشائع . . . فيزعمون أنهم أحفاد حضارات عاشت على هذه الأرض منذ العصر الحجرى . . . وبإحلال الخيال محل التاريخ ، اخترع الفلسطيبون مجتمعا لا يشبه أى مجتمع آخر ، حيث الكراهية تبز الخبز وتتفوق عليه . وقد ربوا الأطفال - خلافا لأى أطفال آخرين - وأبعدوهم عن السلوك والقواعد المعتادة . . . [وجندوهم] لتفجير أنفسهم بهدف القضاء على أكبر عدد ممكن من اليهود . . . ونحن الآن نعيش مع اللا تاريخ ، حيث ينعكس السبب والتأثير ، فالحماية ضد الهجمات تتساوى مع وحشية الهجمات ، ومسائل الوجود قد حُطَّ من شأنها أو تم تجاهلها ؛ والتعتيم على دائرة العنف تتبناه وزارة الخارجية بحماسة ، هى والاتحاد الأوروبى (When Hate Trumps Bread. 30 June 2003).

فقط فى حال أن فصاحة أوزيك عبرت فوق رأس القارئ ، يجب أن نشرح أن ملاحظاتها الخاصة بدائرة العنف والحماية ضد الهجمات الخ ، كانت عن انضمامها إلى الغضب العام ؛ لأن شارون مُنع الإذن باغتيال الرنتيسى .

وعلى أية حال ، فإن مجانين الليكود يتلهون باللعب على صفحات بعض صحف الولايات المتحدة وأعمدتها فقط ، لقد كانوا قد وطدوا أنفسهم - دونما كفاءة كما سنرى - فى ساحة أكثر خطورة وتهديدا من ساحات السياسة الأمريكية .

***

فى وقت الكتابة - صيف سنة ٢٠٠٣م - كان مصير خارطة الطريق أبعد ما يكون عن الوضوح[٩] . ولكن رئاسة بوش نفسها كانت فى ورطة بقدر ما كان الأمريكيون يتساءلون لماذا جرَّ البلاد إلى الحرب مع العراق . وعلى الرغم من الانتصار فى إسقاط حكم صدام ، كان المزيد والمزيد من جنود الولايات المتحدة يقتلون عندما تحولت الحرب

التى تقودها الولايات المتحدة إلى احتلال غير مرغوب فيه تقوده الولايات المتحدة للبلاد. وكان مطلب «أعيدو الأولاد إلى الوطن» قد بدأ ينمو. وكما فى بريطانيا، كان عامة الأمريكيين أيضا يعبرون عن عدم ثقة متزايدة حول السبب الرئيسى الذى قدمته كل من الحكومتين لشن الحرب: أن العراق كان يمتلك أسلحة الدمار الشامل. ولكن لم يمكن العثور على أسلحة دمار شامل. والأخطر من وجهة نظر كل من الحكومتين، كانت الشكوك المتزايدة حول «المخابرات» المريبة التى صنعت المزاعم حول أسلحة الدمار الشامل أولا. **وفى الولايات المتحدة كان هناك إمكانية لتوبيخ قابل للانفجار يختمر حول مزاعم المخابرات، قد انبثق من وحدة المخابرات «البديلة» «مكتب الخطط الخاصة» الذى أنشأه رامسفيلد فى البنتاجون. ومن اللافت للنظر، أن مكتب الخطط الخاصة كان مرتبطًا مع وحدة مخابرات «بديلة» تدار مباشرة من مكتب شارون فى إسرائيل!** وكانت هذه وحدات «بديلة» بمعنى أن منظمات المخابرات القائمة، مثل وكالة المخابرات المركزية C I A فى الولايات المتحدة، والموساد فى إسرائيل، كانتا تعتبران غير قادرتين على تقديم «المعلومات المخابراتية» عن العراق، والتى كانت الحكومتان تحتاج إليها. وكان المنسق هو الجمهورى الليكودى دوجلاس فيث الموظف الأمريكى الذى أشرنا إليه سابقا (انظر التحقيق الخاص الذى قام به جوليان بورجر فى صحيفة الجارديان ١٧ يوليو ٢٠٠٣).

وما إذا كان بوش سينجو من الأزمة التى تزداد عمقا ليس هو الموضوع. فقد كانت الحجة هى أن، على الرغم من الروابط الوثقى التى تربط بين الإدارة وشارون فى إسرائيل، وعلى الرغم من الكثير من البلاغة الأكثر وحشية، وكذلك مضحكات ألاعيب المؤامرات الليكودية، فإن سياسة الولايات المتحدة الخاصة والمحددة بشأن إسرائيل/ فلسطين بقيت متسقة مع حكومات الولايات المتحدة السابقة بشكل لافت للنظر.

وليس معنى هذا أن الفلسطينيين يمكن أن يحصلوا على الراحة من ذلك. وإذا لم تكن خارطة الطريق أكثر من خارطة لطريق يؤدى إلى العودة للنقطة التى انهارت عندها أوسلو، كما اقترحنا من قبل، إذن فإن أيا من المشكلات الحقيقية - المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية وغزة، ووضع القدس وحق العودة للاجئين - لن يتم تناولها.

الفصل العاشر

«نحن» اليهود «هم» العرب (٢): التعايش اليهودى العربى المفقود والبحث عن شعلة الأمل من الماضى

فى غضون سنوات قليلة فقط من ظهور دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وصل التاريخ الطويل غير المتقطع على ألفى سنة وخمسمائة سنة لليهود فى الأراضى التى كانت قد صارت تعرف بأنها عربية وإسلامية إلى نهايته. ففى سنة ١٩٤٨ كان هناك حوالى ثمانمائة ألف يهودى يعيشون فى البلاد العربية (حوالى ٦ بالمائة من إجمالى عدد اليهود بالعالم). وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة كان معظم هؤلاء اليهود قد غادروها.

وسوف يجادل هذا الفصل بأنه بينما كانت الصهيونية نفسها العامل الرئيسى الذى يفسر هذا الاستقطاب العرقى غير الضرورى والمأساوى حقا بين العرب واليهود، كان يقع اللوم أيضا على تدخل الإمبريالية الأوروبية فى الشرق الأوسط على نطاق واسع. وهذا يعنى النظر ـ بإيجاز ـ إلى كيفية تصعيد أوروبا القرن التاسع عشر التوترات الدينية فى الشرق الأوسط. ويعنى أيضا النظر ـ وبإيجاز شديد مرة أخرى ـ إلى الكيفية التى زادت بها أوروبا القرن العشرين من حدة الاستقطاب بين العرب واليهود، فى غمرة أزمتها الإمبريالية، والتى أدت إلى نازية هتلر وشيوعية ستالين. والتواريخ المختصرة للصراعات التى خاضها العرب من أجل الاستقلال الوطنى فى العراق ومصر، تقدم دراسات حالة لاستكشاف كيف برزت هذه الضغوط المختلفة بنفسها.

وستكون المجادلة بأن سياسات القرن العشرين قد خذلت كلاً من العرب واليهود. ويختتم الفصل بتأمل بعض الأصوات غير العادية الساعية إلى مصالحة بين العرب واليهود فى القرن الحادى والعشرين.

وهناك باحثان صهيونيان، برنارد لويس ونورمان ستيلمان، برهنا على أنهما من

المصادر المفيدة نوعًا ما. والجدل معهما هنا لن يكون على أساس أن الأدلة التى يقدمانها منحازة؛ وإنما على أساس أنها أحادية أكثر من اللازم. ومع هذا، وعلى الرغم منهما، فإنهما يساعدان فى توفير حجج قوية فى قضية لم يكن قصدهما أن يوفراها .

الإمبريالية الأوروبية «أدانت الجماعات اليهودية» فى البلاد العربية

كانت الدعاية الصهيونية ستجعلنا نصدق أن اليهود فى البلا د العربية عانوا تحت الحكم العربى الإسلامى نفس القدر من السوء الذى عانوه تحت الحكم المسيحى الأوروبى، ولكننا نرى من تحليل جويتين الممتاز لأوراق الجنيزا القاهرية فى العصور الوسطى، والتى ناقشناها فى الفصل الرابع، أن هذه لم تكن هى الحال. وحتى برنارد لويس الذى كان حكمه على التاريخ العربى الحديث قد تم تسفيهه بوصفه صهيونيا ومستشرقا على يد إدوارد سعيد (الفصل الخامس) يسلم راضخًا فى كتابه Jews of Islam بأن أحكام «أهل الذمة» التى كانت تطبق على الرعايا غير المسلمين تحت الحكم الإسلامى لم تكن تطبق فى أغلب الأحيان، ويكتب لويس أن «الصداقات الشخصية، وشركات الأعمال، والتلمذة الفكرية، وغيرها من أشكال النشاط المشترك، كانت عادية، بل كانت شائعة وعامة فى الحقيقة» (٥٦ : ١٩٨٤) والحقيقة أنه يمضى أكثر من ذلك :

«إن التعايش بين العرب واليهود فى العصور الوسطى أقرب ما يكون إلى نموذج أوروبا الغربية وأمريكا فى العصر الحديث، وكان مختلفا تمام الاختلاف عن الموقف فى الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الروسية. وحسبما أوضح البروفيسور جويتين، أنتج هذا التعايش شيئا لم يكن مجرد ثقافة يهودية باللغة العربية . لقد كانت ثقافة يهودية ـ عربية، أو ربما يقول المرء بأنها ثقافة يهودية إسلامية» (١٩٨٤: ٧٧).

فى فترات الضغط السياسى، وعندما كان العالم الإسلامى عرضة للتهديد كان يتم التشديد فى أحكام أهل الذمة، ومن المؤكد أنه كان يمكن أن تتطور العداوة تجاه الذميين. فهناك يهودى بريطانى «منفى» من الأراضى العربية، اسمه لوسيان جوباى، يرصد ازدواجية هذه التجربة اليهودية فى العالم الإسلامى بعنوان كتابه الموحى

(Sunlight and Shadow (Gubbay 1999، (ونحن نتساءل ما إذا كان مسلمو بريطانيا وبعض الأقليات العرقية الأخرى سيكونون بمثل هذا الكرم إزاء تجربتهم فى تقلبات أحوال العنصرية، لأعلى ولأسفل، فى بريطانيا المستنيرة الحديثة).

ومن سوء الحظ أن لويس لا يخبرنا سوى عن «الظل» الذى يخيم على العلاقات الإسلامية ـ اليهودية فى الفترة الحديثة.

والصهيونية أيضا لا ترى سوى «الظلال»، وزعمت لنفسها دور المنقذ لهؤلاء اليهود من البلاد العربية والإسلامية، التى أجبروا على الفرار منها حسب زعم الصهاينة، وهذا قلب يثير السخرية للأسباب والنتائج. إذ كانت الصهيونية نفسها عاملا رئيسيا فى تقويض وضع اليهود فى البلاد العربية والإسلامية. وعلى حد تعبير نورمان ستيلمان فى كتابه The jews of Arab Lands in Modern Times وهو أكثر المصادر مرجعية بالنسبة للدراسات اليهودية عن هذه المسائل:

«بحلول أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، كانت التوترات بين اليهود والسكان المحيطين تتصاعد فى كل مكان بالعالم العربى. وفى أثناء العامين الأخيرين قبل الحرب العالمية الثانية، كان ثمة تدفق فى الحوادث التخريبية تستهدف الممتلكات اليهودية الخاصة والعامة فى العراق، وسوريا، ولبنان، وللمرة الأولى فى مصر. وكان العامل الأول هو الصراع فى فلسطين، الذى تحول فيما بعد بين سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٣٩ إلى تمرد صريح ضد الانتداب البريطانى والمشروع الصهيونى» (١٢-١١١ : ١٩٩١).

وتكمن أهمية هذا المنظور فى أنه يجعلنا نتساءل عن الشائعة الصهيونية الكاذبة «اللاسامية العربية». فلم تكن للتوترات بين العرب واليهود أى علاقة باللاسامية فى الاستخدام الأوروبى للمصطلح.

وقد زادت هذه التوترات فى تناسب مباشر مع نمو المستعمرة الصهيونية، التى كان ينظر إليها على أنها رأس جسر لنفس الإمبراطورية البريطانية يسبب استفزازا مطرداً، وهى الإمبراطورية التى كانت تسيطر هى والإمبراطورية الفرنسية على الأراضى العربية فى كل مكان وعلى الشعب العربى. وقد فاقمت الحركة الصهيونية الشكوك والريبة، التى كانت تتزايد بالفعل، فى ولاء اليهود بالبلاد العربية لقضايا

التحرر العربى. فاليهود والأقليات غير المسلمة، مثل المسيحيين كان يمكن أن يظهروا بمظهر المستفيدين من الحكم الأجنبى:

«فى نفس الوقت الذى كان اليهود والمسيحيون فى معظم أرجاء العالم العربى يمرون بتجربة شعور متصاعد بالتحرر من القيود والعجز الذى ميز الماضى، متزاوجًا مع الآفاق المتسعة للفرص، كانت الأغلبية المسلمة - باستثناء النخبة المتمدينة - تشعر باطراد أنها فى موقف الدفاع، وأن تقاليدها، ونظامها الإجتماعى، واستقلالها نفسه فى خطر. ونفس القوى التى كانت تمثل الجانب الطيب والخير بالنسبة لمعظم اليهود والمسيحيين كان ينظر إليها من جانب المسلمين نظرة عكسية. كما أن التفاؤل الناشئ لدى الأقليات كان يتناقض بشكل ملحوظ مع التشاؤم والريبة التى حكمت الأغلبية». (Stillman 1991:45).

وحتى لويس جاء أكثر وضوحًا بقوله «إن الحكم الإمبريالى بدأ عصرًا جديدًا من التقدم التعليمى والازدهار المادى لدى اليهود. بل إنه أكد المصير النهائى لهذه الجماعات» (Lewis 1984:172-3).

ومن سوء الحظ أن البحث العلمى لكل من ستيلمان ولويس محدود بدعمهما للمشروع الصهيونيى. وكتاب ستيلمان يدور أساسا حول التحرش المتزايد بالأقليات اليهودية فى سياق الاضطهاد الذى وصفه بدقة. ونادرًا مايتناول الجهود التى بذلها الراديكاليون العرب واليهود فى البلاد العربية، والتى صممت على إيجاد قضية مشتركة فى النضال من أجل التحرر العربى والذين وجدوا جمهورا مهما داخل الجماعات اليهودية. وشجاعة القيادات التقليدية للجماعات اليهودية، التى ناضلت لكى تتمسك بالصمود فى مواجهة انتهاكات الصهيونية، لا تحظى سوى بقدر قليل للغاية من الاهتمام. ومع هذا فإنه أثار نقطة حاسمة تماما حول القوى الأوروبية الاستعمارية التى كافحت لكى تفصل الأقليات غير المسلمة فى بلاد الشرق الأوسط عن المسلمين. ويتطلب هذا المزيد من التوسع فى التوضيح.

وها هو السير نيڤيل هندرسون المندوب السامى البريطانى فى مصر سنة ١٩٢٦م يقول:

«إن قدراً قليلاً من كراهية الأجانب ليس شيئًا سيئًا بحد ذاته، لأنه يدفع بالأجنبى إلى أن يتهيئ بقدر أكبر لاعتبار السيطرة البريطانية والنفوذ البريطانى ضمانه الوحيد...هذا هو بالتأكيد الوضع المثالى:

إنه ينبغى على المصرى أن يعتبرنا أصدقاء له وحماية ضد الأجنبى الغاصب، وأن يعتبرنا الأجنبى ضمانه الوحيد ضد الظلم والتفرقة من جانب المتعصب المصرى» . (kramer1989:232).

لاحظ كيف تم تعريف اليهودى فى مصر على أنه «أجنبى» وحقا كان معظم يهود مصر مهاجرين وفدوا حديثا، بيد أنه لم يكن لبريطانيا أى مصلحة مطلقا فى رؤية هؤلاء المهاجرين، أو الأقلية اليهودية المستوطنة التى تفخر بجذورها العميقة فى مصر[١] ، تندمج فى الأمة المصرية العربية، البازغة حديثا، والتى يحتمل أن تشكل تهديدا.

وفى كل مكان حكم البريطانيون والفرنسيون فيه بالشرق الأوسط، عمدوا إلى توسيع الفجوة بين الأقليات الدينية من اليهود والمسيحيين والأغلبية المسلمة . وكان هذا قد بدأ كوسيلة سياسية لتقويض الإمبراطورية العثمانية بتقديم أشكال مختلفة من «الحماية». ثم حول منح المواطنة بعض اليهود والمسيحيين إلى وكلاء مباشرين للسلطات الاستعمارية البريطانية والفرنسية بعد أن حلوا محل العثمانيين[*]. ففى الجزائر، على الرغم من كونها مثالا استثنائيا، وحيث سيطرت فرنسا منذ سنة ١٨٣٠م، كان كل يهود الجزائر قد صاروا مواطنين فرنسيين بحلول سنة ١٨٧٠م (Stillman 1991:17). وفى مصر، حاولت فرنسا تقويض سلطة بريطانيا بتقديم منح المواطنة الفرنسية . أما البلاد الأوروبية الأخرى، مثل إيطاليا، فكانت تلعب نفس اللعبة هى الأخرى . وفيما بين الحربين، كان ما يزيد عن ربع يهود مصر إما يحملون جنسية أجنبية أو تحت «الحماية» الأجنبية.(Kramer 1989:31-2).

وقد تركت المؤسسات التعليمية المسيحية واليهودية الأوروبية أثرا مشابها بتوفير التعليم الحديث (باللغات الأوروبية)، مما جهز الأقليات غير المسلمة بنصيب لا يتناسب

(*) هل تتكرر نفس السياسة الآن فى مصر ولبنان والعراق؟ وهل بقية دول الشرق الأوسط فى الطريق- المترجم.

مع عددها من المهارات المهنية الحديثة . وفيما بين اليهود، كانت مدرسة Alliance Israelite Universelle التى تتخذ من پاريس قاعدة لها ناجحة بدرجة هائلة . وحتمًا، كانت أنشطتها «قد أعيد تنظيمها بسرعة فى الدوائر الرسمية باعتبارها امتدادا مهما لما رأوا فيه مهمة فرنسا الثقافية» (Lewis 1984:162) . وفى الدولة الجديدة التى أنشأها الاستعمار فى العراق، رحب الموظفون البريطانيون بتوسع الأنشطة التجارية للطبقة التجارية اليهودية العربية القديمة . وكتبوا تقارير عن تواءمهم السريع والمميز مع الفرص التجارية المتزايدة بالبلاد، ولاحظ المندوب البريطانى المدنى فى سنة ١٩١٨م «إن العناصر التى نحتاج إلى تشجيعها أكثر من غيرها هى الجماعة اليهودية فى بغداد» ويقتبس حنا بطاطو من هذا المندوب الذى كان يخدم الإمبراطورية البريطانية فى كتابه The Old Social Classes and the Revolutionary Movements in Iraq والذى يعد واحدا من أهم الكتب فى تاريخ الصراع من أجل استقلال العراق (1978:244 - 6,311) .

وفى الوقت نفسه، عندما تعمقت أزمة أوروپا القرن العشرين الأيديولوچية والسياسية، صارت بالحتم متداخلة مع المقاومة العربية القومية والإسلامية النامية ضد السيطرة الاستعمارية البريطانية والفرنسية على أراضيهم . وكما ذكرنا، كان هناك استيراد لنزعة معاداة السامية الأوروپية . وعلى الرغم من هذا لا يجب النظر بالضرورة إلى تأييد ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية فى هذا الضوء . فقد كانت المسألة مسألة مساندة عدو عدوى باعتباره صديقى، وارتبطت أحيانا باعتقاد ساذج ، وفى بعض الأحيان بلاهة واضحة، فى صدق عروض هتلر - التى تدعو للسخرية - للأمة العربية المقهورة . وكانت البرقية التى أرسلها فاروق ملك مصر إلى هتلر سنة ١٩٤١م، حالة دالة فى الموضوع ، إذ كان يتطلع إلى وصول الجيش الألمانى «الذى سيحررنا من النير الإنجليزى القاسى الذى لايحتمل» (kramer 1989:125) أما القوميون العرب الأكثر إدراكا، فلا بد أنهم عرفو أن الفوهرر الألمانى خاطب جيشه سنة ١٩٣٩ بقوله «سوف نستمر فى إثارة الاضطراب فى جزيرة العرب. . . ولنفكر باعتبارنا السادة ولنر فى هؤلاء الناس أنصاف قرود خدم يريدون أن يشعرو بلسعة السوط » (Kramer 1989:262n.122) .

وفى الوقت نفسه كان الجناح اليسارى من حركات المقاومة العربية قد اكتشف أن

الترحيب الحماسى بالماركسية أيضا كان يعنى فى العادة تأييد ستالين والاتحاد السوفييتى، وسوف يبرهن هذا على كونه انقساما كارثيا . ذلك أن تأييد ستالين والأحزاب الشيوعية العربية لخلق دولة إسرائيل، قد قوى من حجة القوميين العرب والإسلاميين اليمينيين الذين جادلوا بأن اليهودية والصهيونية والشيوعية، كلها فى الأساس شىء واحد.

وأية دراسة لتاريخ العراق خلال هذه السنوات، توضح كيف ستلعب هذه الضغوط المركبة دورها وتسىء إلى العلاقات بين اليهود والمجتمع الأوسع، وهو ما كانت الصهيونية فى ذلك الحين قادرة على استغلاله . وقد استفادت الصهيونية بشكل خاص من الاستياء الشعبى المتصاعد، ورفض سيطرة بريطانيا على العراق.

اليهود والنضال من أجل تحرير العراق

فى سنة ١٩٢٠م، كان تقدير الإدارة البريطانية لإجمالى سكان العراق حوالى مليون وثلاثة أرباع مليون، ومنهم حوالى مائة ألف يهودى. وكانت غالبية اليهود تعيش فى بغداد والبصرة (Shiblak 1986:18)[٢] وكانت الجماعة اليهودية فى العراق هى الأقدم فى العالم العربى والإسلامى وتفخر بشدة بجذورها الممتدة إلى بابل فى بلاد ما بين النهرين قديما، ولم تكن تتقبل دعوات الصهيونية.

وفى سنة ١٩٢٢م، كان مناحم صالح دانيال، وهو من أعيان بغداد البارزين من عائلة يهودية قديمة، وصار فيما بعد نائبا بالبرلمان العراقى، قد كتب فى أدب ولكن فى حزم، يطلب من الصهاينة أن يبقوا خارج العراق :

«فى كل البلاد العربية تعتبر الحركة الصهيونية تهديداً للحياة الوطنية العربية. . . وأى تعاطف مع الحركة الصهيونية ينظر له على أنه خيانة للقضية العربية.

. . . ولاشك فى أن اليهود يتمتعون حقا بمكانة محترمة. فهم يشكلون ثلث سكان العاصمة، ويعملون فى النصيب الأكبر من تجارة البلاد، ويقدمون مستوى من التعليم أعلى من المسلمين . ويعتبر اليهودى فى نظر المسلم الناهض شخصا ذا حظ جيد، ينتظر منه أن يرد الجميل للبلد الذى يعيش فيه» (Rejwan 1989:207).

وبعض اليهود العراقيين سوف يقدمون إسهامهم فى نهضة الأمة العراقية. فأول

قصة قصيرة عراقية حديثة فى فترة ما بين الحربين، كتبها يهودى هو مراد ميخائيل، وكانت تحمل عنوان «شهيد الوطن وشهيدة الحب» وكان ميخائيل واحداً من الجيل الأول من الكتاب اليهود العراقيين الذين رأوا فى أنفسهم «وطنيين عراقيين كانو يأملون بشغف فى ظهور عراق جديد، دولة مفتوحة وديموقراطية حديثة». (Somekh 1989:14). وفى هذه الفترة كان ما يقرب من ثلث كبار الموسيقيين العراقيين من اليهود (Shiblac1986:28)..

وكان أنور شاؤول كاتبا من هذا الجيل ولد فى الحلة جنوب العراق. وكان يكتب الشعر والرواية وقام بعدة ترجمات. وفى سنة ١٩٢٩م أصدر صحيفة ثقافية هى «الحصيد»، إحدى عدة صحف وجرائد أسسها الكتاب اليهود، قدمت كتابا جدد من اليهود وغير اليهود على السواء. وتم انتخاب شاؤول ـ الذى كان يحظى بتقدير كبير من رفاقه الكتاب المسلمين والمسيحيين ـ فى سنة ١٩٣٢م فى اللجنة التى رحبت بالشاعر الهندى ذى الشهرة العالمية تاجور فى بغداد.

وتحتفى السيرة الذاتية التى كتبها شاؤول بالحلة، وهى مكان يعرفه فى فخر بأنه جزء من بابل القديمة على نهرالفرات . ويكتب عن شجرة عائلته اليهودية العراقية الشهيرة عائلة ساسون، ولكنه يصف رأس العائلة بأنه الشيخ ساسون، متعمدا أن يربط شيئا خاصًا وحساسًا مثل السلطة فى العائلة بالمفاهيم الثقافية العربية الإسلامية. وكانت أمه بالرضاعة مسلمة أرضعته مع ابنها. وكان الأخوان فى الرضاعة قد التقوا مرة أخرى لقاء عاطفيا فى سن النضج ببغداد. (Somekh 1989:18).

التهديد: الفرهود وهزيمة الوثبة

قوضت الحرب العالمية الثانية، وتصميم بريطانيا على جر العراق إليها ضد رغبته، مجهودات الزعماء اليهود الذين كانوا يسعون إلى دمج الجماعة اليهودية فى الحركة من أجل الاستقلال الوطنى العراقى. حرضت السياسة العسكرية البريطانية سنة ١٩٤١م إلى أقصى حد أعمال الشغب المنحوسة ضد اليهود، والتى سميت أحيانا الفرهود، والتى خلفت مئات من الموتى.

ذلك أن الدعم الملموس من جانب اليهود للمجهود الحربى البريطانى، وعودة

ظهور الجيش البريطانى فى العراق، يبدو أنه كان سببا فى أعمال الشغب، على الرغم من أنه لا توجد رواية مرضيه عنه . يشير ستيلمان إلى دور بريطانى كاذب، ما يزال بحاجة إلى تحقيق، وكذلك انتشار الدعاية النازية الصريحة . (1999:119,413-16)

وربما كان الدعم الذى قدمه الجيران المسلمون لليهود فى الأماكن التى اختلطوا فيها ببعضهم البعض، والموقف التقدمى الذى تبناه الزعيم الروحى للمسلمين الشيعة فى بغداد، قد ساعد على تهدئة أعصاب يهود العراق(Rejwan 1989:223-4) . كان الصهاينة قادرين على رصد بعض المكاسب قصيرة المدى (Shiblak 1986:54) على الرغم من أنه ليس هناك شك فى أن الفرهود كانت صدمة وخلفت جرحا عميقا .

أما الوثبة «أقوى عصيان مسلح فى تاريخ الملكية» (Batatu 1978:545) والذى نشب فى أعقاب الحرب مباشرة، فكان يهدف جزئيا إلى استمرار التورط البريطانى فى البلاد. وكان لها إمكانية تضميد الجراح التى سببتها «الفرهود». وقد أثارت الوثبة البلاد عن بكرة أبيها، بما فى ذلك الكثيرين من مواطنيها اليهود . ولكن ما حققته الوثبة من مكاسب، تمت مقايضتها بهزيمة العرب فى الحرب ضد الصهيونية فى فلسطين عام ١٩٤٨، وبسلوك الحزب الشيوعى العراقى .

وأثناء أحداث «الوثبة» حتى الحركة السرية الصهيونية اضطرت أن تعترف بأنها كانت«فترة إخاء» عندما كانت فكرة الهجرة إلى الدولة اليهودية فى فلسطين «تبدو بعيدة للغاية» (Shiblak 1986:55).

وتعكس السلوكيات الغريبة لحزب الاستقلال العراقى القومى اليمينى المواقف السياسية المتبدلة تجاه اليهود فى ذلك الوقت. فعندما قتل شاب يهودى، هو شمران علوان على أيدى البوليس خلال «الوثبة»، وصفته صحيفة اليقظة التى كانت تؤيد حزب الاستقلال بأنه شهيد الشعب العراقى فى حربه من أجل الحرية (٥ فبراير ١٩٤٨م)، وأثناء الشهرين التاليين كثيرا ما نشرت اليقظة أسماء المساهمين اليهود فى المجهود الحربى العربى بفلسطين (Shiblak 1986: 55-6) ومع ذلك فبعد ثلاثة أشهر بالضبط (٣ مايو ١٩٤٨) كانت اليقظة تدين الشرور الثلاثة« الشيوعيين والصهاينة واليهود» (Shiblak 1986:65) لقد قلبت حرب فلسطين الموازين. ومنحت السلطات العراقية العذر لفرض قانون الطوارئ والتحمل بشدة على الجناح الراديكالى فى الوثبة

وخاصة الشيوعيين. وتم إعدام ثلاثة من زعمائهم علنا بالشنق. وقد سلم الشيوعيون أنفسهم سلاحًا دعائيا لليمين بتأييدهم دولة إسرائيل المُشكّلَة حديثًا. وقد خسروا نفوذا حقيقيا، وربما حاسما، فى توجيه حركة الاستقلال. كان الضامن المحتمل فى الحركة الوطنية العراقية لمقاومة اللاسامية قد فشل فى اختبار بالغ الأهمية: وهو معارضة الصهيونية دونما تنازل:

«أدى القرار بشكل محزن إلى الحط من شأن الشيوعيين فى أعين الجماهير الشعبية، وعمقت الفجوة بينهم وبين الوطنيين من كل طيف، وجلبت الفوضى الرهيبة داخل صفوف الحزب نفسه» (Batatu 1978:566)

وفى الوقت نفسه، دخل حزب الاستقلال فى الحكومة.

وحان وقت استغلال اللاسامية، كما حدث فى أوروبا، كآلية للسيطرة الاجتماعية، وسحق المعارضة وتحويل الانتباه بعيدا عن فشل الحكومة. إذ أن انتصار إسرائيل فى حرب ١٩٤٨م قد بين الإحساس الخطر بالفشل. وتم طرد اليهود من الوظائف الحكومية. وتم شنق رجل أعمال يهودى ثرى علنا بزعم أنه باع مخلفات الجيش البريطانى لإسرائيل. وتم القبض على الصهاينة العراقيين. كما أن العصبة المناهضة للصهيونية، وجريدتهم اليومية«العصبة» والتى كانت فعالةجدا فى تهميش نفوذ الصهاينة فى الجماعة اليهودية، قد أغلقت وتم القبض على زعمائها واتهموا بكل من الشيوعية والصهيونية! وقد استغل طرد إسرائيل للعرب الفلسطينيين لتبرير التهديدات بطرد يهود العراق.

ومن المحتم أن الحكومة الإسرائيلية وأصدقاءها فى الغرب كان لديهم يوم مشهود لإدانة النصر الوليد لظل هتلر الذى كان يقال حينئذ إنه يطوق الأمة العراقية. كما أن الصهاينة العراقيين الذين عقدوا العزم على تدمير الزعامة التقليدية لليهود العراقيين، حققوا نصرا ساحقا على رئيس الجماعة اليهودية العراقية، الراباى (الربى) ساسون خدورى، بإجباره على الاستقالة.

كان خدورى شخصية رئيسية، وعلى ثقة بأنه أيا كانت مكائد الحكومة العراقية فإن الروابط التاريخية العميقة بين يهود العراق وبقية الشعب العراقى سوف تصمد أمام الأزمة الراهنة. وعلى حد تعبير معلق بارز فى الجويش كرونيكل التى تصدر بالولايات المتحدة، كتب:

«إن ساسون وأولئك اليهود البغداديين الذين لديهم ما يخسرونه لا يحبون الصهيونية؛ لأنها جلبت عليهم البؤس. إنهم يعرفون أن هناك هبّات معادية لليهود فى بغداد قبل الصهيونية، ولكن على العموم، ساعد التسامح الإسلامى اليهود البغداديين على أن يزدهروا بوصفهم مركزا للتعليم والتجارة. وهم ومن على شاكلتهم سوف يحبون أن يبقوا . إنهم مشدودين إلى بيوتهم، وتقاليدهم، ومزارات الأنبياء، ولن يحبوا أن يتركوها لكى يبدأوا الحياة مرة أخرى فى معسكر مهاجرين بإسرائيل، حيث يعتقدون أن الناس ليسوا ودودين بصفة خاصة مع اليهود الشرقيين» (٣٠ ديسمبر ١٩٤٩ ، أوردها Shiblak 1986:77).

هذه الملاحظات البصيرة أمسكت بدقة باللحظة الحيوية فى مصير الجماعة اليهودية العراقية التى يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ سنة مضت . وكان رئيس اليهود قد اشتكى بمرارة من إهانة العراق فى الصحافة الغربية ، التى بالغت بشكل خارج عن كل المقاييس فى مستوى اللاسامية بالبلاد. وقد تذكر فيما بعد بصورة تهكمية كيف «كانت الدولارات الأمريكية تذهب لإنقاذ اليهود العراقيين ـ سواء كان اليهود العراقيون يحتاجون إلى الإنقاذ أم لا . لقد كانت هناك مذابح يومية فى جريدة نيويورك تايمز تحت سطور التواريخ التى لاحظ قليلون أن أخبارها جاءت من تل أبيب» (Shiblak 1986:76) .

واحتقار الراباى (الربى) الرئيس السابق لمزاعم الصهيونية عكست ثقته فى أن موجة المشاعر المعادية لليهود سوف تخبو. وعلى أية حال، كانت هذه أزمة غير مسبوقة زادت وطأتها حتى وصلت نقطة الانكسار بسبب التدخل الخارجى من جانب البريطانيين والأمريكيين والصهاينة. وحدث أيضا أنها كانت أزمة لا يوجد بشأنها رواية تاريخية مرضية. على الرغم من أنها كانت تدمر الجماعة اليهودية العراقية بالفعل. وما يلى عدد قليل من الحقائق الأساسية، على الرغم من أنها تربك العقل تماما.

مهرجان رد الفعل

كيف ساعدت بريطانيا والولايات المتحدة وإسرائيل الحكومة العراقية على تدمير الجماعة اليهودية العراقية؟

أولا : لدينا موظفون حكوميون بريطانيون يلهبون المواقف المعادية لليهود من جانب الحكومة العراقية ، لكى يحسنوا خطتهم الجديدة الرائعة لمساعدة إسرائيل فى «حل»

مشكلة اللاجئين الفلسطينيين التى كانت إسرائيل نفسها هى التى خلقتها . ويمكن «مبادلة» اليهود العراقيين بالعرب الفلسطينيين المطرودين من إسرائيل - وهى خطة لم تتحقق أبدا بطبيعة الحال . ووضعوا بعض التوابل على مقترحاتهم برؤية داخلية من لدنهم ذات خصائص محلية ونكهة لا سامية . وهنا عينتان فقط من بحث عباس شبلاق المدقق فى وثائق الخارجية البريطانية التى ترجع إلى تلك الفترة :

«**إذا كان يمكن تحويل هذا التهديد [بطرد اليهود العراقيين]إلى ترتيبات ينتقل اليهود العراقيون بمقتضاها إلى إسرائيل ويتلقون تعويضات عن ممتلكاتهم من الحكومة الإسرائيلية، على حين يتم توطين اللاجئين العرب بممتلكات اليهود بالعراق، فإن هذا سوف يبدو شيئا يستحق الثناء .... فإن العراق سوف يستريح من أقلية موقفها عرضة دائما لأن يضيف المصاعب فى الحفاظ على النظام العام فى وقت التوتر ...**» (Foreign Office to British Embassy, Baghdad, 5 september 1949 cited Shiblak 1986:83) .

وكون أن الحكومة البريطانية كانت تستخدم قنوات ديبلوماسية لنشر الموضوع بين الأصدقاء العرب الموثوق بهم يبدو واضحا من هذا الخطاب إلى مكتب العلاقات الخارجية Foreign office من القنصلية البريطانية فى القدس :

«ويمكن أن يكون على الأقل اهتماما أكاديميا إذا ما وضعت الآن فى السجل ، وهى ملاحظة أبداها لى الڤايكونت صمويل [أول مندوب سامى بريطانى فى فلسطين بعد إعلان بلفور] عندما كان فى فلسطين سنة ١٩٤٩م . وقد تناول الشاى مع زوجتى بعد أن تناول الطعام مع الملك عبد الله ملك الأردن . وبينما كنا نناقش استيلاء اليهود على الممتلكات العربية ، قال لورد صمويل : إن الطريقة الواضحة لحل هذه المسألة كانت بالنسبة للعراقيين هى أن يطردوا اليهود الموجودين لديهم ويستولوا على ممتلكاتهم . . . . » British Consulate, Jerusalem to Forign Office, 24 march 1951cited Shiblak 1986:84 n .20) .

ثانيا: لدينا ظهور عملاء الصهيونية من إسرائيل، يعقدون صفقات مالية سرية غاية فى الخسة والوضاعة مع السياسيين العراقيين، فى أعلى مستويات الحكومة، لكى ينظموا

خطة «إخلاء» الجماعة اليهودية العراقية عن طريق الجو . ومع ذلك لم يكلف أحد نفسه عناء استشارة اليهود العراقيين أو معرفة رأيهم. وتورطت شبكة نقل جوى أمريكية فى الصفقة، بمؤازرة من حكومة الولايات المتحدة. ووقفوا بعض السياسيين العراقيين مع المشروع لكى يربحوا ماليا، بما فيهم رئيس الوزراء، السويدى (Shiblak 1986 115-19).

ويؤكد التقرير الذى كتبه الباحث اليهودى العراقى المحافظ ، البروفيسور إيلى قدورى ، فى مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economic المنطلق الأساسى لوصف شبلاق هنا . وقدورى حاقد على سلوك بعض العملاء الصهاينة ، واتهمهم بالاستيلاء على (سلطة مغتصبة لا سيطرة عليها) فى الجماعة اليهودية العراقية ، وهو يقتبس عن مير بصرى ، أحد القادة التقليديين للجماعة اليهودية ، والذى لم يكن يعارض فى ذهاب اليهود العراقيين إلى إسرائيل ، ولكنه فى الوقت نفسه عبر عن القلق بشأن معاملة المهاجرين اليهود الفقراء . إذ أنهم لم يروا مرة أخرى مدخراتهم وغيرها من الأشياء الثمينة التى عهدوا بها إلى الموظفين الصهاينة الذين عينوا أنفسهم بأنفسهم (kedourie 1989 :53-4).

ثالثا : كان مشهد الحكومة العراقية وهى تجهز نفسها للاستيلاء على أعمال وممتلكات أكثر اليهود ثراء . وكان همفرى تريڤليان ، ممثل بريطانيا فى العراق موجودا لتقديم المشورة المفيدة . فقد أخبر تريڤليان رئيس الوزراء العراقى ، وهو السويدى ، أنه يجب أن يدرس الإجراء الذى اتخذ من جانب الحكومة الإسرائيلية فيما يتعلق بالممتلكات التى تركها اللاجئون العرب» (kedourie 1989:50) .

وأخيرا كان هناك سلسلة من تفجيرات القنابل، فيما بين أبريل سنة ١٩٥٠م ويونيه ١٩٥١م، فى المناطق التى كان اليهود يتجمعون فيها، بعدما صار واضحا أن معظم اليهود العراقيين ليس لديهم النية لمغادرة البلاد ـ على الرغم من كل الضغوط التى مورست عليهم للرحيل.

وحينئذ أعلنت السلطات العراقية أنها كسرت حلقة جاسوسية وقبضت على زعمائها. وقد اتهم الدليل الذى قدم للمحكمة بعض الأفراد العسكريين الإسرائيليين بأنهم وراء حملة تفجيرات القنابل، وكذلك التورط فى شبكة صهيونية عراقية سرية.

وأثناء فترة الأربعة عشر شهرا التى لم يقبض فيها على أحد بسبب تفجيرات

القنابل، بدأ الذعر يستولى بقبضته على الجماعة اليهودية فى العراق . وسجل عشرات الألوف من اليهود العراقيين أسماءهم طلبا للهجرة .

وعلى الرغم من أن الحكومة الإسرائيلية قد أنكرت مسؤليتها دائما، والحكومة العراقية كانت مهتمة بشكل يثير السخرية بأنها «تقنع» مواطنيها اليهود السابقين بأن يتركوا البلاد، كانت هناك اتهامات دائمة تشير بأصبع الإتهام إلى السلطات الإسرائيلية . وقد قدمت صحيفة «الفهد الأسود» وهى صحيفة تنطق بلسان يهود البلاد العربية المتضررين، تقريرا مفصلا عن الأنشطة الصهيونية فى أوائل سبعينيات القرن العشرين . وهذا أيضا هو رأى ديفيد هيرست، المراسل المميز لصحيفة الجارديان فى الشرق الأوسط[٣] .

ومذكرات ويلبر جرانى إيفلان، الذى كان مستشارا سابقا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى بغداد آنذاك، والتى تحمل عنوان « Ropes of Sand » (1980) تشير حتى إلى تورط الولايات المتحدة الأمريكية فهو يكتب أن وكالة المخابرات المركزيةC I A كان من رأيها أن الموقف فى العراق كان «مبالغا فيه ويتم إشعاله إصطناعيًا من الخارج» إلا أن «وزارة الخارجية الأمريكية حثتنا على التدخل لدى الحكومة لتسهيل الجسر الجوى الذى كان الصهاينة ينظمونه لإنقاذ بقية اليهود العراقيين» (Shiblak 1986:121-22) .

وتمشى الدراسات التاريخيه اليهودية على أطراف أصابعها حول هذه الحوادث، حتى بعد مضى حوالى نصف قرن على حدوثها . إذ أن ستيلمان يقذف بالحكاية كلها فى هامش ملتف وغير واضح، ولكنه يشعر بأنه مضطر إلى اقتباس جوهرة حكمة حقيقية من قدورى، الذى لاحظ ببساطة أن «الصهاينة كانوا قادرين على استخدام مثل هذه الأساليب» (Stillman 1991: 162 n .49) .

وفى ١٩٥٨م تمت الإطاحة أخيرا بالملكية العراقية الفاسدة التى أقامتها الإمبريالية البريطانية بواسطة انقلاب الضباط الأحرار، بقيادة اللواء عبد الكريم قاسم . لقد كان ذلك هو العمل الذى لم تنجزه «الوثبة»، وقد أشعل حماسة مظاهرات التأييد الجماهيرية الضخمة .

واستمر نظام حكم عبد الكريم قاسم خمس سنوات لا غير . ولكن حتى فى ذلك الوقت القصير ، برهن دونما شك ، على أن الزعماء القوميين العرب ، إذا ما أتيحت لهم فرصة الحكم دون تدخل خارجى ، كانوا قادرين على ممارسة مسئولياتهم تجاه رعاياهم اليهود .

ويتذكر مير بصرى، زعيم الجماعة اليهودية العراقية، قائلاً باسم حوالى ثلاثة عشر ألف يهودى بقوا فى العراق ما جرى: «كانت تلك فترة ذهبية لمن بقى من اليهود العراقيين» (The Scribe, June 1988)[٤] .

وكان رئيس الوزراء الأسبق السويدى واحداً من السياسيين العراقيين السابقين الذين حوكموا بتهمة الخيانة على أيدى نظام الحكم الجديد . وإحدى العبارات التى قرئت فى عريضة الاتهام كانت أنه كان قد ساعد إسرائيل «بالسماح لمائة ألف عراقى أن يصبحوا مواطنين إسرائيليين» (Woolfson 1980:196) .

ناصر فى مصر
هل كان يمكن للقومية العربية التقدمية أن تحرر العرب واليهود ؟

يظل الانقلاب العسكرى الذى قام به تنظيم «الضباط الأحرار فى مصر سنة ١٩٥٢م ـ وهو النموذج الذى احتذى به ضباط الجيش العراقى الثوريون[٥]، ثم ما تلاه من ظهور جمال عبد الناصر رئيسا لجمهورية مصر ـ هو أهم حادث فى التاريخ الوطنى العربى . وقد جاء بعد سنوات من الاضطراب فى مصر ، وفى خضم هبوط معنوى واسع المدى فى جميع أنحاء العالم العربى فى أعقاب الهزيمة فى الحرب الإسرائيلية ـ العربية حول فلسطين سنة ١٩٤٨م . وكان ذلك علامة على حزم عربى أقوى كثيراً وأشد حيوية بعدما يزيد على مائة سنة من المهانة على أيدى الإمبريالية الغربية ، وخاصة بريطانيا وفرنسا . وكان مقدراً لناصر أن يصير هو النقطة المحورية للتطلعات القومية العربية فى جميع أرجاء الشرق الأوسط .

فماذا كان موقف الضباط الأحرار من يهود مصر؟ قدم لنا ستيلمان تقريراً مذهلاً :

«النظام الثورى الجديد فى مصر... خرج ليؤكد لليهود وغيرهم من الأقليات التى

كانت قد اهتزت على نحو سيئ بالأحداث التى جرت أواخر أربعينيات القرن العشرين وأوائل الخمسينيات (عندما كانت المشاعر المعادية لليهود تتصاعد زمن حرب فلسطين وتكوين الدولة الإسرائيلية). فقد قام اللواء محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة والقائد المحبوب شعبيا بزيارات علنية لمؤسسات الجماعة اليهودية بالقاهرة والإسكندرية، بما فى ذلك ظهور غير مسبوق لرئيس مصرى بالمعبد اليهودى الكبير بالقاهرة فى يوم كيبور (الغفران)، بعد شهرين فقط من الوصول إلى الحكم. ورفضت الحكومة الجديدة بوضوح أن تخلط بين الجماعة اليهودية المحلية والعدو الصهيونى ورفضت بقوة الدعوات التى انطلقت من داخل الجامعة العربية لتجميد ممتلكات اليهود فى جميع الدول الأعضاء...

هذه الفترة القصيرة الصافية بدأت حتى نهاية سنة ١٩٥٤م عندما عزل ناصر ــ الذى كان هو القوة الحقيقية وراء الثورة ــ اللواء محمد نجيب. وأثناء السنة نفسها، تم كشف شبكة تخريب وتجسس مكونة من شباب يهود مصريين يعملون لحساب إسرائيل ... وقد أدى هذا إلى تقويض جهود العمل على استقرار الجماعة اليهودية فى مصر» (Stillman 1991:168-9).

***

وللأسف يترك ستيلمان الموضوع عند هذا الحد، تاركًا أسئلة حيوية تلح فى طلب الإجابة. هل كانت هناك علاقة بين شبكة التجسس والتخريب، التى تسمى أحيانا «عملية سوزانا»، والمرتبطة بالفضيحة المعروفة باسم فضيحة لافون، وقدوم ناصر إلى سدة الحكم؟ ماذا كان موقف ناصر من الجماعة اليهودية، أو موقفه من العدو الصهيونى؟ وهل كانت هناك علاقة بشبكة التخريب فى العراق؟ على السطح يبدو هناك تطابق عجيب. على أية حال، لم يقم الدليل على أن هناك رابطة بينها. كما أن هناك فروقًا حاسمة. ففى العراق، كان الهدف الأول هو بث عدم الاستقرار وزعزعة الجماعة اليهودية. أما فى مصر فلا شك أن هذا كان من النتائج ولكنه لم يكن الهدف الأساسى. وفى العراق عكس ما حدث بعمق اتجاه رغبة الحكومة الملكية العراقية التى كانت تشاطر إسرائيل رغبتها فى اقتلاع الجماعة اليهودية العراقية، وهو ما أسماه

قدورى «التواطؤ البشع» (Rejwan 1997:45). وفى البداية لم تكن لدى جمال عبد الناصر مثل هذه الرغبة. وفى العراق لم تكن لدى إسرائيل مشكلة مع الحكومة الرجعية. ولكن منذ اللحظة التى تولى فيها جمال عبد الناصر السلطة، كان هدفًا لحملة إسرائيلية متواصلة للقضاء عليه.

كان هذا على الرغم من استعداده [ناصر] المدهش - والمعروف قليلا - لاستكشاف إمكانية سلام حقيقى ومشرِّف مع إسرائيل. والواقع أن هناك رأيا جديرا بالتأمل بأن القصد من «عملية سوزانا» كان إفشال مناقشات السلام السرية هذه. ومن المؤكد أنه يبدو - مع فائدة الإدراك بعد فوات الأوان - أن ذلك كان بداية للعد التنازلى الطويل المدى للقضاء على جمال عبد الناصر على أيدى إسرائيل وحلفائها الغربيين.

وما كان يثير إسرائيل بشكل خاص تلك المناقشات التى كانت تجرى بين جمال عبد الناصر والحكومة البريطانية حول انسحاب الحامية البريطانية من منطقة قناة السويس. وكانت إسرائيل تعارض حصول مصر على الاستقلال الحقيقى. وكانت «عملية سوزانا» مؤامرة لخلق انطباع بالفوضى فى الدولة الوطنية الجديدة لكى تقنع البريطانيين بأن وجودهم العسكرى ما يزال ضروريا. (Shlaim 2000:112).

وكان جمال عبد الناصر نفسه هو الذى أثار الأسئلة بشكل خاص حول هدف المتآمرين لقطع المناقشات السرية بين ممثليه وممثلى رئيس الوزراء الإسرائيلى موشى شاريت (Shlaim 2000:119)[٦]. وتشير مذكرات أحد المتآمرين إلى استنتاج مماثل (Beinin 1998:278n.32).

وقد حاولت الحكومات الإسرائيلية المتوالية دائما أن تبقى الغطاء محكما على ما حدث حقًا. وقد انفجرت الأصداء طويلة المدى «لعملية سوزانا» أو «فضيحة لافون» فى وجه بن جوريون أوائل ستينيات القرن العشرين، مما دمر مصداقيته بصورة خطيرة. والحقائق الأساسية هى كما يلى:

كان لافون وزير الدفاع فى حكومة شاريت. وكان شاريت يعتبر فى نظر الكثيرين رجلاً ضعيفًا بلا كفاءة. وفضلاً عن ذلك كان يشك فى أنه متساهل مع العرب. بل كان له أصدقاء من العرب، وهو أمر نادر حقا بين الزعماء الصهاينة (Shlaim 2000:97). أما لافون فكان متشددا متطرفًا، وقد شجع بن جوريون على

تعيينه فى منصبه، وكان بن جوريون ما يزال نشيطا على الرغم من تقاعده المؤقت، ويقف وراء ما يجرى فى المشهد. وقد تم تنظيم عملية سوزانا دون معرفة شاريت على أيدى عناصر من المخابرات العسكرية.

وقد أنكر لاڤون دائما أنه أعطى الأوامر؛ ومع ذلك ثم توجيه اللوم إليه. وقد عجل إصرار لاڤون فيما بعد على أن يثبت براءته بتنازل بن جوريون النهائى عن نفوذه. وعلى الرغم من أن المؤامرة تحولت إلى خيبة ثقيلة، وتم القبض على مفجرى القنابل قبل حدوث أى ضرر خطير، فإن ناصر والسلطات المصرية قد اهتزوا من جرائها بطبيعة الحال. لقد كانت على أى حال ما نسميه اليوم تهديداً إرهابيًا. وكان جزء من الخطة يقضى بأن توضع القنابل فى دور السينما التى تعرض أفلامًا أمريكية وبريطانية، فى وقت متزامن مع الاحتفال بالذكرى السنوية لثورة الضباط الأحرار، مما يسبب خسائر لا تعد فى الأرواح.

واللافت للنظر أن جمال عبد الناصر قد حافظ على خطوط الاتصال مفتوحة مع شاريت، وقبل كلمة شاريت بأنه لم يكن متورطًا. وكان شاريت هو الذى أقفل المحادثات عندما انتهت محاكمة متآمرى التفجيرات فى القاهرة بحكم الإعدام على اثنين من المتهمين. وكان شاريت يضغط على جمال عبد الناصر لكى يتجنب حكم الإعدام، ولكن ـ حسبما أوضح شلايم ـ لم يكن بوسع عبد الناصر أن يستجيب لهذا لأن حكم الإعدام كان قد تم تنفيذه منذ فترة وجيزة على أعضاء فى جماعة الإخوان(*). ولم يكن من الممكن الدفاع عن التعاطف مع الإرهابيين اليهود بقدر أكبر من الإخوان المسلمين (2000:121).

وفى الوقت نفسه قدم شاريت رواية مختلفة جدا للأحداث للبرلمان الإسرائيلى وعامة الجمهور. إذ كان قد اتهم الحكومة المصرية بإجراء محاكمة مظهرية ليهود مصريين أبرياء. واثنان منهم سيتم إعدامهما. وسادت حالة من الهيستيريا لتلهب إسرائيل كلها ضد مصر تحت حكم جمال عبد الناصر.

(*) ولكن بعد خمسين سنة، أصبحت الحكومة المصرية فى حالة ود وصفاء مع الصهيونية ومع شارون صاحب السجل الإرهابى المتفرد، ونفور ورفض، إن لم يكن عداء، للإخوان المسلمين.

واستقال لافون، وخلفه بن جوريون وزيراً للدفاع. و كان بن جوريون مصممًا على تأكيد سلطته على شاريت وعلى جمال عبد الناصر. وفى غضون أسبوع واحد فقط كان قـد نظم «عـمليـة السـهم الأسود»، وهى غـارة عـسكرية سـرية داخل غـزة. (Shlaim 2000:123-9).

كانت غزة تحت الإدارة المصرية على أساس الهدنة بين مصر وإسرائيل فى نهاية الحرب الإسرائيلية - العربية سنة ١٩٤٨ . وكان القصد من عملية السهم الأسود أن تمزج بين أقصى درجات الاستفزاز وأقصى درجات الإذلال لجمال عبد الناصر . فقد تم قتل سبعة وثلاثين جنديًا مصريًا وجُرح واحد وثلاثون، فى مقابل ثمانية جنود قتلى وتسعة جرحى من الإسرائيليين. وكان ذلك أخطر صدام بين مصر وإسرائيل منذ اتفاقية الهدنة، وقضت إلى الأبد على أية أوهام لدى ناصر فى أن يبحث عن حل سلمى للصراع العربى الإسرائيلى. فمنذ تلك النقطة سوف يعتبر جمال عبد الناصر أن إسرائيل أداة الإمبريالية الغربية وعدوًا لدودًا .

وهنا يبـدأ الطريق إلى أزمة السـويس سنة ١٩٥٦م، وهزيمة جـمال عـبد الناصـر فى حرب ١٩٦٧م. كمـا أن الأسلحة المصرية التى سُلمت إلى الفلسطينيين فـى معسكرات اللاجئين تبدأ هنا أيضا. وقـد بنى مستقبل شارون المهنى على قـتل العرب وكانت بدايته فى وقت سـابق بالمذبحة الـتى ارتكبهـا فى قريـة قبـية الأردنيـة سنة ١٩٥٣م (Shlaim 2000:90)، ولكن غارة غـزة أسبغت على هذا إثارة مـدوية. فقد كان شـارون هو القائد العسكرى لهذه ا لعملية. وقد كانت عملية السهم الأسود أكثر من تعويض لفشل عملية سوزانا.

ولكن يهود مصر هم الذين دفعوا الثمن النهائى : فبعد السويس أجبر الكثيرون على الرحيل من البلاد (Beinin 1998:86-7) . وليست لدينا طريقة لمعرفة ما إذا كان جمال عبد الناصر يستطيع هو وثورته أن يحتضنوا الأقلية اليهودية، ولكن إسرائيل كانت قد خربت جهود ناصر للسلام، وكذلك مكانة يهود مصر . ويعبر آفى شلايم عن ذلك بمرارة واضحة :

«هذه الهجمات بدا وكأنها تؤكد أسوأ الأنماط المصرية عن خيانة اليهود وازدواجية سلوكهم وأسوأ المخاوف بشأن المؤامرات الشيطانية التى تحيكها إسرائيل لتقويض وحدتهم الوطنية واستقلالهم» (2000:118).

فقد كانت عملية سوزانا قد دمرت الثقة فى ولاء يهود مصر ووطنيتهم. وثمة شاهد إسرائيلى مهم، ومن المؤكد أنه مدهش، يدعم هذا الاستنتاج. ففى أوائل تسعينيات القرن العشرين الباكرة، كان عالم الأنثروبولوچيا عمانويل ماركس يخدم مديرًا للمركز الأكاديمى الإسر ائيلى فى القاهرة، وهو مؤسسة يحط من قدرها الوطنيون المصريون باعتباره مركزًا للتجسس والتخريب. **وبعد أن ترك ماركس القاهرة عائدًا إلى عمله فى التدريس بجامعة حيفا، افترض أنه لولا عملية سوزانا، لما حل الدمار بالجماعة اليهودية فى القاهرة: «إن أولئك المسئولين عن الأعمال القذرة [يقصد المخابرات الإسرائيلية وعملياتها التخريبية والإرهابية] قد استغلوا اليهود فى مصر... وقد سبب هذا تمزق العلاقات»** (Beinin 1998:239).

اليهود فى العالم العربى
ضحايا سياسات الفشل فى القرن العشرين

ألفريد دريفوس، ضابط بالجيش الفرنسى تم القبض عليه فى واحدة من أشهر فضائح اللاسامية فى القرن التاسع عشر، رفض الصهيونية باعتبارها حافلة بالمفارقات (على الرغم من أن الصهيونية تاجرت باسمه فى سعادة. انظر الفصل السادس)، وكانت تلك ملاحظة تتعلق تمامًا بالموضوع. وكان يعنى أن الصهيونية هربت فى وجه الثورة الفرنسية سنة ١٩٧٩م. فقد كانت الثورة قد طالبت بفصل السياسة عن الدين فى الدول الوطنية الديموقراطية البازغة حديثًا فى أوروبا.

والصهيونية ـ بينما تتشرف بهذا المثال ـ قد مارست عكسه. لقد ربطت الديانة اليهودية إلى عربة الاستعراض القومية الخاصة بها، التى ظهرت إلى جانب الأمم الأوروبية، فى الشرق الأوسط، باعتبارها جزءًا من مجموعة إمپريالية غازية، ثم طالبت بالأرض العربية باسم يهود العهد القديم.

لماذا ينبغى أن نتوقع من الإسلام والأمة العربية أن تقدم التنازلات للعالم الحديث

بشأن فصل السياسة عن الدين بينما لانطالب أكثر ممثلى الغرب استفزازًا أن يفعل هذا؟ إن هذا لدليل إضافى على غطرسة الغرب وعلى نزعة «الاستشراق» الباقية لديه.

ولدينا هنا نقص خطير يشوب سياسات الحداثة. إذ أن صهر الدين بالقومية ـ على نحو يحمل مفارقة لا منطقية، ولكنه مزروع عمدًا ـ قد أتاح لقنبلة موقوتة أن تضرب دقاتها فى الشرق الأوسط. ولا بد أن قادة الإمبراطورية البريطانية كانوا قد تنبأوا بها، ولكن، على العكس كان يناسبهم أن يلعبوا مع الصهاينة وهم يهندسون ـ أو يصطنعون ـ تحويل الديانة اليهودية إلى أيديولوچية قومية. كان ذلك هو الظرف المناسب والأساس المنطقى لزرع جمهرة من المستوطنين اليهود الأوروبيين فى فلسطين بطريقة مصطنعة. وكان عرب فلسطين هم أول الضحايا. أما ثانى الضحايا فكانوا هم اليهود فى العالم العربى.

لقد نجحت الصهيونية فى خلق أزمة ولاء سياسى لهؤلاء اليهود. إذ أنها جعلت منهم ـ دونما ضرورة على الإطلاق ـ أجانب فى ثقافة كانت بالنسبة لكثير منهم هى ثقافتهم الخاصة على مدى أكثر من ألف سنة. والأسوأ من هذا، أنها كانت تعنى أنهم كان يمكن أن يظهروا بمظهر الخونة فى البلاد النامية حديثًا والتى تناضل للإطاحة بالسيطرة الأجنبية. لقد كسبت الصهيونية الحرب الأيديولوچية بالفعل وختمت على مصير هؤلاء اليهود، عندما صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، فى نوڤمبر سنة ١٩٤٧م على تقسيم فلسطين العربية إلى دولة عربية ودولة يهودية. وفى اليوم السابق، كان محمد هيكل، أحد زعماء حزب الأحرار الدستوريين المصرى، وهو حزب وطنى علمانى له سجل جيد فى الدفاع عن يهود مصر، كان يسلم تمامًا بأنهم ـ يجب أن يكونوا مواطنين كاملى المواطنة فى مصر المستقلة ـ كان هيكل قد حذر الأمم المتحدة بقوله: «إذا كان الدم العربى يراق فى فلسطين، فإن الدم اليهودى سوف يراق بالضرورة فى كل مكان آخر، على الرغم من كل الجهود المخلصة للحكومات المهتمة لمنع مثل هذه الردود الانتقامية» (Beinin 1998:60)[٧].

كان التحذير يخفى اعترافًا بالاستسلام. فقد كان الغرب قد نجح فى فرض يهودية مشوشة ومسيسة تمامًا باعتبارها قومية لكى تخدم مصالحها فى العالم العربى. وكان لا بد من الردود الانتقامية المتوقعة أن تكون هى التكتيكات السلبية اليائسة بلا جدوى من

جانب الأمة العربية المُهانة. وكـان لا بد للعنف الذى انطلق على المدى القصير أن يخلى مكانه لعزلة اليهود فى العالم العربى على ا لمدى الطويل.

ليلى مراد، نجمة السينما فى العالم العربى.... وخائنة؟

إن مـصـيـر ليلى مـراد، وهى واحـدة من أبرز ممثلات العـالم العـربى فى القـرن العـشـرين، «وسندريـلا الشـاشـة المصـرية. . . والمطربـة الثـانيـة بعـد أم كلثـوم التى لا تُبارى»(Beinin 1998:83 -5) هو العكس[8] . فبعد ظهورها فى ٢٨ فيلمًا على مدى ما يزيد على عشرين عامًا، وتسجيل مئات الأغنيات، وهى إبنة حاخام يهودى ورئيس جـوقـة منشـدين فى المعبـد اليـهـودى، (Alcalay 1993:254)، تقـاعـدت فـجـأة سنة ١٩٥٥م. وكانت تقارير الصحافة المصرية والعربية قد اتهمتها سنة ١٩٥٢م بأنها منحت مبلغًا كبيرًا من المال إلى إسرائيل. وقد أنكرت هذا الاتهام بصلابة. وقد أصابها إحباط خاص لأنهـا كـانت قد أعلنت اعتناقهـا الإسلام برغبتـها عندمـا تزوجت الممثل والمخرج أنور وجدى سنة ١٩٤٦م «إننى مسلمة مصرية»، هذا ما أعلنته.

وعلى الرغم من هذا كله بقيت لهـا شعبيتها الواسعة فى مصر، وهويتها المختلطة ما بين الإسـلام واليـهـودية كـانت مـصـدرًا للجدل، ومـن المؤكـد أنهـا قـد سببت الكثير من الفضول والتعاطف وكذلك العداء.

وبعد أن حققت السلطات المصرية فى التهم الموجهة ضدها وجدت أنها بريئة. وعلى أية حال فـإن الحكومة السـورية لم تكن مقتـنعة واستـمرت فى فرض حظـر شامل على أفلامها وأغـانيها. وخلال المفاوضات لقـيام الجمهورية العربيـة المتحدة سنة ١٩٥٨م بين مصـر وسوريا، أصـر جمـال عبد الـناصر على رفع الحظر على أعـمالهـا، واستـجابت الحكومة السورية إذعانًا (Beinin 1998:84-8).

وقصة ليلى مراد هذه إنتاج حى، دراما عربية يهودية حقيقية، وهى كـذلك جزء من التاريخ العربى ـ اليهودى فى القرن العشرين. ولكنهـا ليست معروفـة كمـا هى. وهنا يصرخ فشل الأساليب السياسية فى وجوهنا. إن عبارة «التاريخ العربى ـ اليهودى» نفسها تصرخ فى جلبة. إنه تاريخ مفقود، إنه يقيس نجاح الصهيونية فى فصم الروابط بين العرب واليهود. وعند بداية القرن الحادى والعشرين كانت المذاهب القومية الخائفة

والرجعية التى تتمسح بالحكمة فى الدول العربية الطاغية تلتقى مع الرؤية الصهيونية. وكان نمو جماعات الإسلام السياسى المتشددة هو البديل الحتمى. أما البديل الشيوعى فكان قد كشف عن إفلاسه. والشيوعيون الجدد الذين ينتمون إلى حركة معاداة العولمة، وحفنة من القوميين العرب التقدميين، الذين كانوا يناضلون ضد انهيار الروح المعنوية وضد القهر، والذين هم على استعداد للتضحية برؤوسهم، يقدمون الأمل، بيد أنهم ما يزالون غاية فى الضعف بحيث لا يمكنهم تغيير الحال، ولا عجب فى أن تنظيم القاعدة قد اقتحم المشهد ـ وهو الرمز الكامل على الإخفاق السياسى.

«التهوية على شرارة الأمل فى الماضى»

علينا أن نصل إلى ذلك التاريخ المفقود. باكتشاف هذا الماضى مرة أخرى، يمكننا ـ على حد تعبير والتر بنيامين ـ أن نكتشف أن:

«موهبة التهوية على شرارة الأمل من الماضى، (وهى عملية مجهدة)، قوة ارتجاعية سوف تستدعى باستمرار أن نتساءل عن كل نصر ـ فى الماضى وفى الحاضر ـ للحكام» (Alcalay 1993:215).

وربما كتب أميل الكلالى الذى يقتبس هذه القطعة الرائعة، أحسن كتاب عن اليهود القادمين من العالم العربى فى القرن العشرين. وهو ليس تاريخًا بالضبط، ولكنه نبوءة شعرية جسورة، بيد أنهامؤقتة تمامًا. وهى تأخذ بدايتها من حكاية ليلى مراد الخيالية على نحو غير مقصود. وهناك إيماءات مُعذِّبة تشير إلى طريق الخروج من الأزمة، بيد أن المستقبل يبقى غائبا فى ضبابات الغموض والشك. وعندما تفشل السياسة ينبغى للشعر أن ينهض بالمهمة.

فقد جمع الكلالى طاقمًا من المعارضين: يهودًا وبعض الفلسطينيين وفنانين، وروائيين وشعراء بالأساس، ممن ترعرعوا فى الأراضى العربية. وهم يريدون بديلاً لرؤية اليهود فقط «من خلال الفيلم الكئيب والدموى غالبًا الذى يُسمى الصهيونية» (1993:57). وهو، والكتاب الذين يقتبس عنهم يكسرون حاجز الماضى القريب بتوضيح كيف يذوى هذا الفيلم عندما يوضع فى ضوء الماضى البعيد ذى الثقافة الإسلامية الراقية. ومثل هذا التناول يلقى الضوء أيضًا على المستقبل.

ولكننا نبدأ بالنظر إلى الماضى القريب، من خلال عيون هؤلاء الكتاب، عندما يدرسونه بأمانة شديدة. ألم تكن الجماعات اليهودية أقرب إلى الحكام الإمبرياليين الأوروپيين الغربيين للبلاد العربية فى القرن العشرين بأكثر مما يجب؟ وهناك فقرة تبلغ الذروة من إسحاق جور ميزانو جورين فى الرواية الثانية من ثلاثيته التى تحمل عنوان صيف الاسكندرية، وضعها فى مصر قبل ثورة ١٩٥٢ مباشرة. وهو يصف شغبًا كا د ينشب حول الأعراق والأجناس عندما يسبق فارس سباق (چوكى)، وهو ابن ليهودى اعتنق الإسلام، فارسًا بدويًا:

«اندلعت صرخة مفزعة من حلق البدوى الأسود المتعطش للدماء. وعلى الرغم من أنها كانت تحمل كل علامة مسرح من الدرجة الثانية، فإنها أفلحت فى أن تصدم الجمهور المتجمع لبرهة من الزمان. وطبعا كان هناك أولئك الذين وجدوا أن هذا النوع من السلوك الفج مرفوضا، ولم يروا فيه سوى عدم القدرة على الهزيمة بكرامة، ولكن الأغلبية سمعت أصداء مختلفة تمام الاختلاف فى تلك الصيحة. وفيما بعد، فى المحكمة، قال بعضهم: إنه سمع فى تلك الصيحة عذاب مصر الذى يسببه لها الأجانب» (Alcalay 1993:259).

وشعر أميرة هيس «يبحث أيضا فى صندوق الماضى المحرم» (Alcalay 1993:260). وفى قصيدتها التى تحمل عنوان «القمر يصطبغ بالجنون» تخبرنا:

أنا ابنة بغداد

يمكنك أن تقسم

كنت من أهالى لندن

أتذكر تلك البوابات من الحديد

وكل ذلك التألق الذهبى

الحراس على خيولهم والخيالة

يا لها من ريح تقرص قدماى

لكى تذكرنى بأننى كنت أنتمى روحًا

ولكنى لا آخذ الجسد

الذى ملكه الوهن والارتعاش

وعندما ظهرت هيس فى برنامج دردشة أدبية فى إسرائيل، كان مضيفها متحيراً تماماً بشأن الإشارة إلى لندن فى القصيدة. وتطلب الأمر أن يقوم ضيف آخر، هو سامى ميخائيل اليهودى العراقى سابقًا، لكى يشرح أن الميدان محل التساؤل فى القصيدة كان نسخة من ميدان لندن شيدته السلطات الاستعمارية البريطانية. ويعلّق الكالاى: «إن مبانى بغداد زمن الاستعمار، وتغيير الحراس تكون فى الحال هى الامتداد الأعمق لمشهد الطفولة، كما أنها عبء يبعث القشعريرة فى العظام» (1993:261).

وفى وقت ما حوالى سنة ١١٦٠م، توقف الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى ليحملق مندهشًا فى المسجد الكبير بدمشق، وكتب:

«هنا حائط من زجاج البللور من بديع صنع الإنسان، وبه ثقوب بحسب أيام السنة، وعندما تدخل أشعة الشمس كلاً منها فى تتابع يومى يمكن معرفة ساعات اليوم بواسطة مزولة مدرجة. وفى القصر المكون من غرف مبنية من الذهب والزجاج، إذا مشى الناس حول الحائط يكون فى وسعهم أن يرى أحدهم الآخر، على الرغم من أن الحائط قائم بينهم» (Alcaly 1993:119).

ويقارن الكالاى ملاحظات بنيامين التطيلى بما كتبته چاكلين كاهانوف الكاتبة التى ولدت فى القاهرة وترعرعت فيها فى القرن العشرين، والتى رأت فى منطقة شرق المتوسط:

«ليست منطقة غربية أو شرقية خالصة، وليست مسيحية أو يهودية أو إسلامية خالصة. وبسبب تنوعها، فإن منطقة شرق المتوسط تقارن بلوحة من قطع أحجار الموزايكو الصغيرة التى تم تجميعها سويًا فى صورة مسطحة. وهى بالنسبة لى تبدو أقرب إلى المنشور تتصل وجوهه المختلفة عند الحافة الحادة للاختلافات ولكن كلاً منها ... يعكس الضوء أو يبثه... وربما يكون الأوان قد آن لمنطقة شرق المتوسط لكى تعيد تقييم نفسها فى ضوئها نفسه، بدلاً من أن ترى نفسها فى أضواء أوروپا، باعتبارها شيئا دخيلاً، متعبًا، ومريضًا، ويكاد يكون بلا حياة» (Alcaly 1993:27).

وتحتاج الاختلافات ـ حتى الجادة منها ـ ألا نخون الوحدة الجوهرية للمنطقة. وعلى أية حال فإن بوسعنا أن نرى، ونفهم ويحترم كل منا الآخر من خلال الزجاج الذى يفصلنا عن بعضنا البعض. ويمضى إلياهو إلياشار ـ الذى تنتابه تعاسة عميقة بسبب وطنه الجديد، إسرائيل ـ شوطًا أبعد بالجدل. إن مفهوم أرض إسرائيل قد خان وحدة المنطقة، وهو يطير فى وجه المعنى الحقيقى للماضى كما يسد طريق الحل فى المستقبل:

«إن أرض إسرائيل جزء صغير من المنطقة التى تقطنها شعوب كثيرة، ومعظمهم يعتنقون ديانة واحدة، وتتملكهم رغبة قوية فى الوحدة. إن أرضنا لم تكن أبدًا وحدة جغرافية محدودة: فقد كانت وما تزال عند معبر الطرق بين الشرق والغرب، بين مصر وآشور وبابل فى الماضى. واليوم، فإن بلادنا هى الكيان الوحيد الذى يمنع الوحدة التى يراها العرب مثالاً» (Cited Alcalay 1993:24)(*).

هل السوق يبالغ فى الاختلافات ويفاقمها أم يقللها إلى الحد الأدنى؟ على مدى ألف سنة برهن المسلمون واليهود على أنهم تجار بارعون. إذ أن قوس التجارة العربية الإسلامى العظيم، الذى يوحد بين البحر المتوسط والمحيط الهندى، توقع الطفرة الثورية للرأسمالية الأوروبية الغربية بما يزيد على خمسمائة سنة. ومع ذلك لا يمكن إنكار أن معاداة السامية فى أوروبا القرن العشرين وجدت من يؤازرها عندما وجهت شعاراتها التى تحض على الكراهية القاتلة ضد اليهود الذين يكسبون من التجارة. بيد أن الإسلام كانت له وجهة نظر أخرى احتفظ بها تقليديًا. و على حد تعبير إبراهام أودڤيتش ولوسيت ڤالينسى:

«حق اليهود. . . نفذه المسلمون باعتباره كلمة السر لاختصار المساومات. واختتام أية مناقشة بتنفيذ «حق اليهود» يعادل القسم بالأيمان. . . لأن أهل الكتاب هم أهل القانون، إذن يمكنك التعامل معهم» (Alcaly 1993:21).

ومثل هذه المناقشة تعود بنا حتمًا إلى جويتين، المؤرخ البارز فى التاريخ العربى ـ اليهودى. ولنذكر أنفسنا (الفصل الرابع) أن جويتين لم يماحك فى عظمة الإمبراطورية العربية الإسلامية. وكان مأخوذًا بالتأثير التحويلى على يهود بابل القديمة فى العراق

(*) يحتمل هذا النص معانى كثيرة، وقد تكون متعارضة. وقد استشهد به المؤلف كما هو تمامًا، أما رأى المؤلف نفسه فى أسطورة أرض إسرائيل، فيمكن الرجوع له فى الفصول: الأول والخامس والسادس.

ورفاقهم فى الدين بكل مكان آخر. وربما يكون الأمر أيضا أن جويتين قد ملأ دونما قصد فجوة تركتها دراسة أبرام ليون الرائدة عن كيفية أن الجماعات اليهودية فى أوروبا العصور الوسطى قد قيض لها أن تكون تحت قيادة طبقة تجارية متحركة تمامًا (انظر الفصل الثالث). وقد كتب جويتين وهو يقدم وثائق الجنيزا:

«مع حركة الفتوحات العربية الكبرى التى أعقبت ظهور الإسلام. . . هكذا بدأت الفترة الطويلة والعظيمة فى التعايش العربى اليهودى. . . وفى وقت الفتوح العربية الإسلامية، كانت غالبية اليهود ما تزال تشتغل بالزراعة والعمل اليدوى. . . وقد اختفى الشعب اليهودى كشعب زراعى خلال القرنين السابع والثامن بعد الميلاد، ولكن على عكس السكان القدماء، عادوا إلى الحياة أمة من التجار والحرفيين. . .» (Alcaly 1993:36).

وقد تصادف التحول الاقتصادى مع تقوية دور المرشد الدينى والروحى لليهود فى كل مكان، وهو التلمود البابلى، ومركزه الجديد الفخور فى مدينة بغداد المبنية من جديد.

وفى تاريخه الذى يحمل عنوان History of Jews، يناقش نسيم رجوان الصحفى المولود فى بغداد، وهو ناقد أدبى ومؤرخ، من المعجبين بجويس، وكافكا، ومان، وأورويل (Alcaly 1993:45) هذهَ المسألة بشكل مطول. وهو بهذا يعطينا ـ ربما عن غير قصد ـ ما نسميه صهيونية عكسية أو مقلوبة.

إذ تنقلب الأساطير المتعلقة بالنفى فى الكتاب المقدس ـ وهى أساطير حيوية بالنسبة للمشروع الصهيونى ـ رأسًا على عقب. ونفس الأساطير المبكرة عن النفى، أى ترحيل اليهود على أيدى الآشوريين منذ ٢٧٠٠ سنة، ثم على أيدى البابليين قبل ٢٦٠٠ سنة، تحولت إلى احتفالات بالحياة اليهودية فى بابل بلاد النهرين القديمة.

فلم «يرجع» معظم اليهود عندما احتل الفرس بابل منذ ٢٥٠٠ سنة، ويقال إن الملك الفارسى قورش ترك اليهود يعيدون بناء المعبد فى القدس. هذا على الرغم من كل «البكاء على ضفاف أنهار بابل» (Rejwan 1989:24).

وهناك يوجد بعض التاريخ الحقيقى. إذ أن هناك دليل على استمرار الاستيطان اليهودى فى بابل، وهناك تفسير لاستمراره، والذى بقى ألف سنة حتى الفتح

الإسلامى، فقد كان الحكم الفارسى عمومًا هو الأفضل من حكم الرومان. ويستدعى رچوان (1989:9) شهادة المؤرخ اليهودى الكبير فى القرن العشرين، سالو بارون.

ويسبر رچوان أغوار رابطة بلاد ما بين النهرين بشكل أعمق. ألم تنشأ الفكرة اليهودية أصلاً هنا فى بلاد ما بين النهرين، وطن أول سجلات الحضارة فى المنطقة، كذلك موطن النبى إبراهيم، المؤسس الروحى للديانات التوحيدية الثلاث الكبرى، اليهودية، والمسيحية، والإسلام؟ يكاد يكون من المؤكد أن بعض قصص الكتاب المقدس، قد كتبت فى بابل. فقصة الخليقة، والطوفان وبرج بابل تحمل «تشابهات مذهلة» مع الأدب البابلى (Rejwan 1989:5).

كذلك يجد رچوان نزعة عالمية فى التلمود البابلى، وهو أكثر حجية من نظيره التلمود الفلسطينى، الذى كتب بعده بقرون فى أعقاب الانتصار الرومانى فى القدس. وهو يكتشف عظات مؤثرة عن مبادئ المساواة الإنسانية، يشدد على اليهود فى علاقاتهم مع غير اليهود (5 - 1989:64) فى خضم رسائل متناقضة، وبالرغم من سريتها وغموضها. ثم جاء الفتح الإسلامى آنذاك ليشجع الوجود اليهودى فى العراق. ونمت جماعة يهودية ـ بسرعة فائقة ـ فى مدينة الكوفة التى كانت معسكراً للقوات العربية الإسلامية جنوب العراق. وكانت هناك جماعة يهودية كبيرة فى البصرة تخرج منها العلماء والأطباء، الذين تولوا مناصب فى مصر وفلسطين (Rejwan 1989:83-4). وصار مركز التلمود البابلى آنذاك فى بغداد. وقد كان من نعم الإسلام على التعليم اليهودى أنه أدى لانفتاحه على تأثيرات كان يسعى إلى تجنبها قبل ذلك. ويقتبس رچوان عن ابراهام هالكين الذى كتب:

«لقد وجدت مفردات العقيدة الإسلامية طريقها إلى الكتب اليهودية: وصار القرآن كتاب برهان ودليل. والممارسة العربية بوضع الشعر فى مؤلفاتهم، أخذها عنهم اليهود. إذ حفلت الكتابات اليهودية بجمل من مؤلفات العلماء والفلاسفة والفقهاء... فليس هناك عداء تجاه التعليم الأجنبى... ولا انزعاج من أنها نفس نفس «الحكمة اليونانية» التى حذرت المصادر التلمودية من أن يدرسوها ليلاً أو نهاراً (Rejwan 1985:148).

وهناك المزيد ـ وأكثر من المزيد ـ يمكن أن يقال عن هذا. فهل يمكن الوثوق ببنيامين

التطيلى فى ملاحظته التالية التى كتبها فى بغداد القرن الثانى عشر، عن زيارة چيونم الذى كان رئيس الأكاديميتين التعليميتين العظيمتين بالمدينة؟

«كان الخيالة من اليهود وغير اليهود يرافقونه كل خميس عندما يذهب لزيارة الخليفة. ويمضى أمامه المنادون يعلنون «افسحوا الطريق لسيدنا، ابن داود، وريثه» وهو يرتدى ثيابًا من الحرير المطرز. . . ويقوم الخليفة ويُجلسه على العرش[بجانبه]. . . ويقف الأمراء المسلمون فى حضرته».

ويورد لوسيان جوباى مؤلف كتاب Sunlight and Shadow هذه الفقرة دونما تمحيص (1992:52). وربما كان محقًا فى فعل هذا. أم أنها من [مثل] موتيفات المؤرخ اليهودى يوسيفوس؟ أم هى زخرفة شعرية ترمز إلى وحدة الديانتين. ويجب أن نضع فى حسباننا أنها تحدثنا عن قرون من التعايش العربى - اليهودى.

ولنتوجه بسرعة إلى القدس فى بداية القرن العشرين. انظر وتأمل، فهذا التعايش القديم يعاود الظهور على السطح. وها هو كتاب يعقوب يهوشع بعنوان Childhood in Old Jerusalem، الذى صدر عند بداية القرن العشرين، يتذكر القدس القديمة التى كانت عربية إسلامية على مدى الشطر الأكبر من فترة طولها ألف سنة. وهو يصف اليهود السفارديم، الذين لهم جذور عميقة فى المنطقة تعود إلى إسپانيا الإسلامية:

«إن أبناء وبنات عائلات اليهود السفارديم فى القدس، كانوا أتباعًا شغوفين للموسيقى العربية. وكانوا يحتفظون فى احتراس شديد بآخر الأغنيات التى تم تأليفها فى القدس أو تم إحضارها من القاهرة، وكان كل واحد يستمتع بأعمال سلامة حجازى وكذلك أعمال الآخرين ممن زاروا القدس، وخلطوا الشعر بالموسيقى فى المقاهى العربية، هناك حيث اعتاد المستمعون الجلوس على مقاعد القصب المنخفضة ويدخنون النارجيلة. وكان الجميع يذهبون لمشاهدة فرقة چورج أبيض المصرية عندما كانت تأتى إلى القدس قبل الحرب العالمية الأولى. وكانت مقاهى المدينة القديمة وبوابة دمشق بمثابة مراكز ثقافية وترفيهية للعرب ولليهود على السواء. ولا شك أيضا فى أن مختلف الأغانى من الشعر العربى والموسيقى العربية وجدت طريقها إلى داخل «البيوتيم»، أى الأغانى والترانيم الدينية التى كان الرابيون ورؤساء فرق الإنشاد ينشدونها فى ليالى الجمعة، فى البيت وفى المعبد» (Alcalay 1993:109).

وقد انتهى المطاف بالكثير من يهود العالم العربى فى إسرائيل. وعند وصولهم يتم رش بعضهم بالمبيد الحشرى DDT، لكى يخلصوهم من «عربيتهم» (Alcalay 1993:37). وهذه ليست مبالغة، ولدى الكالاى صفحات كثيرة تصف ما حدث. وعلى الرغم من أن كتاب سويرسكى Israel The Oriental Majority لا يحمل الكثير من التواريخ، فإنه ما يزال أفضل تقديم لهذا الجانب الأقل شهرة من العملية التى قامت بها الصهيونية لتجميع الشعب اليهودى. ذلك أن اليهود القادمين من اليمن ـ إحدى أفقر وأقدم الجماعات اليهودية ـ كانوا «متوحشين وبرابرة»، ولكنهم على الأقل كانوا يعملون بشكل طبيعى وبلا خجل . . . وبدون أن يكون «مستر ماركس فى أدمغتهم»، على حد تعبير صحيفة صهيونية. (Alcalay 1993:43).

أبا إيبان، الديپلوماسى الإسرائيلى «المتحرر»، والمشهور، والباحث فى الدراسات الفارسية بجامعة كمبردج، قدم مرة شرحًا عن اليهود القادمين من العالم العربى. فقال: إن هناك خطرًا حقيقيًا من أن «المهاجرين ذوى الأصول العربية سوف يجبرون إسرائيل على أن تساوى مستواها الثقافى مع مستوى العالم المجاور لها» (Alcalay 1993:31). ولا عجب فى أن شالوم شتريت، وهو إسرائيلى من اليهود العرب، قد كتب مرثية عنوانها «سجين صهيون» (Alcalay 1993:29).

أحيانا، فى بعض الأحيان فقط، يقوم إسرائيلى من أصول أوروپية بقول الحقيقة. وها هى لوڤا إلياڤ:

«لقدخطفنا منهم الكنز الثمين الذى جلبوه معهم ـ اللغة العربية. . . لقد جعلنا من اللغة العربية والثقافة العربية شيئا كريها وحقيرًا» (Cited Alcalay 1993:24-5).

وعلى مرّ السنين، كان بوسع قادة إسرائيل، الذين تساندهم بلايين الدولارات الأمريكية أن يضفوا ميزات على الظروف المعيشية لليهود القادمين من البلاد العربية، بما يكفى لجعلهم يصبون جام غضبهم على الفلسطينيين فى قاع البناء الاجتماعى. ويكتب ألكالاى:

«يمكن للإنسان أن يهمهم بألحان فنان عربى مشهور للغاية مثل فريد الأطرش، أم كلثوم، محمد عبد الوهاب، دقيقة واحدة، ويقوم بعمل المستجوب الذى يصير فيه الموضوع الفلسطينى هدفًا لغضب فى غير محله فى الدقيقة التالية.

كل هذه هى طبيعة الطبقة العاملة الإسرائيلية، وكل خطوة فى كل من البناء الثقافى المهيمن، والاحتلال المستمر، تخضع للإغراء الجارف من قبل صناعة الصور الرسمية، وهو ما يؤدى فقط إلى المزيد من إخراس الذاكرة نفسها. . . » (1993:254).

وماذا نفعل حيال يعقوب يهوشع، الذى اقتبسنا من كتابه الذى يحمل عنوان Childhood in Old Jerusalem، وهو جزء من عمل فى ستة مجلد؛ ذلك أن يهوشع الذى صار موظفا صهيونيًا كبيرا « قد استطاع فى صمت أن ينجز دور مدير القسم الإسلامى فى وزارة الشئون الدينية الإسرائيلية أثناء الفترة عندما كانت المؤسسات والآثار الإسلامية ـ والشواهد الإسلامية البارزة ـ محل تجاهل منتظم، أو يتم الاستيلاء عليها أو تُنتهك» (Alcalay 1993:233).

وما يصدم جدا فى هذة الخيانة الشيزوفرينية أنها تمضى فى معظمها دونما تحد أو حتى تحقيق وتدقيق. بيد أن ألكلاى لا يهتز له جفن من جراء هذا الوضع الكئيب. ولا يمكن للخيانة أن تأخذ معها معنى ذاكرة الطفولة. وعلى الرغم من صاحب هذه الذكريات، فإنها تبقى أحد «الأصوات الشاهدة فى البرية» (Alcalay 1993:233).

وألكالاى ثابت فى تمرده ضد إخراس الذاكرة. ولم يزعم أبدا ما هو أكثر من أنه كان يجمع فريقًا من المعارضين العرب ـ اليهود، وهى أقلية ضئيلة. و لكن ألكلاى فى مهمة ثورية «للتهوية على تلك الشرارة من الأمل الآت من الماضى». وهو مؤمن ملهم بأنه فى قول الحقيقة نستطيع على الأقل أن نغير العالم. وهو يجد الإلهام فى أناس مثل شمعون باللاس، وهو يهودى عراقى، صار روائيا فى إسرائيل، ويحكى الحقيقة. ويحتاج الأمر إلى شجاعة حقيقية للقول إنه فعل ذلك حقا:

«إننى لم أنكر أبدا أصولى العربية أو اللغة العربية، على الرغم من أن تعليمى فرنسى أيضا. لقد كانت الهوية العربية وما تزال جزءًا منى. . . إننى عربى حمل هوية إسرائيلية، ولكنى لست أقل من أى عربى آخر فى عروبتى. . . »

وأثناء حرب الخليج الأولى، عندما أطلق صدام حسين صواريخ سكود على إسرائيل، رفض بالاس أن يدين أولئك الفلسطينيين الذين أيدوا الهجوم العراقى. وكان هذا يعنى الانفصام عن حركة «السلام» الإسرائيلية: «بوسعى أن أفهم الفلسطينيين.

أولئك الذين كانوا يصفقون عندما سقطت الصواريخ على الإسرائيليين، لقد فعلوا هذا بعد عشرات السنين من القهر . . . » (Alcalay 1993:243).

ومن الواضح أن الاختبار النهائى هو هذا العبور إلى جانب الفلسطينى. ترى من الذى سوف يتماثل مع محمود درويش شاعر فلسطين العظيم؟ إن قصيدته فى التضامن مع الانتفاضة الأولى سنة ١٩٨٧م سببت ضجة فى الصحافة الإسرائيلية والبرلمان الإسرائيلى. وهرع كثير ممن يسمون «اليسار» من الفنانين الإسرائيليين بحثًا عن غطاء. بيد أن قلائل منهم، مثل الممثل يوسى شلواح أيدوه. قال: إنه ذهب إلى «الأدب العربى الفلسطينى بحثًا عن ثقافتى» (Alcalay 1993:231).

وربما يكون محمود درويش هو الشخص المحورى، حيث ينبغى للشعر أن يسد الصدع السياسى. وهو يمكن أن يتماثل مع الفتى الانتحارى، وفى قصيدته «حالة حصار» يقول الشهيد:

الشهيد يوضح لى : لم أفتش

وراء المدى

عن عذارى الخلود

فإنى أحب الحياة

على الأرض، بين الصنوبر والتين

لكننى ما استطعت إليها سبيلاً

ففتشت عنها بآخر ما أملك، الدم فى جسد اللازورد

ولكن محمود درويش يرى بشراً فى ملابس الجنود الإسرائيليين. وتبدو نزعته «الإنسانية» أحيانًا كما لو كانت نقصًا فى اليقظة والوعى.

(Mahmoud Darwish, Maya Jaggi's "Profile", Guardian, 6 June 2002)

وظنى هو أن محمود درويش كان سيوافق على الطريقة التى حل بها هذه المعضلة چوزيف سمبرون، وهو مقاتل شيوعى سابق فى المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى، وأحد الكتاب الكبار عن الهولوكوست. ففى روايته The Cattle Truck،

الراوى الذى يحكى رواية سمبرون سجين فى طريقه إلى بوخينڤالد، ويضفى على حراسه العسكريين صفة الإنسانية، مدركًا بالطريقة التى وضعت بها الإمپريالية والعسكرية الإنسان فى زى موحد.

وقد عاود سمبرون بحث المعضلة فى سيرته الذاتية التى تحمل عنوان «Litrature on Life». وهو يصف قصة حقيقية من حركة المقاومة، عندما مرَّ هو ورفيقه بجندى ألمانى شاب كان جالسًا على ضفة النهر مستمتعًا بالريف الفرنسى. وكان مع الألمانى موتوسيكل وبندقية آلية، ولم يكن لدى سمبرون أى شك فيما ينبغى عمله. ولكنه اندهش لبرهة عندما بدأ الجندى فجأة يغنى «فى صوت عميق محبب» أغنية La paloma . وكانت هذه أغنية مفضلة منذ أيام طفولة سمبرون. وقد جعلت الجندى بريئا على نحو ما: «بريئا ليس فقط من كونه وُلد ألمانيا تحت حكم هتلر... من أنه يجسد رغمًا عنه القوة الباطشة للفاشية. ولكنه برئ أصلاً فى كامل وجوده... لقد كان ذلك عبثا وكنت أعرف هذا...» (Semprun 1997:33,34) ومع هذا، وعلى الرغم من قلق رفيقه، كان عليه أن ينتظر حتى تنتهى الأغنية قبل أن يطلق عليه الرصاص ويرديه قتيلاً.



خاتمة

... من الرماد

الصهيونية هى المشكلة؛ وإزالتها هو الشرط الأساسى للسلام فى الشرق الأوسط. إنها الشرط الأساسى لمصالحة عربية ـ يهودية فى فلسطين. هذه هى الخاتمة الوحيدة الممكنة لهذا الكتاب. ولست بحاجة لإقناع القراء العرب بهذا؛ لأنه بالنسبة للأغلبية الساحقة من العرب هذه حقيقة لا تحتاج إلى برهان.

ومعظم الناس فى أوروپا وشمال أمريكا ليسوا مقتنعين. وعلى الرغم من أن قضية العدل للفلسطينيين مسموعة بصوت أعلى من ذى قبل، فإنه يبقى هناك اعتقاد باق أن هناك ما يبرر أيضا وجود دولة يهودية فى فلسطين، وأنه يمكن التوفيق بين الموقفين.

ولكن ذلك غير ممكن. وعلى الرغم من أن هناك أصوات قليلة للغاية من اليهود على استعداد لقول ما أقول، عندما يتحدثون بصوت عال، فإنهم يصبحون حليفًا قويًا بشكل فريد للفلسطينيين فى أوروپا وأمريكا.

وكتاب Out of the Ashes، الذى كتبه لاهوتى يهودى أمريكى، هو مارك إيليس، يلفت النظر من حيث أن إيليس يخلص أيضا إلى أن المشكلة هى الصهيونية. بيد أن نقطة انطلاقه ليست هى المجادلات التى تقوم على أرضية منطق اليسار العلمانى، بل نقطة الانطلاق عنده هى الديانة اليهودية نفسها. و لا يمكن أن نستبعد مارك إيليس باعتباره شخصية هامشية. وثمة كتاب سبق هذا عن الحاجة للاهوت «تحرير» يهودى، تلقى خطاب شكر بمبادرة من الدكتور چوناثان ساكس، الذى كان آنذاك رئيس الكلية اليهودية Jew's College، وهو الآن الحاخام الأكبر فى بريطانيا (Jewish Chronicle,7 February 2003).

وعندما تحدث ساكس نفسه علنًا ضد إسرائيل، بل طلب مساواة فى الأديان بين الإسلام والمسيحية واليهودية، تم إسكاته تحت وطأة اليد الثقيلة الباطشة للأورثوذكسية

اليهودية فى بريطانيا . وبالنسبة لإيليس كان هذا عرضًا من أعراض «حرب الضمير الأهلية» اليهودية (2002:47) وهى معركة تدور تحت السطح فى الجماعات اليهودية . أما إيليس نفسه فلا يهادن ويرى فى الصهيونية تهديدًا لا يقتصر على الفلسطينيين ، وإنما ينسحب إلى مستقبل اليهودية نفسها .

وثمة نكهة لكتاباته تتبدى واضحة على أول صفحة من الكتاب ، حيث يرى مدافع المروحيات الإسرائيلية اليوم تحدد الحياة اليهودية :

«لدى رؤيا باستبدال لفائف التوراة فى تابوت العهد الذى يجعل بؤرة اهتمام اليهود على الرب والعدل والسلام ، بمدافع المروحيات التى تتحدث عن القوة والبطش دونما أخلاق أو قيم . ماذا نفعل . إننا نتعبد» (2002:1) .

وإيرينا كليفيتز واحدة من الأصوات اليهودية العظيمة التى تتحدث فى كتاب إيليس . وكان والدها مايكل كليفيتز ناشطًا فى العصبة الاشتراكية اليهودية ، وواحدا من أشجع الأعضاء فى منظمة المحاربين اليهود فى جيتو وارسو . وفى أوائل سنة١٩٤٣م ، هرّب مايكل إيرينا وأمها ، كما اشتغل هو أيضا بتهريب الأسلحة والمواد التى استخدمت فى هبة الجيتو ضد النازى فيما بعد . وفى اليوم الثانى من الهبَّة قُتل مايكل ، بينما كان يحمى مقاتلى الجيتو الآخرين .

وقد وقفت إيرينا كليفيتز حياتها على الحفاظ على ذكرى أبيها والحفاظ على المبادئ التى كان يحارب فى سبيلها حية . ولم تتردد فى الربط بين هذه الذكرى والمأزق الفلسطينى . وتقول إنه يجب على الفلسطينيين أن يشعروا «بالغضب الوحشى» الذى كان ينتاب محاربى الجيتو عندما يرون تمزيق الحياة الفلسطينية :

«إن الهيستيريا التى تتملك أمًا أطلق عليها الرصاص ، وعائلة مذهولة أمام منزلها الذى أُزيل أو تم تدميره ، والعائلة التى تفرق شملها ، وتم ترحيلها ؛ والقوانين التعسفية أو الظالمة التى تأمر بإغلاق الدكاكين والمدارس وفتحها ، وإهانة الناس ذوى الثقافة الغربية والتى يحكم بأنها الأدنى ، شعب ترك فى العراء ، دونما وطن أو جنسية ، شعب يعيش تحت الحكم العسكرى» (Ellis 2002:29) .

ويُضيف إيليس نفسه أن صورة الهبَّة التى جرت فى جيتو وارسو ، ترمز إلى الكبرياء والانتهاك الذى حاق بالحياة اليهودية «تتممه الانتفاضة الفلسطينية» .

وفى إسرائيل أيضا، كشف عدد قليل جداً من اليهود الإسرائيليين الغطاء. ولكن مرة أخرى، فإن أولئك الذين يملكون المساعدة، يبلورون منظورا يجعل من الممكن التنبؤ بتحالف حقيقى مع الفلسطينيين.

وفى تسعينيات القرن العشرين، صارت مجموعة من المثقفين الإسرائيليين مرتبطين بما «بعد الصهيونية»[1]. وعلى الرغم من أنه ما يزال هناك بعض من الافتقار إلى الوضوح بشأن هذا المفهوم، فإنه يشجع بعض ا لكتاب على تحدى «حكاية» الصهيونية المهيمنة، وكذلك على أن يبدأوا فى تخيل حياة يهودية فى فلسطين بدون دولة صهيونية. وعلى الرغم من أن هؤلاء المفكرين قلة فى عددهم، فإنهم فى بعض الأوقات يبدون مصدر تهديد حقيقى، يشيرون إلى انعدام أساسى للأمان داخل الحركة الصهيونية، على الرغم من غطرستها وعنفها الخانق. ومن هنا منعت حكومة شارون كتاب تاريخ مدرسيًا يدرس فى الصف التاسع؛ لأنه «ذو اتجاه ما بعد الصهيونية» وليس وطنيا بالقدر الكافى (Nimni 2003:1).

وأقوى الأصوات، سواء ارتبطت بهذا الاتجاه أو تزاملت معه، هم العدد الضئيل من الشخصيات الرئيسية السابقة فى المؤسسة الصهيونية للعمل، ا لذين يخافون الآن حقًا من الوحش فرانكشتاين الذين ساعدوا هم أنفسهم على خلقه. إن جذورهم العميقة الأولى فى المشروع الصهيونى هى التى تجعلهم ينفصلون بهذه الحدة.

وربما لم يكن هذا ما قصدوه، بيد أن أكبر إسهاماتهم قد تكون مساعدة الآخرين منا فى تكثيف حرب الدعاية ضد الصهيونية فى أوروبا وأمريكا: وهذا هو إسهامنا فى تحرير فلسطين.

وما يلى مستخرجات قصيرة من مقالات، كتبها اثنان من السياسيين الصهاينة فى حزب العمل سابقا، وهى مقالات مذهلة بدرجة أكبر فى أصولها.

أفراهام بورج، ظل لفترة طويلة من كبار ساسة حزب العمل الإسرائيلى. وكان رئيس الكنيست الإسرائيلى من ١٩٩٩م إلى ٢٠٠٣م:

«تستند الأمة الإسرائيلية اليوم على دعائم من الفساد وعلى أساسات من القهر والظلم. وعلى هذا فإن نهاية المشروع الصهيونى على عتبة بابنا...

إن يهود الشتات الذين تمثل إسرائيل لهويتهم العـمود الفقرى، عليهم أن يهتموا وأن يتحدثوا بصوت عال...

كـان المفروض أن نكون نوراً لـلأمم...وفشلنا. وتحـول الأمـر إلى أن تضاءل نضـال ألفى سنة من أجل البقاء اليهودى إلى دولة من المستوطنات، تديرها عصبة لا أخلاق لها من الخارجين على القانون.

من المريح جدا أن تكون صهيونيا فى مستوطنات الضفة الغربية مثل بيت إل وأورفا . والفضـاء الذى تحدث عنه الكتاب المقدس سـاحر . ويمكن أن تحـملق خلال النباتات المتسلقة ولا ترى الاحتلال. وبالسفر على الطرق السريعة التى تبعد فقط نصف ميل غرب حواجز الطرق الفلسطينية ، يصعب إدراك التجربة المهنية للعرب الذين يعاملون باحتقار ، والذين عليهم أن يزحفـوا ساعـات الطرق الوعرة ، المليئة بالحواجز التى خُصصت لهم . . . راقب هذه اللحظة جيدا : البنية الفوقية للصهيونية تنهار بالفعل مثل صالة أفراح رخيصة بالقدس . ولا يستمر فى الرقص فى الطابق الأعلى على حين تنهار الأعمدة فى الأسفل سوى الرجال المجانين . . .

إن إسرائيل وقد توقفت عن الاهتمام بأطفـال الفلسطينيين ، لا يجب أن تصيبـها الدهشة عندما يأتون وقد اغتسلوا بالكراهية ويفجرون أنفسهم فى مراكـز الهروب الإسرائيلى من الواقع . إنهم يسلمون أنفسهم إلى الله فى الأماكن التى نجد فيها الترفيه والتسلية ، لأن حياتهم عبارة عن عذاب . إنهم يريقون دماءهـم بأنفسهم فى مطاعمنا لكى يقضوا على شهيتنا لأنهم لديهم أطفال وآباء جوعى ومهانين فى منازلهم . إننا يمكن أن نقتل ألف من قادة المجموعات يوميًا دون أن نحل شيئا ، لأن القادة يصعدون من أسفل ـ من آبار الكراهية والغضب من «البنية التحتية» للظلم والفساد الأخلاقى» .

وقد نشـرت أصلاً فى جـريدة يديعوت أحـرونوت الإسـرائيلية ـ (Guardian, 15 September 2003).

وممنون بنفنستى نائب عـمدة سـابق فى القـدس (انظر الفـصل الخامس) . وهو هنا يصف رفضه «للحكاية الصهيونية» . والقصة الحقيقية هى :

«قـصـة الأهالى الذين يشـعـرون أن النـاس الذين جـاءوا من وراء البـحـر قـد لوثوا

عاداتهم الطبيعية وجردوهم من أملاكهم. وبالنسبة لى كان هذا اكتشافًا مذهلاً. لقد جاء بعد كامب ديڤيد، بعد أذى سنة ٢٠٠٠م.

ومثلما فهم حكام جنوب أفريقيا تمامًا - فى لحظة بعينها - أنه لا يوجد خيار سوى تقويض نظامهم الحاكم، كذلك يتعين على المؤسسة الإسرائيلية أن تفهم أنه ليس ممكنًا فرض مفاهيم الهيمنة لديها على ثلاثة ملايين ونصف مليون فلسطينى فى الضفة الغربية وغزة، ومليون ومائتى ألف فلسطينى مواطنين فى إسرائيل. وما يجب علينا أن نفعله هو محاولة الوصول إلى موقف المساواة الشخصية والجماعية داخل إطار نظام حكم واحد شامل فى جميع أنحاء البلاد.

وحتى الآن ليس لدىَّ اقتراح متماسك. وليست لدى خطة عمل. ولكن اتجاه الفكر واضح. إن النموذج الجديد يجد شرعيته فى الواقع الحقيقى. . . إن تنفيذ حكومة فيدرالية سوف يضرب نوعًا من التوازن بين المجموعتين الوطنيتين. ولن يزعجنى إذا ما كانت المساواة هى أساس هذا التوازن: واحدة بواحدة.

«وأعترف بوجود طبقة عاطفية هنا: هى هويتى الخاصة. إننى فى السبعين من عمرى الآن، ولى الحق فى إبداء الرأى والمشورة. وقد كنت جزءا من كل ما هو هنا: حركة الشباب والجيش والكيبوتزات والسياسة. أنا ملح الأرض، ولست أخجل من ذلك، إننى شخص إسرائيلى فخور مثل زهرة النوار. ولن أدع أحدًا يدعونى خائنًا. لن أدع أحدًا يقول: إننى لست من هنا - بما فى ذلك الفلسطينيين - إننى كما أراد أبى أن أكون بالضبط: من الأهالى. لقد أراد لى أن أنمو مثل شجرة من تراب الأرض. أرادنى أن أكون جزءًا طبيعيا من الفضاء. وربما يكون قد نجح: إننى ابن واحد من الأهالى. بيد أن هذه بلاد كان فيها العرب على الدوام. هذه بلاد يكون العرب فيها هم المشهد، هم الأهالى. ولهذا لا أخاف منهم.

إننى لا أتصور نفسى أعيش هنا بدونهم، وفى نظرى إنه بدون العرب تكون هذه الأرض أرضًا عاقرًا. «هذه هى نقطة الاختلاف التى تفرقنى عن أصدقائى فى اليسار؛ لأننى حقا ابن من أهل البلاد، أنجبته أسرة من المهاجرين، وقد انجذبت إلى الثقافة العربية واللغة العربية؛ لأنها هنا. إنها الأرض. . . أحب كل شىء ينبثق من هذه التربة. على حين أن اليمين - بالتأكيد - يكره العرب، ولكن اليسار يكرههم

أيضا. إن العرب يضايقونهم - إنهم يعقدون الأمور. إن الموضوع يولد أسئلة أخلاقية، وهذه بدورها تزرع القلق الثقافي.

هذا هو السبب في أن اليسار يريد هذا الحائط الرهيب، وهو في نظري ضد الجغرافيا، وضد التاريخ، وضد الإنسانية. هذا هو السبب في أن اليسار يريد الاختباء وراء هذا الحائط الذي هو اغتصاب للأرض.

ولهذا أظن أن الوقت قد حان لإعلان أن الثورة الصهيونية قد انتهت. وربما يجب أن يتم هذا بشكل رسمي، إلى جانب إقرار تاريخ لإلغاء قانون العودة. ينبغي أن نبدأ التفكير بشكل مختلف، ونتحدث على نحو مختلف... لأننا في النهاية سنصير أقلية يهودية هنا» (Ha'aretz, 8 August 2003).

إن إلغاء قانون العودة الذي يدعو إليه بنقنستي هنا، سوف يؤدي حقًا إلى الإطاحة بدعامة مهمة من دعائم الصهيونية، التي زعمت تاريخيًا لأي يهودي في أي جزء من العالم هذا الحق. وفي مكان آخر (الفصل الخامس) وصف بدقة طرد اللاجئين الفلسطينيين العرب سنة ١٩٤٨م بأنه «تطهير عرقي». إن حقهم في العودة هو أيضا شرط أساسي لمثل هذه التسوية.

ومقارنة بنقنستي بدولة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا صائب. فهناك تم إدراك حقيقة مهمة جدًا في الوقت المناسب: البنية المستبدة للدولة العنصرية يجب أن تتفكك، قبل أن تعصف بها ثورة دموية.

***

الهوامش

الفصل الأول

الكتاب المقدس.. هو مصدر ملكيتنا

١- عام ١٩٣٦م كان بداية الانتفاضة الفلسطينية العربية ضد الحكم البريطانى والمستوطنات الاستعمارية الصهيونية. الحكومة البريطانية التى كانت تشعر وقتها بإحباط متزايد قامت بإرسال اللورد بييل على رأس هيئة تحقيق ملكية إلى فلسطين للبحث عن سبل لحل الصراع. وستقوم بتناول انتفاضة عام ١٩٣٦م بالتفصيل فى الفصل السابع.

٢- كان لاڤون وزيرًا إسرائيليًا فى الخمسينيات من القرن العشرين، وربما كان مسئولاً أو غير مسئول عن فضيحة تورط فيها شباب مصرى يهودى قامت المخابرات الإسرائيلية بتجنيدهم ليقوموا بزرع القنابل فى مصر، وقد تم إعدام ثلاثة من المصريين. أما لاڤون الذى أصر على براءته فأجبر على الاستقالة من منصبه بشكل مخز. وفى عام١٩٦٠م قدم لاڤون طلبًا لرئيس الوزراء بن جوريون بفتح التحقيق من جديد فى القضية بحجة وجود أدلة جديدة. وفى أثناء التحقيقات التى تبعت ذلك ألمح لاڤون إلى تورط وزارة الدفاع فى التستر على بعض المتورطين ومن بينهم أتباع لبن جوريون. ومع ذلك لم تصل التحقيقات فى قضية لاڤون إلى نتائج مرضية وإن كانت بالفعل قد تسببت فى تحطيم حياة بن جوريون السياسية.

٣- مارتن جيلبرت هنا يقتبس من شباتى تيڤيث كاتب مذكرات بن جوريون الذى يتعاطف معه بشكل كبير.

٤-إيجال يادن رئيس قوات الدفاع الإسرائيلية وأحد أشهر علماء الآثار فى البلاد شرح مرة أنه بالنسبة للشباب الإسرائيليين أصبح «الإيمان بالتاريخ» بديلاً عن «الإيمان الدينى». ولكن هذا التمييز ينهار تماما إذا ما قمنا بالتعامل مع العهد القديم بشكل حرفى، أو حتى إذا ما أخذنا بعض المقاطع منه بشكل حرفى. نادية أبو حاج واحدة من الفلسطينيين القلائل الذين كتبوا عن سوء استخدام الصهيونية لعلم الآثار تناولت كتابات يادن بالبحث (Abu Al-Haj) (١ : ٢٠٠١م) ولسوء الحظ قامت أبو الحاج بنشر إنتاجها قبل وقت قصير جدا من الانفجار الداخلى الذى شهده علم الآثار الإسرائيلى.

٥- للدفاع عن التناول العلمى للتاريخ (محاولة فهم التاريخ من منظور علمى) انظر إيڤانز (1997).

٦- هذا الطرح مبنى بشكل أساسى على الدور الذى لعبه ناثان، نبى محكمة داود. داود يعترف بخطاياه لناثان ولكن هل كان ناثان نبيًا عبريًا أم مستشارًا للملك محلى آخر يتمتع بدرجة أعلى من الأخلاق والعدل عن تلك التى يتمتع بها داود؟ (Armstrong 1996: 40).

الفكرة هنا هى أن المعايير الوثنية للعدل اختلفت من شيخ قبيلة إلى أخرى. وداود كان مجرد شيخ قبيلة ولم يكن يتمتع بتميز خاص حتى وفقا لمقاييس العصر الذى كان يحيا فيه.

٧- تستطيع الحصول على شريط الڤيديو والكتاب المبنى على السلسلة التليفزيونية، انظر ستجريس(٢٠٠١م) السلسلة التليفزيونية التى قدمها چون ماكارثى يمكن الحصول عليها من CTVC, email: library@CTVC.co.uk.

٨- يوفر كتاب فينكلستاين وسيلبرمان أحدث رصد للموضوع حتى الآن.

٩- يوجد أيضًا دعاية قوية مناهضة للملكية وهى كتب صاموئيل. وأريد هنا أن أشكر موسى ماكوڤر على ملاحظته العميقة التالية: «يحتمل أن تكون هذه هى أفضل أسفار العهد القديم جمالاً وإثارة. ولا شك أن من كتبوها كانوا رجال دين مناهضين للملكية، وكلهم رفض رفضًا حادًا الممارسات الملكية، ولا يفوتون فرصة دون أن ينتقدوا فيها داود الذى يرونه شريرًا حقيقيًا».

الفصل الثانى

نفى اليهود.. هو خاصيتهم المميزة

١-كتاب زيروباڤل رائع وحساس، ولكنه أيضًا، وبلا شفقة، يكشف العديد من التشوهات الصهيونية للتاريخ اليهودى القديم. فانظر على سبيل المثال لتحليلها الناقد للطريقة التى حولت الصهيونية إلى أسطورة كلٍّ من الانتحار الجماعى فى مسادا بعد سقوط المعبد الثانى فى القدس، أو بعد ذلك التمرد اليهودى على الرومان بقيادة القائد الأسطورى بار كوخبا. فاز الكتاب فى عام ١٩٩٦م بجائزة سالو بارون المرموقة التى تمنحها الأكاديمية الأمريكية للبحوث اليهودية. أود أن أشكر ديڤيد سيزارانى البروفيسور بجامعة ساوثهامتون لأنه لفت نظرى لهذا الكتاب.

٢- لسوء الحظ من غير الممكن أن نعطى فى هذا الفصل لتلك الشخصية غير العادية المثيرة

للجدل، والتى تعرف بيوسيفوس، ما تستحقه من اهتمام. أفضل دراسة له هى دراسة تيسا راجاك (١٩٨٣م). ولأن يوسيفوس شخصية لا يمكن إلى حد بعيد الاعتماد عليها، فإن استخدامى له فى هذا الفصل يعتمد حصريًا على التفسيرات الحديثة الجادة المبنية على دراسات عميقة.

٣- حكام الإمبراطورية الفارسية أعادوا القيادة اليهودية الدينية إلى القدس بعد أن سيطروا على بابل. وكان الحاكم السابق قد دمر المركز الروحى السابق لليهود فى القدس وقام بعد ذلك بنفى اليهود أو على الأقل قادتهم الدينيين إلى بابل. وهناك بعض الحقائق التاريخية فى هذه الحكاية المعروفة من حكايات الكتاب المقدس. ومن أجل الحصول على مقدمة لتحليل علمانى انظر مقدمة كتاب بواز أفيرون (1995: 15-16) وهو كاتب إسرائيلى تقدمى غير صهيونى. انظر أيضًا الملاحظة رقم ١٥ بعد ذلك. وللتعرف على رؤية للتاريخ اليهودى تعتبر نصف علمية ونصف محطمة للقيود الدينية انظر كتاب **Jewish History, Jewish Religion** للكاتب الإسرائيلى الراحل شاحاك الذى كان ناشطًا إسرائيليًا فى مجال حقوق الإنسان وكان معاديًا للصهيونية.

٤- تشيريكوفر وفاكس قاما بشكل مشترك بتحرير مجموعة مذهلة من البرديات تم اكتشافها فى الصحراء المصرية وعرفت باسم **Corpus Papyrorum Judaicarum (CPJ)**. وهذه كانت بقايا مستندات رسمية وشبه رسمية قانونية تعكس قوانين الحياة الاجتماعية فى مصر تحت حكم البطالمة اليونان ثم بعد ذلك الحكم الرومانى.

٥- هذا مشابه بشكل مذهل للجدل حول أرض الوطن، واليهود فى مصر، الذى دار بعد ذلك بألف سنة. انظر الفصل الرابع.

٦- اشتكى بن جوريون لدويتشر من اليهود الكوزموبوليتانيين عديمى الجذور. (Deutscher 1968: 92).

٧- للاطلاع على تحليل مختصر ولكنه رائع فى وضوحه حول كيف أن اليهودية كادت أن تصبح دين العامة فى الإمبراطورية الرومانية، متضمنًا وصف لتدخل القديس بولس، انظر كتاب هارمن (1999: Chapter 6).

٨- هذا النقش الرائع يعيدنا إلى النقطة التى تناولناها فى نهاية الفصل الأول حول كيف أن السامرة اعتبرت نفسها إسرائيل الحقيقية.

٩- وفقا لشين كوهين فإن «يوسيفوس أراد أن يعترف إليعازر بشكل علنى بأنه هو وأتباعه الذين أشعلوا الحرب قد أخطأوا وأنهم الآن يعاقبون من الرب بسبب خطاياهم» (Cohen 1983: 396) هذه المقالة كتبها كوهين فى Vermes and Neusner عام ١٩٨٣م . ويجادل كوهين هنا بأن يوسيفوس استخدم الخطبة ليشير إلى روما أن المتمردين اليهود كانوا على خطأ حين أشعلوا التمرد، وهو موقف يتلاءم مع شخصية يوسيفوس عندما استقر ليكتب تاريخه، وسعى إلى التقرب من روما بعدما تم سحق التمرد. وكما يقول راجاك بشكل أكثر رقة، فإن «مجرد إعادة توجيه خطابه وتحويله إلى مدح أبناء بلده (فى مسادا)، تلك المعادلة الموالية للفلاڤيين والرومان تأتى مليئة بالتناقضات (Rajak 1983: 221)، وللاطلاع على تفسير حديث مقروء شيق، وإن كان مضللاً، بعض الشىء للتمرد اليهودى ضد الرومان، انظر فولكنر (٢٠٠٢) ونقدى الودود له فى دورية International Socialism العدد رقم ٩٨ وقد قام فولكنر بالرد على فى نفس الدورية العدد رقم ١٠١).

١٠- إحدى لفائف البحر الميت التى تم اكتشافها فى موقع قمران فى القرن العشرين. لفائف البحر الميت هى واحدة من أهم المصادر التاريخية حول اليهودية القديمة.

١١- تمرد الشتات فى عام ١١٧ حطم المجتمعات اليهودية فى مصر والقورينية (ليبيا اليوم). ويوجد الكثير من الإشارات إلى ذلك فى كتاب باركلى(١٩٩٦م).

١٢-لسوء الحظ فإن المساحة المتاحة لا تقف دون مناقشة هذا التمرد غير المفهوم بشكل مفصل. للاطلاع على نقد ساخر للمحاولة الصهيونية الحديثة لدمج بار كوخبا انظر زيروباڤل (1995: Chapters 4, 7 and 10).

١٣-«وجدير بالملاحظة هنا أن المثقفين اليهود كانوا عمالا حرفيين» (Goodman: (1983:93).

١٤-على ما يبدو فإن الدليل يأتى بشكل أساسى من منطقة الحدود مع الجليل (Goodman: (1983: 41-53).

١٥-المقعد التعليمى اليهودى فى بابل فى ذلك الوقت، وتحت رعاية الممالك الفارسية المتجددة، وعلى الرغم من أننا لا نعرف الكثير عنه، إلا أنه فى الحقيقة أهم لتطور اليهودية فى الحقبة الزمنية المتداولة. ينظر إلى التلمود البابلى على أنه أهم بكثير من التلمود الفلسطينى. ولا يمكن بأى منطق أن نعتبر أن هذه المجتمعات اليهودية، التى عاشت تحت الحكم الفارسى، كانت تعيش فى المنفى. الحقيقة أنهم يحسبون عمر النفى الدينى من زمن

نبوخذنصر (انظر ملاحظة رقم٣) ولكن أغلب هؤلاء اليهود لم يتجهوا صوب القدس بعد أن أعاد لها الفرس دلالتها الدينية. أبا إيبان، السياسى الصهيونى الذى أشرنا إليه فى الفصل الأول، كان أيضا عالما فى الدراسات الفارسية. وحتى إيبان يستنتج أن اليهود عاشوا فى منطقة بابل «دون انقطاع» (Eban 1984: 101) لفترة أطول من خمسمائة سنة قبل النفى! وسيتناول الفصل العاشر قصة اليهود فى بابل بمزيد من التفصيل.

الفصل الثالث

ثمانية عشر قرنا من المعاناة اليهودية

١- كيرلبياخ (١٩٧٨م) على سبيل المثال، خصص كتابه فى محاولة إظهار وجود ما يربط بين مارتن لوثر وكارل ماركس، «اليهوديين الكارهين لأنفسهما»، وبين أدولف هتلر.

٢- البروفيسور ماكسيم راديسون نشر مخطوط ليون عن المسألة اليهودية فى جامعة السوربون عام ١٩٦٨م.

٣-انظر هالفى (102-93 :1987) من أجل الاطلاع على تناول مثير لتحولات الخزر وتعليق على ادعاءات آرثر كويستلر على انتشار التحول لليهودية فى ذلك الوقت.

٤-انظر الدورية السنوية Studies in Polish Jewry، التى يحررها أنطونى پولونسكى. ووفقًا لأحد الحكماء اليهود «فإن سبب تسمية پولندا بهذا الاسم هو أنه يأتى من كلمة Polin، التى تأتى من poh lin بالعبرية والتى تعنى «هنا سوف ترسون».

٥- وهو الذى صدم أتباعه بتحوله إلى الدين الإسلامى.

الفصل الرابع

«نحن» اليهود، «هم» العرب (١)
رسالة من معبد يهودى بالقاهرة منذ ألف سنة

١- من المفهوم أن جويتن مشغول بالبحث التفصيلى فى التفاعلات الداخلية للمجتمع اليهودى من الناحية الدينية والاجتماعية، بالإضافة إلى علاقة اليهود بالإطار السياسى والاقتصادى والثقافى الإسلامى الأوسع. والتركيز هنا وربما بشكل حصرى على الجانب الثانى.

٢- انظر تعليقات إدوارد سعيد على لويس(١٩٩٥م).

٣- المجتمع الدينى القانونى قد يكون تعريفًا أفضل إذا ما وضعنا فى اعتبارنا فكرة الأمة الملتصقة بشدة بالعقلية الحديثة. وأنا ممتن لفيل مارفليت لهذه الملاحظة.

الفصل الخامس

«أرض بلا شعب ....»

١- كتاب المسألة الإسرائيلية الفلسطينية (١٩٩٩م) الذى حرره إيلن پاپى ساعد على كسر الثلج الذى يغطى هذا الموضوع.

٢- إن تقديم تاريخ دقيق للفلاحين الذين لا يتركون آثاراً مكتوبة عن حياتهم هو أمر شديد الصعوبة. وتعوض دراسة دومانى الرائعة هذه المشكلة من خلال النظر فى المصادر المحلية، مثل سجلات المحكمة الشرعية الإسلامية و المجلس الاستشارى فى نابلس، التى كانت تتضمن عرائض الفلاحين وأوراق التجار العائلية الخاصة.

٣- هذا لا يعنى أن الفلاحين الفلسطينيين فى نابلس هم من نسل السامريين. قد يكون بعضهم كذلك، ولكن علينا أن نتذكر أنه، كما بين الفصل الأول، كيف كانت الثقافة الكنعانية قوية، وهو ما يعنى أن الكثير من الفلاحين قاوموا انتشار اليهودية لأسباب مختلفة.

٤- كان الموقف الرسمى هو أن الإمبراطورية العثمانية كانت تملك معظم الأرض، بينما يدفع الفلاحون ضريبة لاستخدام الأرض. ولكنهم كانوا يمارسون ما يعرف بحق الانتفاع، وهو ما يعنى أنه طالما أن الأرض لم تترك بغير زراعة لمدة ثلاث سنوات فإنها تعتبر ملكًا لهم: وبالفعل كانوا يفعلون ذلك، فقد كانوا يقومون بشراء وبيع الأراضى، وإن كانوا فى أغلب الأوقات وبسبب الديون المتراكمة يتجهون للبيع.

٥- عدم وجود مساحة كافية يمنعنا من مناقشة مصير صناعة القطن الفلسطينية والتى يبلغ عمرها أكثر من ألف عام، وازدهرت بشكل كبير، ثم انتكست فى منتصف القرن التاسع عشر. وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر دومانى (١٩٩٥م) فصل «نسيج وتجارة القطن».

٦- رشيد الخالدى هو عضو فى عائلة معروفة من وجهاء القدس. وعمدة القدس الأول كان من نفس العائلة. وكان رشيد مستشاراً للوفد الفلسطينى فى مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١م.

تعلم هذا الجيل من المثقفين في المدارس الثانوية التي أنشئت في كل مكان بالإمبراطورية العثمانية، في الجزء الأول من القرن العشرين. ولم تستطع السلطات العثمانية أن تضاهي الإقبال المتزايد على التعليم الثانوي، ولهذا ازدهرت العديد من المدارس الخاصة. وكانت هذه المدارس متواضعة في مظهرها وكانت تعلم الحساب والعلوم واللغات الأجنبية، بالإضافة إلى حب اللغة العربية والتاريخ العربي. واحدة من أشهر هذه المدارس في القدس كانت تقوم بشكل متعمد بجمع أبناء الأديان المختلفة، بينما أبهرت مدرسة أخرى المحرر الفلسطيني لصحيفة قاهرية؛ وذلك لأنها كانت على استعداد للتنبيه ضد مخاطر الصهيونية. وكتب المحرر: إن المدرسة كانت «حجر أساس لبناء مستقبل فلسطين». هذه المدارس كانت بمثابة بوتقة صيغت فيها الهوية القومية الفلسطينية (Khalidi 1997: 46-53).

الفصل السادس

«... لشعب بلا أرض»

١ - «أناس بلا جذور في البنية الاجتماعية.. بلا وظيفة.. باعة متجولون.. رجال نحيفة بملابس مهلهلة، أناس يكسبون قوت يومهم من توفيق حالات الزواج وتنظيم الأفراح، مقابل الحصول على نسبة من المهر» (Deutsher 1968: 62).

٢- منحة جوناثان فرانكل الدراسية المعترف بها على نطاق واسع، توفر التوازن المفقود في علم كتابة التاريخ الصهيوني.

٣- في الصناعات الهامشية، لعب العمال الذين جاءوا من أقليات عرقية والذين ناضلوا من أجل الحصول على حقوقهم في أحيان كثيرة دورًا لا يتناسب مع حجمهم في توجيه الغضب السياسي المتصاعد في اتجاه تقدمي. ففي عام ١٩٧٧م كان من حسن حظي أنني كنت مراسل صحيفة العامل الاشتراكي لتغطية الإضراب الذي قامت به العاملات الآسيويات في مصنع جرانويك الصغير في شمال لندن. تمكن الإضراب من كسب انتباه كل الحركة النقابية والعمالية في بريطانيا، وقام أرثر سكارجيل ممثل عمال المناجم في يورك شاير بزيارتهم، وكذلك فعل وزراء في حكومة حزب العمال من بينهم شيرلي ويليامز. وكان الإضراب يمثل كلاً من الدفاع عن الحقوق النقابية والتضامن بين العاملات البيض والآسيويات، في وقت كانت الجبهة الوطنية العنصرية تحرز نجاحات ملحوظة على الصعيد الانتخابي في المناطق العمالية للبيض فقط.

٤- تروتسكى بالطبع كان يهوديًا، وهذا لم يقف دون انتخابه رئيسًا لسوفييت العمال فى سانت بطرسبرج.

٥- لم يتعاف البوند تماما بعد ١٩٠٥م وعلى الأقل لم يرجع إلى قوته السابقة بأى صورة. فرغم أن عملية بناء الحزب بدأت ببطء فى عام١٩١٠م، إلا «أن الأمور لم تعد كما كانت. فالبوند أصبح الآن يواجه منافسة من حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الراديكالى ـ من المناشفة والبلاشفة ـ والذى طور من نشاطه بين العمال اليهود. وبشكل عام نجحت الأحزاب الاشتراكية الروسية فى مقاومة الأزمة أفضل من البوند»(Weinstock 1984: 223).

لمعرفة المزيد عن تاريخ الحركة العمالية اليهودية فى القرن العشرين، انظر ناثان واينستوك Le Pain de misere, histoire du mouvement ouvrier juif en Europe (1984) وهو متوافر فقط باللغة الفرنسية. وأنا ممتن لسابى سيجال لأنه قام بترجمة هذه الفقرة من الكتاب.

٦- واينستوك (١٩٧٩م)، وللأسف نفدت طبعات الكتاب الذى يظل واحدا من أفضل عمليات التأريخ الماركسية للاستيطان الصهيونى فى فلسطين.

٧- يتذكر تونى كليف مقهى يهودى فى تل أبيب هوجم وتحطم تقريبا فقط بسبب شائعة تقول إن هناك عربى يعمل فى مطبخه (Cliff 2000: 8).

٨- هذه كلمات كارل كاوتسكى الذى حمل تراث أفكار ماركس مباشرة بعد رحيل فردريك آنجيلز شريك ماركس طوال مشوار حياته.

٩- كتاب بيت حالامى (١٩٩٢م) مصدر جيد بشكل خاص فى عرض قصة نجاح اليهود فى بريطانيا.

الفصل السابع

هل هى إسرائيل الصغيرة الجسورة؟ أم محمية القوة العظمى؟ (١)
بريطانيا والمستعمرة الصهيونية فى فلسطين

١- مقتبس من بول فوتر (1980:18) روبرت ستيوارت ڤايكونت كاسلرياه كان وزير حرب فى عامى ١٨٠٦- ١٨٠٧م و ١٨٠٧ - ١٨٠٩م ثم وزيرًا للخارجية عام ١٨١٢م. چون سكوف ڤايكونت أول ألدون كان رئيسا لمجلس اللوردات. هنرى أدينجتون ڤايكونت أول

ألدّون، كان رئيسًا لمجلس اللوردات. هنرى أدينجتون ڤايكونت أول سيدموث، كان رئيسًا للوزراء فى الفترة ما بين ١٨٠١ و١٨٠٤م ووزيرًا للداخلية بين عامى ١٨١٢ و١٨٢١م.

٢- «نفاق ورياء كنفاق التماسيح». . ويا لها من شجرة ممتدة الفروع على المستقبل. تذكر ديڤيد بلانكت وزير الداخلية البريطانى وهو يستعير كلمة تاتشر الساحرة «يُغرقون» وهو يشتكى فى عام ٢٠٠٣م من اللاجئين السياسيين، وفى الوقت نفسه يصر على أن بريطانيا ستحافظ على التزاماتها تجاه طالبى اللجوء السياسى.

٣- يرصد ليڤين (1992 a) سلوك الصهاينة الرهيب أثناء محاولتهم فرض أنفسهم على قمة المجتمع اليهودى فى بريطانيا فى دراسة عميقة عن واحد من الشخصيات غير الصهيونية البارزة فى هذه الفترة والذى نسى بشكل أو بآخر الآن وهو لوسيان وولف.

٤- الصهيونية بلا شك هى السبب الرئيسى وراء «معاداة السامية» فى العالم العربى والإسلامى، وسوف أعود إلى هذه النقطة فى الفصل الأخير.

٥- فى الفصل الخامس كنت ناقدًا لاذعًا لكتاب Origins of Zionism لڤيتال، وهو الجزء الأول من ثلاثيته عن تاريخ الصهيونية. ورغم ذلك فإن قراءة الجزء الثالث من المجموعة The Critical Phase مهمة جدًا لنبدأ فى فهم الإجراءات الغريبة التى أثمرت عن وعد بلفور.

٦- بالغ تشرشل فى تقديره لأهمية اليهود الأمريكيين، معتقدا أن دعم بريطانيا للصهيونية سوف يعزز دعم اليهود الأمريكيين لوجود أمريكا فى الحرب (Cohen 1985: 74). ويقدم ڤيتال تفسيرًا محتملاً لهذا الهوس بسلطة اليهود أثناء فترة الحرب، ويكتب قائلا إن توازن القوى بين الأطراف المختلفة فى الحرب كان «متساويا جدا وغير ثابت ولهذا فكان للخوف أو الأمل فى أن ينجح أى عنصر إضافى فى جعل الكفة تميل هنا أو هناك خوفا له وجاهته» (Vital 1987: 191).

٧-بدأ التمرد كإضراب عام - حملة لعدم التعاون اقتصاديًا مع البريطانيين والصهاينة استمرت لستة شهور. ثم تحول الأمر بعد ذلك إلى حرب عصابات فى الريف. ولا يوجد تأريخ كاف لهذا التمرد.

الفصل الثامن

الهولوكوست النازى . . برهان الضرورة الملحة لدولة يهودية

١- ينكر بريمو ليڤى أنه كان شاهدًا حقيقيًا: انظر أسبابه مذكورة فى كتاب هوبسباوم

(1994: 1) شهادات الهولوكوست وفنه يتطرقون أيضا إلى هذا الموضوع، الذى لا توجد كلمات قادرة على وصفه، وهو مسألة بقاء يهود على قيد الحياة على حساب موت يهود آخرين. انظر المشهد البربرى فى فيلم Shoah للانذمان، النص المكتوب للفيلم (1985: 114-16) وأمثلة أخرى فى كتب الكارتون غير العادية Maus الجزء الأول والثانى. (Spielgelman 1987 and 1992).

٢-أود أن أشكر موسى ماكوڤر لأنه لفت انتباهى إلى هذا الكتاب المنشور بشكل سرى.

٣-هذا الجزء من الرسالة استشهد به إن. إسرائيلى فى بوبر(١٩٧٢م) إن. إسرائيلى كان اسما مستعارا استخدمه موسى ماكوڤر وأكيڤا أور، الإسرائيليان الراديكاليان اللذان بنيا تحديا كبيرا للنفوذ الصهيونى وسط الحركة الطلابية الراديكالية العالمية فى ١٩٦٨ وما تبع هذه الحركة.

٤- بعض المستندات المتعلقة باتفاقية التهجير «الترانسفير» أعيد طبعها فى كتاب برينر (٢٠٠٢م) وأقدم تعليقا نقديا على تناول برينير فى الملاحظة التالية.

٥- مشكلة تناول برينر يمكن اختصارها فى العنوان الفرعى لكتابه 51 Documents كتابه السابق (1983) Zionism in the Age of the Dictators كان إبداعًا حقيقيًا يظهر بعض الحالات المريعة التى تعاون فيها الصهاينة مع النازيين فى أوقات معينة. ويظهر الكتاب قدرة الصهيونية على محاكاة معذبها فى بعض الأوقات. ولكن من الغباء أن نصل إلى استنتاج بأن التعاون الصهيونى مع النازيين كان مبنيا بشكل أساسى أو تلقائى على المشروع الصهيونى، وهو تأويل يمكن وضعه على العنوان الفرعى لكتاب برينر 51 Documents. الصهيونية كانت قادرة عن جدارة، على استثارة المقاومة ضد النازيين، كما يوضح زوكرمان أحد قادة انتفاضة جيتو وارسو فى مذكراته الضخمة A Surplus Memory. صحيح أن زوكرمان نفسه كان ناقدا لكسل القادة الصهاينة عندما يتعلق الأمر بالإنقاذ والمقاومة، إلا أنه لم يشك أبدا فى كون الصهيونية نفسها مسئولة عن ذلك. انظر أيضًا رواية ليڤاى الرائعة التى تحمل فى جزء منها سيرة ذاتية للكاتب وهى رواية (1987) If Not Now, When? التى تحكى قصة مناضلين يهود يحاربون النازيين فى الغابات. كون أن هذه الصهيونية نفسها استخدمت مناضليها ومقاوميها الأبطال ضد النازية لتحقيق نتائج متناقضة تماما أيديولوچيا فى فلسطين، هو أمر آخر.

٦- الخروج أصبح أسطورة بنفس الدرجة فى بلدى ومسقط رأسى.

٧- للتعرف على إشكالية رد الفعل العربى، انظر الفصل الأول فى كتاب پاپى «المعركة الديبلوماسية».

٨- رواية البحث عن فاطمة لغادة كارمى.

٩-ولكننا نعلم أن ذلك ليس مقصوراً على الحقبة النازية. ففى عام ١٩٩٤م ذبح حوالى مليون شخص فى رواندا فى مائة يوم فقط، وهو معدل للقتل أعلى بكثير من معدل الهولوكوست. وقد استخدمت الأمم المتحدة فى وصفها ما حدث تعبير الإبادة الجماعية ولأول مرة منذ الهولوكوست. وكان ما حدث هو محاولة منظمة للقضاء على مجموعة عرقية وهى التوتسى من قبل حكومة الهوتو القوية، وكان الهوتو يمثلون الغالبية فى روندا. وقد أطلق الهوتو على عمليات القتل هذه «الحل الأخير». فرق القتل الهوتية تم تجنيدها بشكل مباشر من رحم الانهيار الاقتصادى الذى شهدته البلاد فى أواخر الثمانينيات. وكان رجل إنجليزى قد أدخل علم العرقيات إلى رواندا فى القرن التاسع عشر، وبعد دراسة متأنية توصل إلى أن التوتسى هو جنس أرقى، ولهم ـ فى أغلب الظن ـ أصول أوروبية. وبعد ذلك لعبت بلچيكا التى احتلت البلاد على الخلافات بين الهوتو والتوتسى بحيث جعلتها سمة مميزة لرواندا. وفى فترة الإبادة الجماعية لعبت دعاية الهوتو على هذه الخلافات. هذه المعلومات من كتاب فيليب جوريفيتش(١٩٩٩م).

١٠- على الرغم من عدم وجود سلطة دولية جادة لها القوة أو الرغبة فى تنفيذها.

١١- لفت ماكوڤر نظرى إلى ما يسميه الفصل الناقص فى كتابى والذى يجب أن يكون الفصل التالى وفقًا للترتيب الزمنى. هذا الفصل كان يجب أن يتضمن كل الأساطير الصهيونية التى أحاطت بحرب ١٩٤٨-١٩٤٩م. ولكن لحسن الحظ، كما يقول، فإن هناك كتابًا كاملاً وليس فصلاً واحدًا يدحض هذه الأساطير واحدة واحدة. هذا الكتاب هو The Birth of Israel: Myths and Realities. (1987) لسمحا فلاپان الذى كان صهيونيّا طوال حياته لكنه غير رأيه فى نهاية حياته، أما الأساطير التى دحضها الكتاب فهى (أ) الصهاينة قبلوا قرار الأمم المتحدة بالتقسيم وأنهم كانوا يخططون للسلام. (ب) العرب رفضوا قرار التقسيم وخططوا للحرب. (ج) الفلسطينيون هربوا بشكل طوعى بهدف إعادة الغزو. (د) كل الدول العربية اتحدت لطرد اليهود من فلسطين. (هـ) الاحتلال العربى جعل من الحرب أمرًا لا يمكن تجنبه. (و) إسرائيل التى لا تستطيع الدفاع عن نفسها واجهت التدمير من قبل جالوت العربى. (ز) إسرائيل كانت دائمًا تسعى للسلام ولكن لم يكن هناك أى زعيم عربى متجاوب.

هل هى إسرائيل الصغيرة الجسورة ؟
أم محمية القوة العظمى؟ (٢)
الرصيد الاستراتيجى للولايات المتحدة

١- وأنا أنهى كتابة هذا الفصل فى صيف ٢٠٠٣م، نشر العالم الفلسطينى ناصر عرورى كتابه Dishonest Broker: the US Role in the Middle East and Palestine . وهو كتاب ممتاز يجب قراءته مع كتاب تشومسكى.

٢- لتحليل موضوعى للمساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل يمكنك زيارة موقع Washington Report on Middle East Affairs على الإنترنت تحت عنوان المساعدات الأمريكية المالية لإسرائيل: الأرقام والحقائق والتأثير.

٣- موقع Middle East Research and Information Project: www.merip.org .

٤- سأناقش «معاداة العرب للسامية» فى الفصل العاشر.

٥- كتاب أرورى (2003: 205-9) يقدم رصدا دقيقًا لهذه الحقبة الخسيسة من فترة ولاية الرئيس بوش.

٦- هذه النقطة ناقشها الكس كالينيكوس بالتفصيل فى مقاله الاستراتيجية العظمى للإمبراطورية الأمريكية فى دورية International Socialism Journal العدد السابع والتسعين (London: Socialist Workers Party, 2002).

٧-انظر مقال إم. تى. كلير «خطة بوش الأساسية للنفط» والمنشورة بتاريخ ٢٣ أبريل ٢٠٠٢م على موقع www.alternet.org وهى المقالة التى تناولها كالينيكوس فى مقاله سابق الذكر.

٨- انظر أيضا مقال جاسون ڤست «رجال من JINSA و JSP» فى مجلة ذا نيشن الأمريكية بتاريخ ٢ سبتمبر ٢٠٠٢م وهو متوافر على شبكة الإنترنت.

٩- فى وقت التحرير النهائى لهذا الكتاب فى أبريل ٢٠٠٤م، كان مصير خارطة الطريق قد أصبح واضحا. فقد تبنى بوش خطة شارون بانسحاب أحادى الجانب من قطاع غزة وتعزيز معظم المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية. ورفضت الولايات المتحدة الأمريكية توجيه النقد لإسرائيل لاغتيالها قادة حماس الشيخ أحمد يس والشيخ عبد العزيز الرنتيسى فى

تناقض سافر لنقد الرئيس بوش قبل ذلك المحاولة الفاشلة لاغتيال الرنتيسى . وبالإضافة إلى ذلك سمحت الولايات المتحدة لإسرائيل بالاستمرار فى بناء ما يسمى بالجدار الأمنى ، والذى يسميه المراقبون فى كل مكان فى العالم بجدار الفصل العنصرى . وبات من الواضح أن بوش وشارون استبعدا حتى القادة العرب الأكثر اعتدالا وهما يضعان نهاية خارطة الطريق .

من المؤكد الآن أن المحافظين الجدد يتحكمون بشكل كامل فى حكومة بوش ، ربما . ولكن ألم تكن حكومة بوش أيضًا تشهد علامات يأسها وتتمسك بصديقها الوحيد فى منطقة الشرق الأوسط فى الوقت الذى كانت سياستها فى المنطقة ، وبشكل حرفى ، تتبخر مع دخان القنابل؟ فسياسة بوش فى العراق أدت إلى إحداث فوضى جعلت بوش يطلب من الأمم المتحدة التدخل لمساعدته فى الخروج من هذه الورطة ، وهى بالضبط السياسة التى كان المحافظون الجدد يرفضونها . بل إن بوش قام أيضا بمدح الأخضر الإبراهيمى مبعوث الأمم المتحدة إلى العراق ، فى نفس المؤتمر الصحفى الذى أعلن فيه عن تأييده لشارون والذى عقده فى البيت الأبيض فى ١٦ أبريل ٢٠٠٤م . وقد يتذكر القارئ البريطانى وجود رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير وهو يقف بائسًا فى ظله . ومع ذلك رفض إبراهيمى سياسة بوش تجاه إسرائيل ، ولم يخش من مهاجمتها بشكل علنى . وعلى الفور بعد تبنى بوش لسياسات شارون ، قام الإبراهيمى عدة مرات بمهاجمة إسرائيل بشكل حاد واصفا سياساتها بأنها ليست أكثر من «سمٌ فى المنطقة» (Ha 'artez, 24 April 2004) .

الفصل العاشر

«نحن» اليهود «هم» العرب (٢)
التعايش اليهودى العربى المفقود
والبحث عن شعلة الأمل من الماضى

١ – يناقش كرامر التنوع الكبير للخلفية الإثنية ليهود مصر فى كتابه The Jews of Modern Egypt 1914-1952. وعلى الأرجح كانت أقدم جماعة يهودية فى مصر فى بدايات القرن العشرين هى الكرايتين (Kramer 1989: 22-6) ، وكان عددهم ما بين ستة وسبعة آلاف يهودى من أبناء البلد من بين جالية مهاجرة وصلت إلى حوالى خمسة وعشرين ألفًا فى مصر عام ١٨٩٧م .

٢ – عباس شبلاق من الفلسطينيين القلائل الذين كتبوا عن اليهود فى البلاد العربية .

٣- اقرأ ما كتبه نعيم جيلادى أحد أعضاء الفهود السود على موقع www.inminds.co.uk على شبكة الإنترنت. تستطيع أيضا الاطلاع على الفصل ذى الصلة فى كتاب ديفيد هيرست البندقية وغصن الزيتون على الموقع التالى : www.mideastfact.com/ iraqi- jews-hirst.html وأنا مدين بالشكر لرونالد رانس لأنه لفت انتباهى لهذين الموقعين.

٤-الكتاب هو دورية باللغة الإنجليزية يصدرها اليهود العراقيين السابقين، ويمكن الحصول عليها من على شبكة الإنترنت من خلال البريد التالى scribe@dangoor.com.

٥-الانقلابات العسكرية التى قام بها ضباط عرب فى الجيش برتب متوسطة وصغيرة كانت ضرورية فى النهاية للتخلص من الحكم الاستعمارى، وهو ما جسد فشل كلٌ من الحركات الديمقراطية الليبرالية والحركات الشيوعية فى تحقيق ذلك.

٦-لمزيد من التفاصيل حول هذا الجزء المتجاهل من تاريخ الشرق الأوسط، انظر كتاب شلايم (23-117 :2000). إن انفتاح عبد الناصر بل وربما حتى عقلانيته الساذجة فى تلك المرحلة المبكرة من حكمه يرد على كل الصور التى حاول الصهاينة والغرب رسمها للزعيم المصرى الراحل.

٧- بحث جويل بينين (١٩٩٨م) رائع، ولكنى أتفق معه بشكل جزئى فى تفسيره، حيث يرى أن كلاً من القومية العربية والصهيونية مسئول بنفس الدرجة عن إبعاد اليهود المصريين.

٨- هذا أيضا كان مصير يوسف درويش. وقد حالفنى الحظ وقابلت هذا القائد الشيوعى المصرى السابق فى القاهرة عام ٢٠٠٢م. كان درويش وهو فى عامه الواحد والتسعين بصحة جيدة وهو يتحدث بحرية وعمق عن خلفيته اليهودية وعن عدائه للصهيونية والدمار الذى لحق بالقضية الشيوعية بسبب اعتراف ستالين بإسرائيل. لقد كان لدى يوسف درويش كل حجة للانفصال عن أصوله المصرية. فقد تعرض للتعذيب مع العشرات غيره من الشيوعيين فى سجون عبد الناصر. بل إن الشيوعيين المصريين أنفسهم فرضوا حظرًا يمنع تولى اليهود الأعضاء من الترشيح لعضوية اللجنة المركزية، وذلك على الرغم من تحول ثلاثة من القيادات القادرة على ذلك إلى الإسلام، وكان بينهم يوسف درويش. كان ذلك مثالاً قاسيًا وإن كان دقيقًا لعدم قدرة حتى الأطياف اليسارية فى الثقافة السياسية على الوقوف فى وجه الخطاب السائد الذى حركته الصهيونية وتبنته القومية العربية خاصة بعد حرب السويس. كل يهودى، حتى من أسلم منهم، كان خائنًا محتملاً للأمة العربية. وبالطبع يمكن أن نفسر ذلك بأنه

معاداة عربية للسامية، ولكن الأهم من ذلك أنه عكس حجم نجاح الصهيونية فى تحديد تعريف اليهودى فى الشرق الأوسط لتجعله يعنى مواطنًا محتملاً للدولة اليهودية المقامة على أرض يهودية مسروقة. ولكن لم يؤثر أى من ذلك على حماس درويش لمعتقداته اليسارية أو على حبه لمصر وثقته فى إمكانيات شعبها.

للمزيد من المعلومات عن يوسف درويش انظر المقال الذى كتب عنه فى مجلة كايرو تايمز التى تصدر باللغة الإنجليزية فى عددها الصادر فى نوفمبر ٢٠٠٠م، ويناقش جويل بينين هو الآخر يوسف درويش وباقى الشيوعيين اليهود فى كتبه

Was the Red Flag Flying There? Marxist Politics و The Dispersion of Egyptian Jewry and the Arab-Israeli Conflict in Egypt and Israel, 1948-1965.

خاتمة ... من الرماد

١- انظر سيلبرستاين (١٩٩٩م) ونيمنى (٢٠٠٣م).

***